جان بول سارتر

رواية

الغثيان

ترجمة د. سهيل إدريس

ورقة بلا تاريخ

سيكون الأفضل كتابة الأحداث يوماً بيوم . تسجيل يوميات لتتيح مواجهة الأمور بوضوح . وينبغي تجنّب إهمال الفروق والدقائق والامور الصغيرة ، حتى ولو كانت تبدو لا قيمة لها ، وينبغي خصوصاً تصنيفها . يجب أن أقول كيف أرى هذه الطاولة ، والشارع ، والناس ، ورزمة التبغ ، مادام هذا هو الذي تغيّر . يجب تحديد مدى هذا التغيّر وطبيعته تحديداً دقيقاً .

فهذه مثلاً علبة كرتون تحتوي على زجاجة حبري . ينبغي ان أحاول القول كيف كنت أراها « من قبل » ، وكيف الآن (١) حسناً ! انها شكل متوازي المستطيلات ، وهي تنفصل من — هذا سخف ، فليس ثمّة ما يُقال عنها . هذا ما ينبغي تجنّبه ، يجب ألاّ نضع الغرابة حيث لا يوجد شيء . وأعتقد أنّ هذا موضع الخطر لمن يسجّل اليوميات : إنه يبالغ في كل شيء ، وهو في حالة ترصّد ، وهو يحرّف الحقيقة بلا انقطاع . ومن جهة أخرى أكيدٌ أني أستطيع بين لحظة وأخرى — وبصدد هذه العلبة بالذات أو بصدد أي شيء آخر — ان استشعر مجدداً ذلك الانطباع الذي أحسسته أمس الأول . يجب ان أكون دائماً على أهبة ، وإلاّ فان هذا الانطباع سيفلت من بين أصابعي مرة أخرى . يجب ألاّ (٢) شيئاً ، وانما يجب ان أسجّل بعناية وبأكبر تفصيل ممكن كلّ ما يحدث .

---

(١) كلمة تُركت بيضاء .

(٢) كلمة مشطوبة (قد تكون « أفسر ») وهناك كلمة مكتوبة على الشطب ، ولكنها غير مقروءة .

طبعاً، ليس بوسعي بعدُ أن أكتب كتابة واضحة عن قصص السبت وأمس الأول، فقد "بَعُدَ" عهدي بها كثيراً، على أن بوسعي أن أقول إنه لم يقع في الحالة الأولى ولا في الحالة الثانية ما ألف الناس أن يدعوه بالحدث. كان الصبية يوم السبت يلعبون بقذف الحجارة على سطح الماء، وكنت أريد أن أقذف مثلهم حصاةً في البحر. وفي تلك اللحظة، لم أقذف، ألقيت بالحصاة ثم انصرفت. ولا بدّ أن مظهري كان مظهر شرود، على الأرجح، ما دام الصبية قد ضحكوا حين لحقتهم.

هذا ما يخص "الخارج". أما ما حدث في داخلي، فإنه لم يترك آثاراً واضحة. كان ثمة شيء قد رأيته فأثار اشمئزازي، ولكني لا أدري بعدُ هل كنت أنظر إلى البحر أم إلى الحصاة. كانت الحصاة مسطحة، جافة في أحد جانبيها، رطبة موحلة في الجانب الآخر. وكنت أمسك بها من أطرافها، وأصابعي متباعدة جداً، لأتجنب تلويث يدي.

غير أن الأمر كان، أمس الأول، أشدّ تعقيداً. ثم إنه قد حدثت تلك السلسلة من المصادفات والالتباسات التي لم أفهمها. ولكني لن أتسلى بسرد هذا كله على الورق. ومهما يكن، فقد كان أكيداً أني قد أصابني الخوف، أو شعور من هذا القبيل. ولو كنت أدري ما الذي خفت منه، لكنت قد خطوت خطوة كبيرة.

والعجيب في الأمر، أني على غير استعداد إطلاقاً لأحسبني مجنوناً. بل إنما أرى بوضوح أني لست كذلك. فجميع هذه التغيرات تتعلق بالأشياء. أو هذا على الأقل ما أودّ أن أكون على يقين منه.

الساعة العاشرة والنصف [1]

ربما كان الأمر، في آخر المطاف، نوبة جنون، وليس باقياً منها أي أثر.

---

[1] مساء بالطبع. والمقطع التالي كتب بعد المقاطع السابقة بوقت طويل. ومن المحتمل أنه كتب، على أقل تقدير، في اليوم التالي.

وإن الأحاسيس الصحية التي راودتني في الأسبوع الماضي ، تبدو لي اليوم مضحكة جداً ، والله لا أحسّ بها بعد . إني في هذا المساء في رضى تام ، وفي وضع بورجوازي طيّب في العلم . ها هنا غرفتي المتجهة نحو الشمال الشرقي ، وتطل على شارع « المشوهين » وورشة المحطة الجديدة . وأنا أرى من نافذتي ، عند زاوية جادة « فيكتور – نوار » ، الشعلة الحمراء والبيضاء لمقهى « رانديفو دي شامينو » (١) لقد وصل قطار باريس ، وها هم الناس يخرجون من المحطة القديمة وينتشرون في الشوارع . إني أسمع خطى وأصواتاً . وكثير من الناس ينتظرون الترام الأخير . ولا بد أنهم يشكلون جماعة صغيرة حزينة حول مصباح الغاز ، تحت نافذتي تماماً . إن عليهم أن ينتظروا بضع دقائق أخرى : إن الترام لا يمر قبل الساعة العاشرة والخامسة والأربعين . المهم ألا يأتي الليلة مسافرون من التجار : فأنا شديد الرغبة في النوم ، وعليّ أن أعوّض كثيراً من النوم الذي فاتني . فليلة هادئة ، ليلة واحدة ، كافية لكنس هذه القصص جميعاً .

الساعة الحادية عشرة إلا الربع : ليس ثمة بعد ما أخاف منه ، فإنهم سيكونون قد وصلوا . إلا إذا كان الدور اليوم دور السيد اللطيف الذي يأتي من « روان » . إنه يأتي كل أسبوع ، وتحفظ له الغرفة رقم ٢ ، في الطابق الأول ، تلك التي لها مرحضة . إن من الممكن بعد أن يأتي : فهو غالباً ما يأخذ قدح بيرة في « رانديفو دي شامينو » قبل أن ينام . والحق أنه لا يُحدث كثيراً من الضجة . إنه قصير جداً ، ونظيف جداً ، وهو ذو شاربين أسود ملمّع وشعر مستعار . ها هو ذا .

وحين سمعته يرقى الدرج ، أحسست بخفقة يسيرة في صدري ، لشدة ما كان ذلك مطمئناً : فأي شيء يُخشى من عالمٍ منتظم الى هذا الحد ؟ أحسب أني قد شُفيت .

---

(١) وترجمتها « ملتقى عمال السكك الحديدية » . — المترجم .

وها هو ذا الترام رقم ٧ «ابالوار – لغران باسان» . إنه يصل في ضجة كبيرة من صوت الحديد . ثم يُقلع . وهو الآن ينطلق ، محملاً بالحقائب والأولاد النائمين ، نحو «لغران باسان» نحو المصانع ، في «الشرق» الأسود . إنه الترام الذي يسبق آخر ترام ، أما الأخير ، فسيمر بعد ساعة .

سأنام . لقد شُفيت ، وإني قد عدلت عن كتابة انطباعاتي يوماً فيوماً ، على غرار ما تفعل الفتيات الصغيرات ، في دفتر جميل جديد .

على أنه ربما كان ممتعاً ، في حالة واحدة ، أن أكتب يومياتي في حالة ما إذا[١] .

---

[١] هنا يتوقف نص الورقة التي هي بلا تاريخ .

دفتر اليوميات

الاثنين ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٢

لقد حدث لي شيء ما، وليس بوسعي بعد أن أشك في ذلك. تمّ على شكل مرض، لا كيقين عادي، ولا كحقيقة بديهية. ولقد استقر خفية، رويداً رويداً، وكل ما في الأمر أني أحسستني غريباً بعض الشيء، منزعجاً بعض الشيء. وإذ بلغت الساحة، كفّ عن التحرك وسكن، فتمكنت من الاقتناع بأنه لم يكن بي شيء، وأن ذلك كان رعباً مزيفاً. ولكن ها هو ذا الآن يتفتح.

إني لا أعتقد أن مهنة المؤرخ تهيء للتحليل النفسي. ولم يكن يعنينا، في قضيتنا، إلا عواطف كاملة نطلق عليها أسماء أجناس كـ «الطمع» و «الفائدة». ومع ذلك، إذا كنت أملك ظلاً من المعرفة لنفسي، فإن هذا هو أوان الإفادة منه.

إن في يديّ، مثلاً، شيئاً ما جديداً، طريقة ما لتناول غليوني أو شوكتي، أو هي الشوكة التي لها الآن طريقة ما تتيح أمر تناولها، لست أدري. حين هممت الساعة بدخول غرفتي، توقفت فجأة، لأنني كنت أحس في يدي شيئاً بارداً كان يلفت انتباهي بنوع من ألوان الشخصية، وفتحت يدي ونظرت، فإذا أنا أمسك، بكل بساطة، بمزلاج الباب. وهذا الصباح، في المكتبة، حين أقبل «العصامي»(١) يلقي علي التحية، قضيت عشر ثوان لأتذكره،

---

(١) هو «ارجيه ب ...» والذي سيرد ذكره دائماً في هذه اليوميات. لقد كان مستخدم مباشر، وكان روكانتان قد تعرف به عام ١٩٣٠ في مكتبة بوفيل.

كنت أرى وجهاً مجهولاً ، وجهاً بالكاد . ثم انه كانت هنالك يده ، كدودة ضخمة بيضاء ، في يدي . وسرعان ما تركتها ، فسقطت الذراع باسترخاء .

وفي الشارع أيضاً ثمة كمية من الضجيج المبهم .

وإذن ، فقد حدث تغيّر ، في هذه الأسابيع الأخيرة . ولكن أين ؟ إنه تغيّر مجرّد لا يحط على شيء . أأكون أنا الذي تغيّرت ؟ إن لم أكن أنا ، فهي إذن هذه الغرفة ، هذه المدينة ، هذه الطبيعة ؛ لا بد من الاختيار .

* * *

أعتقد أنني أنا الذي تغيرت : ذلك أيسر الحلول ، وهو أكرهها أيضاً . ولكن يجب أن أعترف أخيراً أنني معرّض لهذه التغيرات الفاجئة . والواقع أني نادراً ما أفكر ، ولذلك تحدث أن تتجمع فيّ طائفة من التحولات الصغيرة من غير أن أنتبه لها ، ثم يأتي يوم تحدث فيه ثورة حقيقية . وهذا ما أكسب حياتي هذا المظهر المتنافر ، اللامنسجم . فحين غادرت فرنسا ، مثلاً ، وُجد كثيرون يقولون إني غادرتها بدافع من عناد . وحين عدت إليها ، فجأة ، بعد ستة أعوام من السفر ، استطاعوا بكل سهولة أيضاً أن يتحدثوا عن العناد . وإني ما زلت أتمثلني مع « مرسيه » في مكتب ذلك الموظف الفرنسي الذي استقال في العام الفائت إثر قضية « بتروف » . وكان مرسيه متجهاً الى البنغال في بعثة أثرية . وكنت قد طالما وددت الذهاب الى البنغال ، وكان يحثني على الانضمام إليه . وأنا الآن أتساءل عن سبب ذلك . وأعتقد انه لم يكن واثقاً من « بورتال » وانه كان يعوّل عليّ لمراقبته . ولم أكن أجد أي سبب للرفض . وحتى لو كنت قد استشعرت آنذاك هذه المؤامرة الصغيرة بشأن « بورتال » ، فإن ذلك كان سبباً إضافياً يحملني على القبول في حماسة . ولقد كنت مشلولاً ، ولم أكن أستطيع أن أقول كلمة . وكنت أحدّق في تمثال هندي صغير ، على سجادة خضراء ، بالقرب من جهاز الهاتف . وكان يخيّل إليّ أني كنت ممتلئاً باللمفا أو بالحليب الفاتر . وكان مرسيه يقول لي بصبر ملائكي كان يحجب بعض الحنق :

– أجل ، إني بحاجة لكي أتأكد رسمياً . لا أعلم ان الأمر سينتهي بك الى القبول : فالأفضل ان تقبل على الفور .

وكانت له لحية ذات سواد محمرّ ، معطرة تعطيراً كثيفاً . وقد كنت أستنشق لدى كل حركة من رأسه نفحة عطر . ثم استيقظت فجأة من سبات ستة أعوام

وبدا لي التمثال كريهاً بليداً ، وأحسست اني كنت سئماً سأماً عميقاً . ولم أكن أستطيع ان أفهم لماذا كنت في الهند الصينية . ما الذي كنت أفعله هناك؟ لماذا كنت أتحدث مع هؤلاء الناس ؟ ولماذا كنت أرتدي هذه الثياب العجيبة حقاً ؟ كان شغفي قد مات . وكان قد غمرني ودحرجني طوال سنوات، وها أنذا أحسني الآن فارغاً . ولكن ذلك لم يكن الأسوأ : فقد كانت تمط أمامي ، في نوع من التثاقل ، فكرة ضخمة تافهة . ولا أعرف جيداً ما كانت هذه الفكرة ، ولكني لم أكن أستطيع ان أنظر اليها ، لفرط ما كانت تقرفني . وذلك كله ، كان يمتزج عندي بعطر لحية مرسيه .

وانتفضت ، وقد طفح غضبي عليه ، فأجبت بجفاء :

– أشكرك ، اعتقد اني قد سافرت بما فيه الكفاية : فيجب الآن ان اعود الى فرنسا .

وفي اليوم التالي ، كنت أستقل الباخرة الى مرسيليا .

إذا لم أكن مخطئاً ، واذا كانت جميع العلامات التي تتجمع تنذر بانقلاب جديد في حياتي ، فاني خائف . ليس ذلك لأنها غنية ، حياتي ، او لأنها مثقلة ، او لأنها ثمينة . وانما انا خائف مما سيولد ويستولي عليّ – ويجرّني الى اين ؟ أينبغي لي بعد ان ارحل ، وان اترك كل شيء في الصميم ، تحقيقاتي وكتابي ؟ اتراني سأستيقظ بعد شهر ، بعد اعوام ، مجهداً ، خائباً ، وسط أنقاض جديدة ؟ كم أود لو أتبصّر في ذاتي بوضوح قبل ان يفوت الأوان .

الثلاثاء ٣٠ كانون الثاني

لا جديد .

عملت من الساعة التاسعة حتى الواحدة في دار الكتب . ولقد دبّجت الفصل الثاني عشر وكل ما يتعلق بإقامة رولبون في روسيا ، حتى موت بول الاول . هو ذا عمل ناجز : فلن اهتم به بعد حتى يحين تبييضه .

انها الساعة الواحدة والنصف ، وأنا في مقهى « مابلي » اتناول سندويشاً ، وكل شيء طبيعي تقريباً . والحق ان كل شيء في المقاهي ، وخاصة في مقهى مابلي ، طبيعي دائماً ، بسبب المدير السيد فاسكيل الذي يحمل في وجهه مظهراً سوقياً وضعياً يدعو الى الاطمئنان . ان ساعة قيلولته تحين عما قليل ، ولقد بدأت عيناه تتوردان ، ولكن مشيته تظل حيّة حازمة . وهو يتنزّه بين الطاولات ، ويقترب خفية من الزبائن :

— هل أنت راضٍ يا سيدي ؟

وأبتسم اذ اراه بهذه الحيوية : فحين يفرغ مقهاه ، يفرغ رأسه ايضاً . إن المقهى يصبح خالياً بين الثانية والرابعة ، واذ ذاك يقوم السيد فاسكيل ببضع خطوات ، في هيئة بلهاء ، ويطفىء الخدم الانوار ، فيتسلل في البلاهة : ان هذا الرجل ، حين يكون وحده ، ينام .

كان زهاء عشرون زبوناً من العزّاب والمهندسين الصغار والمستخدمين ، ما يزالون في المقهى . انهم يتناولون غداءهم على عجل في أُسَر عائلية يسمونها مطاعمهم ، ولما كانوا بحاجة الى شيء من الترف ، فانهم يجيئون الى هذا المقهى ، بعد الطعام ، فيحتسون القهوة ويلعبون البوكر ، وهم يُحدثون بعض الضجة ، ضجة واهنة لا تزعجني . إن عليهم ، هم ايضاً ، لكي يوجدوا ، ان يتعدّدوا .

أما انا ، فأعيش وحيداً ، وحيداً كل الوحدة . انني لا أتحدث مع احد ، ابداً ، لا ألقى شيئاً ، ولا أعطي شيئاً . و « العصامي » لا حساب له . صحيح ان هناك فرانسواز ، صاحبة مقهى « رانديفو دي شامينو » . ولكن هل

أتحدث حقاً معها ؟ إنني احياناً أسألها ، بعد العشاء ، حين تقدم لي قدح بيرة:

— هل لديك وقتٌ هذا المساء ؟

وهي لا تقول قط" لا ، فأتبعها الى إحدى غرف الطابق الاول الكبيرة التي تؤجرها بالساعة او النهار. وأنا لا أدفع لها : فنحن نقوم بفعل الحب مزدوجاً . وهي تصيب في تلك متعة (انها بحاجة الى رجل كل يوم ، ولديها آخرون غيري) وهكذا أتطهر من بعض الكآبات التي اعرف جيداً أسبابها . ولكننا لا نكاد نتبادل إلا بعض الكلمات . وما جدوى ذلك ؟ إنّ "كلاً" لنفسه ، ثم اني أظل في نظرها قبل كل شيء زبوناً من زبائن مقهاها . وهي تقول لي ، بينما انزع ثوبها:

— قل لي هل تعرف هذا المشهّي المسمّى « بيكو » ؟ لقد طلبه زبونان هذا الأسبوع ، ولم تكن الخادمة تعرفه ، فأتت تخبرني ! وكانا رحالتين ولا بد انهما شرباه في باريس . ولكني لا أحب ان اشتري دون ان اعرف . اذا لم يكن لديك مانع ، فسأحتفظ بجوربي .

وقد حدث في الماضي — بعد ان انقضى وقت طويل على تركها إياي — ان فكرت في « آني » . أما الآن ، فأنا لا أفكر بعد في أحد ؛ بل انا لا أهتمّ حتى بالبحث عن الكلمات . إنها « تسيل فيّ » ، متراوحة السرعة، فأدعها تقطر ، من غير ان أثبت شيئاً . فإذا اخطأت وتعلقت بالكلمات، فان أفكاري تظل معظم الوقت نوعاً من الضباب . إنها ترسم أشكالاً مبهمة مضحكة ، وتغور ؛ وسرعان ما أنساها .

إن هؤلاء الشبان يدهشونني : فهم يروون ، اذ يحتسون قهوتهم ، قصصاً واضحة ومحتملة الوقوع . وإذا سئلوا عما فعلوا بالأمس ، لا يضطربون بل إنهم يطلعونك على الواقع بكلمتين . ولو كنت مكانهم لتلعثمت . ومن الحق أن ليس ثمة بعد من يهتم بكيفية استعمال وقتي . ان من يعيش وحيداً ، لا يعرف حتى معنى ان يروي . فان احتمال الوقوع يختفي في الوقت نفسه الذي يختفي فيه الأصدقاء . والأحداث كذلك إننا نتركها تجري ، نرى

أناساً يتيهون فجأة وهم يتكلمون ويمضون ، فتغرق في قصص لا رأس لها ولا ذنب : وهكذا نكون شهوداً مقيمين . ونكتشف تعويضاً من ذلك ، لا نفوّت كل ما هو غير محتمل الوقوع ، كل ما لا يمكن ان يُصدق في المقاهي . فقد حدث مثلاً يوم السبت ، حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، ان امرأة قصيرة ترتدي ثوباً حاوياً ازرق ، كانت تركض القهقرى وهي تضحك وتلوح بمنديل ، وفي الوقت نفسه ، كان زنجي يلبس مشمعاً حليبي اللون وينتعل حذاء اصفر ويضع قبعة خضراء ، ينعطف عند زاوية الشارع وهو يصفّر . ولقد صدمته المرأة في تقهقرها ، تحت فانوس معلّق بسياج يضاء في المساء . وإذذاك فقد كان ثمة في الوقت نفسه ، هذا السياج الذي تنبعث منه رائحة خشب مبتل ، وذلك الفانوس وهذه المرأة القصيرة الشقراء بين ذراعي زنجي ، تحت سماء من نار . ولنا الرضى انا لو كنا اربعة او خمسة ، للاحظنا الصدمة ، وهذه الألوان الرقيقة جميعاً ، وذلك المعطف الجميل الازرق الذي كان يشبه غطاءً من زغب ، والمشمع الفاتح اللون ، ومربعات الفانوس الحمراء ؛ وكنا لنضحك من الدهشة التي كانت ترتسم على ذينك الوجهين الطفليين .

ولكن يندر ان نجد رجلاً وحيداً يرغب في الضحك : صحيح ان مجموع المشهد قد انعش في نظري بمعنى قوي بل ووحشي ، ولكنه نقي ، ثم تفسّخ ، فلم يبق إلا الفانوس ، والسياج ، والسماء : وكان هذا ايضاً جميلاً مما فيه الكفاية . ولكن بعد ساعة ، كان الفانوس مضاءً ، والريح تئن ، وكانت السماء سوداء : ولم يكن قد بقي شيء على الاطلاق .

هذا كله ليس جديداً جداً ، هذه الانفعالات التي لا تؤذي ، لم أرفضها قط ، بل على العكس . فيكفي من يريد ان يستشعرها ان يكون وحيداً بعض الشيء ، وحيداً بما فيه الكفاية ليتخلص في اللحظة المناسبة من احتمال الوقوع . ولكني كنت أبقى قريباً جداً من الناس ، على سطح الوحدة ، مصمماً كل التصميم على ان ألتجئ إليهم في حالة الخطر : وهكذا كنت ، حتى ذلك الحين ، هاوياً .

اما الآن ، فان في كل مكان اشياء شبيهة بهذا القدح من البيرة القائم هناك على الطاولة . وحين اراه ، تأخذني الرغبة في ان اقول : كفى ! اني انحيتُ عن اللعب . وانا ادرك جيداً اني متعب ابعد مما ينبغي . اني ارفض ان ليس بالامكان اخذُ لوحة بعض الاحجار . غير ان ذلك لا يعني اني انظر فيما تحت سريري قبل ان انام ، ولا اني اخشى ان ارى باب غرفتي ينفتح فجأة في وسط الليل . ولكني مع ذلك قلق . فها قد انقضى نصف ساعة وانا اتجنب ان انظر الى هذا القدح من البيرة . اني انظر الى فوق ، والى تحت ، والى اليمين ، والى اليسار . اما هو ، فلا اريد ان اراه . وانا اعلم جيداً ان جميع العرّاب الذين يحيطون بي لا يمكن ان يقدّموا لي اية معونة . فقد فات الاوان ، وليس بامكاني بعد ان التجئ اليهم . سوف يأتون ليربتوا على كتفي ويقولوا لي : ماذا هنالك ؟ هذا القدح من البيرة ؟ انه ككل الأقداح . انه مائل الحافة ، وهو ذو عروة ، ويحمل ترساً صغيراً مع مسحة ، وقد كُتب على الترس « مايتنبرو » . وانا اعرف هذا كله ، ولكني اعلم ان هنالك شيئاً آخر ، يكاد لا يكون شيئاً ، ولكني لا استطيع ان اشرح ما اراه . لا استطيع ان اشرحه لأحد . وهكذا ، أنزلق على مهل إلى جوف الماء ، نحو الخوف .

اني وحيد وسط هذه الأصوات الفرحة المطرقة . إن جميع هؤلاء الأشخاص يقضون وقتهم في التعبير عن آرائهم ، وفي الاعتراف اعترافاً بهيجاً بأنهم يتقاسمون الرأي نفسه . فيا للأهمية التي يعلقونها ، يا إلهي ، على ان يفكروا جميعهم معاً في الأشياء نفسها . يكفي ان ترى سحنتهم حين لم يفهم احد هؤلاء الأشخاص ذوي العيون السمكية والذين يبدون وكأنهم ينظرون في داخلهم والذين لا يمكن بعد ان يكونوا معهم على وفاق . حين كنت في الثامنة من عمري وكنت العب في حديقة اللكسمبورغ ، كان ثمة واحدٌ منهم يأتي ليجلس في مرقب قائم عند الحاجز الذي يحد عداه شارع اوغست كونت . لم يكن يتكلم ، ولكنه كان بين الفترة والأخرى يمد ساقه وينظر إلى قدمه نظرة مذعورة . وكانت هذه القدم تنعل حذاء ، بينما كانت الأخرى في

بايوع . وقد قال الحارس لخالي إن ذلك الرجل كان رقيباً ، وقد أحيل إلى التقاعد لأنه كان قد جاء يقرأ العلامات الشهريــة في الصفوف وهو يرتدي الثوب الأكاديمي . وكنا نشعر تجاهه بخوف مريع لأننا كنا نشعر انه كان وحيداً . وقد ابتسم ذات يوم لروبير ، فيما كان يمد له ذراعيه من بعيد: فأوشك ان يغمى على روبير . ولم يكن تجهّم مظهر هذا الرجل البائس ، ولا الدمّل الذي كان في رقبته ، وكانت ياقته المنشاة تحكّه بطرفها ، ولكننا كنا نشعر انه كان يتشكّل في رأسه افكار عقرب او سرطان ؛ وكان يُرهبنا ان يستطيع انسان ان يشكّل افكار سرطان عن المرقب ، وعن حوالينا وعن الأعشاب .

أهذا إذن ما ينتظرني ؟ إنه يُشجيني للمرة الأولى ان اكون وحيداً . إني اود ان اتحدث عما يحدث لي قبل ان يفوت الأوان ، قبل ان أخيف الأطفال . اود لو تكون آنّي هنا .

عجباً : لقد ملأت عشر صفحات ولم اقل الحقيقة – على الأقل لم اقل كل الحقيقة . فإني حين كتبت ، تحت التاريخ ، عبارة « لا جديد » ، انما فعلت ذلك بنية سيئة : فالواقع ان قصة صغيرة ، ليست معيبة ولا عجيبة ، كانت ترفض ان تخرج . « لا جديد » . يعجبني كم يستطيع المرء ان يكذب وهو يجعل الحق في جانبه . بالطبع لم يحدث شيء جديد ، إذا صح التعبير : واقعة حدثت هذا الصباح ، في الساعة الثامنة والربع ، إذ كنت خارجاً من فندق بريتانيا لأتجه إلى دار الكتب ، ان اردت التقاط ورقة كانت ملقاة على الأرض ، فلم استطع . هذا كل شيء ، وهو ليس حتى حادثاً . نعم ، ولكني اضيف ، لكي اقول الحقيقة كلها ، اني تأثرت لذلك بالغ التأثر : فلقد فكرت بأني لم أكن حراً . وفي دار الكتب حاولت ، بلا نجاح ، أن اتحرر من هذه الفكرة . واردت ان اهرب منها إلى مقهى مابيل . وكنت أؤمل ان تتلاشى تحت الأضواء . ولكنها ظلت قائمة هنا ، في نفسي ، ثقيلة ومؤلمة . وهي التي أملت عليّ الصفحات السابقة

لماذا تراني لم أتحدث عنها ؟ لا يستند ان ذلك كان بدافع الكبرياء ، وكان أيضاً ، الى حدٍّ ما ، بدافع الحرَج والارتباك . اني لم أعتد ان أروي لنفسي ما حدث لي ، ولذلك لا أجد ثانية تسلسل الأحداث ، ولا أميّز ما هو هام . ولكن الأمر انتهى الآن : لقد قرأت ما كنت اكتبه في مقهى مابل ، فشعرت بالخجل ، اني لا أريد اسراراً ، ولا حالات نفسية ، ولا ما لا يمكن أن يُعبر عنه ، فأنا لست بكراً ولا كاهناً ، حتى ألعب لعبة الحياة الداخلية .

ليس عندي كثير أقوله : اني لم أستطع ان التقط الورقة ، هذا كل شيء .

اني أحب كثيراً ان التقط حبات الكستناء ، والخرق القديمة ، ولا سيما الأوراق . يحلو لي أن ألتقطها ، وان أطبق عليها بيدي ، وأرغب ان أحملها الى فمي ، كما يفعل الأطفال ، وكانت آني تدخل في ثورات بيضاء من الغضب حين كنت أرفع أطراف أوراق ثقيلة فخمة ، ولكنها على الأرجح ملطخة بالخراء . إن الانسان غالباً ما يجد في الحدائق ، في الصيف أو مطلع الخريف ، قصاصات جرائد طبختها الشمس ، فغدت جافة قابلة للكسر ، كالأوراق الميتة ، مصفرّة جداً حتى يُظن ان حمض البكريك قد داخلها . وفي الشتاء توجد أوراق أخرى وقد دُقّت وسحقت ولطخت ، فهي تعود الى الأرض ؛ وأوراق أخرى جديدة ، بل ولامعة ، شديدة البياض ، خافقة ، تنتصب كالأوز ، ولكن الأرض تكون قد دبقتها من الأسفل ، فاذا هي تلتوي ، وتنتزع نفسها من الوحل ، ولكنها ما تلبث ان تذهب فتنسطح نهائياً على بعد يسير ، هذا كله لابدّ ان يلتقط . وقد أكتفي أحياناً بجسها وانا انظر اليها عن كثب ، وأحياناً أخرى امزقها لأسمع خشخشتها الطويلة ، أو أشعلها ، اذا كانت رطبة جداً ، مما لا يتم بلا جهد ، ثم أمسح راحتيّ المليئتين وحلاً بجدار أو جذع شجرة .

إذن ، فقد كنت اليوم أنظر الى حذاء أشقر يتنعله ضابط في الفرسان ، كان خارجاً من الثكنة ، وإذ كنت اتبع الحذاء بنظري ، رأيت ورقة جاثمة بالقرب

من مستنقع . وحسبت أن الضابط سيسحق بنعله الورقة في الوحل ، ولكن لا : لقد تخطى بخطوة واحدة الورقة والمستنقع . واقتربت : كانت صفحة كاملة لا شك في أنها منتزعة من دفتر مدرسة . وكان المطر قد بللها ولواها ، وكانت مغطاة بالتجعدات والتورم ، كيد محرّقة . وكان خط الهامش الأحمر قد سال الى اندى وردي ، وكان الحبر قد سال في عدة أمكنة ، وكان أسفل الورقة ضائعاً تحت قشرة من الوحل . ولقد انحنيت لأعطي الفرحة ان أمسّ هذه العجينة الطرية النضرة التي ستتدحرج تحت أصابعي في كريات رمادية ... ولم أستطع .

وظللت لحظة منحنياً ، وقرأت « إملاء : اليوم الأبيض » ، ثم استقمت ، خالي اليدين ، انني لست بعدُ حراً . لا أستطيع بعدُ أن أفعل ما أريد .

إن الأشياء ينبغي ألا « تلمس » ، ما دامت لا تعيش . اننا نستعملها ، ونضعها في أماكنها ، ونعيش وسطها : إنها نافعة ، لا أكثر . أما انا ، فهي تمسّني : وهذا لا يطاق . انني اخاف ان اتصل بها ، كما لو انها كانت حيوانات حيّة .

انني الآن أرى ، انني أتذكر افضل من ذي قبل ما شعرت به ذلك اليوم ، عند شاطىء البحر ، حين كنت ممسكاً بتلك الحصاة . كان ذلك لوناً من الاشمئزاز اللذيذ . وما كان أكرهه ! وانا على يقين من أن ذلك كان صادراً من الحصاة ، وكان ينتقل من الحصاة الى يديّ . أجل ، هوذا الأمر ، هوذا : نوعٌ من « الغثيان » في يديّ .

صباح الخميس ، في دار الكتب .

حين كنت أهبط درج الفندق الساعة ، سمعت لوسي تتقدم ، للمرة الثالثة ، بشكواها الى صاحبة الفندق ، فيما هي تمسح الدرجات . وكانت صاحبة الفندق تتكلم في جهد وبعبارات قصيرة لأنها لم تكن قد حصلت بعد على طقم أسنانها المستعار . وكانت عارية تقريباً ، في روبدوشامبر وردي ، وبابوج .

وكانت لوسي قذرة ، على عادتها ، وكانت بين الفينة والفينة تتوقف عن الدلك وتنتصب على ركبتيها لتنظر إلى سيدتها . وكانت تتكلم بلا انقطاع ، وبلهجة منفعلة ، فتقول :

— أفضّل مئة مرة أن يركلني ، إن هذا الذي سواه ، ما دام ذلك لا يُلحق به ضرراً .

وكانت تتحدث عن زوجها : كانت هذه المرأة القصيرة السمراء ذات الشعر الأسود بما وفرته من مال قد اتخذت لها ، وهي في الأربعين من عمرها ، شاباً جذاباً ، يعمل مُحكماً في مصانع لوكوفيك . إنها شقية في زواجها . ولم يكن زوجها يضربها أو يخونها ، وإنما كان يشرب ، وكان يعود ثملاً كل مساء . وكان سيء الصحة ، ولقد رأيته في ثلاثة أشهر يضعف ويذوب . وتعتقد لوسي أن السبب في ذلك هو الخمر ، بينما أنا أرجح أنه مسلول .

وكانت لوسي تقول : — يجب أن أتغلب على هذا الشقاء .

وأنا على يقين من أن ذلك يأكلها ، ولكن على مهل ، وفي صبر وتعنت ، ولكنها ليست قادرة على أن تصبر ولا على أن تستسلم لمصيبتها ، وهي تفكر في ذلك قليلاً ، قليلاً جداً ، من هنا ومن هناك ، وتتعاقل عليه ، ولا سيما حين تكون مع الناس ، لأنهم يسرّونها ، ولأنه يسليها قليلاً أن تتحدث بلهجة حاذقة ، وفي مظهر من أعطاه النصح . وإذ تكون وحيدة في الغرفة ، أسمعها تدندن لتتجنب التفكير . ولكنها طوال النهار ضجرة ، وسريعاً ما تبدو عابسة متعبة ، فتقول وهي تلامس حنجرتها :

— إن الأمر هنا ، يكاد يخنقني .

إنها تتألم كالبخلاء . ولا بد أنها بخيلة بالنسبة لمباهجها . وأنا أتساءل عما إذا لم تكن تتمنى أحياناً أن تتحرر من هذا الألم الرتيب ، من هذه الهمهمات التي تعود ما أن تكف عن الغناء ، عما إذا لم تكن تتمنى أن تتألم مرة واحدة ، أن تغرق في اليأس . ولكن ذلك ، بأي حال ، سيكون محالاً عليها : إنها مغلقة .

بعد ظهر الخميس:

«كان السيد دوروليون فحماً جداً ، وكان يروق للشلة الظريفة أن تدعوه بـ « قردنا العزيز » ، ولكن كانت له مع ذلك جميع لباقة النبلاء، لا بطريقة المزاح كما كان يفعل «فولتير»، القرد، وإنما بجاذبية كانت تدفع انتصاراته الجميلة إلى أبعد حدود القوس. انه يحيك الدسائس ويلعب دوراً مريباً في قضية «العقد»، ثم يختفي عام ١٧٩١، بعد أن يكون قد عقد تجارة متصلة مع ميرابو — لولو ونوريما. ثم يُعثر عليه في روما، حيث يغتال قتيلاً بين الأولاد، ومن ثم يسافر إلى أبعد البلاد، إلى الهند والصين وتركستان. وهو يعمل في التهريب والتآمر والتجسس، وفي عام ١٨١٣، يعود إلى باريس، فيبلغ عام ١٨١٦ أعظم السلطة والقدرة، حين يصبح الأمين الوحيد لأسرار دوقة انغوليم. وكانت هذه المرأة العجوز ذات الأهواء الغريبة والتي كانت تنشد إلى ذكريات طفولة تعيسة، تهدأ وتسكن وتبتسم حين تراه. وكان هو يسعدها ليشعر العجز أو الطفل الجميل في البلاط. وفي آذار ١٨٢٠ تزوج الآنسة دو روكور، وكانت جميلة جداً وفي الثامنة عشرة من عمرها، وكان السيد دوروليون قد بلغ السبعين. انه في قمة المجد، وفي ذروة حياته. وبعد ستة أشهر أتهم بالخيانة، فقبض عليه والقي في زنزانة حيث مات بعد خمسة أعوام في السجن، من غير أن تجري محاكمته».

أعدت قراءة هذا المقطع لجرمين بريجه[1] في كتابه. ولقد عرفت السيد دوروليون، أول ما عرفته، من خلال هذه الأسطر. وكم بدا لي قاتماً، وكم أحببته بعد ذلك، في أعقاب هذه الكلمات النبيلة! وإنما أنا هنا من أجله هو، من أجل هذا الرجل الصغير البسيط. وحين عدت من السفر، كان بوسعي أن أستقر في باريس أو في ارمينيا. ولكن معظم الوثائق التي تتعلق بإقامة المركيز

---

(١) جرمين بريجه : « ميرابو — لولو واصدقاؤه » ، ص ٤٠٦ ، المانش ، ملبورن ، ١٩٠٨ (ملاحظة الناشر) .

الطويلة في قرننا الآن هي موجودة في مكتبة بوفيل البلدية، وكان رولبون صاحب قصر في «ماروم». وقبل الحرب، كان ما يزال على قيد الحياة في هذه الضيعة أحد أحفاده، هو مهندس معماري يُدعى رولبون — شاموبريه. وحين مات عام ١٩١٢، قدّم وزراً هاماً جداً لمكتبة بوفيل: رسائل من رسائل المركيز، وملتقطات من يومياته، وأوراقاً مختلفة. وأنا لم أطلع بعد عليها كلها.

وإني لسعيد بأن أعثر على هذا النص مرة ثانية. فها قد انقضت عشرة أعوام لم أعد فيها قراءته. ويخيل إليّ أن خطي قد تغيّر: فقد كنت أكتب الكلمات بطريقة أكثر تلاصقاً. وكم كنت أحب السيد دورولبون في تلك السنة! وإني أتذكر ذات مساء — مساء ثلاثاء: كنت قد عملت طوال النهار في «المازارين»، وكنت قد أدركت، حسب مراسلاته عامي ١٧٨٩ — ١٧٩٠، كيف خدع نرسيا بطريقة عظيمة. كان الليل قد هبط، وكنت أهبط جادة «دومين»، وعند زاوية شارع «دولاغيته» اشتريت كستناء. هل كنت سعيداً؟ كنت أضحك وحدي وأنا أتخيل سحنة نرسيا حين عاد إلى ألمانيا. أما وجه المركيز شبيه بهذا الحبر: لقد اصفرّ كثيراً، منذ أن أخذت أهتمّ به.

فبادئ الأمر، كففت عن أن أفهم شيئاً من سلوكه ابتداء من عام ١٨٠١. وليس سبب ذلك قلة الوثائق، فإن الرسائل وملتقطات المذكرات والتقارير السرية واضبارات الشرطة متوفرة أكثر مما ينبغي وإنما الذي يعوز هذه الشواهد كلها، الحزم والتماسك. لا، إنها غير متناقضة، ولكنها غير متوافقة كذلك، وهي تبدو وكأنها لا تخص الشخص نفسه، ومع ذلك، فإن المؤرخين الآخرين يشتغلون على معلومات من النوع نفسه. فكيف تراهم يفعلون؟ أأكون أحرص منهم على الدقة أم أكون أقل منهم ذكاء؟ والحق أن السؤال، مطروحاً على هذا النحو، يدعني بارداً تماماً. فما الذي أبحث عنه، في آخر المطاف؟ إني لا أدري من ذلك شيئاً. إن رولبون الرجل كان، مدة طويلة أشد إثارة لاهتمامي من الكتاب الذي ينبغي أن أكتبه، ولكن الرجل الآن... الرجل بدأ يضجرني. وأنا متعلق الآن بالكتاب، وأحس حاجة

لكتابه تقوى شيئاً فشيئاً ، على قدر ما أشيخ ، كما يُقال .

يمكن الاقرار ضمناً بأن روليون قد أسهم إسهاماً فعالاً في اغتيال بول الأول ، وانه قبل بعد ذلك مهمة تجسس عليا في الشرق لحساب القيصر ، وانه خان بلا انقطاع الكسندر لحساب نابليون . وقد استطاع في الوقت نفسه ان يعقد مراسلة ناشطة مع الكونت دارتوا وأن يُمده إليه بمعلومات قليلة الأهمية ليقنعه بإخلاصه . وليس في هذا كله ما هو غير محتمل الوقوع ، فقد كان فوشيه ، في العهد نفسه ، يمثل ملهاة لا تقل تعقيداً وخطراً . وربما كان المركيز أيضاً يقوم لحسابه بتجارة البنادق مع الامارات الآسيوية .

أجل ، لقد استطاع ان يقوم بهذا كله ، ولكن الأمر غير ثابت : لقد بدأت اعتقد انه ليس بوسع المرء ان يثبت شيئاً على الاطلاق . انها افتراضات تنبيء عن الأحداث ، ولكن شعوري بأنها صادرة عني هو من العمق بحيث تصبح بكل بساطة طريقة لتوحيد معلوماتي . فليس ثمة ضوء واحد يجيء من جانب روللبون . إن الأحداث ببطئها وكسلها وإصرارها لا تقبل إلا ان تنسجم مع الاتجاه الذي أريد ان أمنحها إياه ، ولكنها تظل خارجة عنه . وانا أحس بأني اليوم بعمل محض خيالي . بل انا متأكد حقاً من ان ابطال رواية ما سيكونون اكثر حقيقة ، وعلى أي حال سيكونون أبعث على الرضى والاستحسان .

الجمعة

الساعة الثالثة . والساعة الثالثة هي دائماً قبل الأوان او بعده بالنسبة لكل ما يريد المرء ان يعمله . لحظة عجيبة من لحظات ما بعد الظهر . وهي اليوم شيء لا يُحتمل .

إن شمساً باردة تبيّض غبار زجاج النوافذ . سماء صفراء ، يخالطها البياض . وقد كانت السواقي مجلّدة هذا الصباح .

إني أهضم هضماً ثقيلاً بالقرب من الموقد، وانا أعلم مقدماً أن النهار ضائع،

لن أفعل شيئاً صالحاً ، إلا حين يهبط الليل ، ربما . وهذا من جراء الشمس ، إنها تذهّب بغموض غيوماً قذرة بيضاء معلقة في الهواء فوق الورشة ، وتسيل في غرفتي عاقعة شقراء ، وتبسط على طاولتي أربعة أشعة كابية وزائفة .

إن غليوني مطلي بورنيق مذهّب يجتذب النظر أولاً بمظاهر من المرح : ان المرء ينظر اليه فيذوب الورنيق ، ولا يبقى غير خط طويل شاحب على قطعة من خشب . وكل شيء هكذا ، كل شيء ، حتى يداي . وإن أفضل ما يعمله المرء ، حين تطلع مثل هذه الشمس ، ان يذهب فينام . غير اني قد نمت كالحيوان في الليلة الماضية ، وليس بي بعد من نعاس .

لكم أحببت سماء الأمس ، سماءً ضيقة ، مسودّة بالمطر ، كانت تندفع إلى زجاج النوافذ ، كوجه مضحك ومؤثر . اما هذه الشمس ، فليست مضحكة ، بل على العكس . فعلى كل ما أحبه ، على صدأ الورشة ، وعلى لوحات السياج المهترئة ، يسقط نور بخيل عاقل ، شبيه بنظر يلقيه المرء ، بعد ليلة لا نوم فيها ، على القرارات التي اتخذها عشية الأمس حماسة ، أو على صفحات كتبها دفعة واحدة ، ومن غير شطب أو حذف . وإن المقاهي الأربعة لجادة فيكتور ــ نوار ، تلك المقاهي التي تشع ليلاً ، جنباً إلى جنب ، والتي هي أكثر من مقاه ــ أحواض أو فوارات أو نجوم او عيون كبيرة بيضاء ــ قد فقدت سحرها المبهم .

يوم ممتاز لقيام المرء بارتداده على نفسه : إن هذه الأضواء الباردة التي تلقيها الشمس على المخلوقات ، كأنها حكم لا رحمة فيه ، تدخل فيّ عن طريق العينين وأنا مُضاء ، من الداخل ، بنور مُفقِر . وأنا على يقين من ان ربع ساعة سيكون كافياً لأبلغ الحد الأقصى من الاشمئزاز من نفسي . وهذا ما لا أحرص عليه أبداً . ولن أقرأ ثانية ما كتبته أمس عن إقامة روليبون في سان بطرسبورغ . أبقى جالساً ، مرخي الذراعين ، او أخط بضع كلمات ، من غير حماسة ، او أتثاءب ، و انتظر ان يهبط الليل . وحين يسود الظلام ، سأخرج انا والأشياء من الغموض .

هل شارك روبلون ام لا في اغتيال بول الأول ؟ تلك هي قضية اليوم. ولقد وصلت إلى هذه النقطة ، وليس بوسعي ان استمر قبل ان اقرر.

إذاً تشيركوف ، يعتقد بأن روبلون كان مأجوراً من الكونت باهلن. وهو يقول إن معظم المتآمرين قد اكتفوا باسقاط القيصر وحبسه . (والواقع ان الاسكندر كان يبدو موافقاً على هذا الحل) ولكن باهلن كان يود ان ينتهي كلياً من بول . ويعتقد ان السيد دوروبلون قد كُلف بتحريض المتآمرين شخصياً على القتل .

« لقد زار "كلاً" منهم وكان يمثل الحادثة التي ستقع بمقدرة لا تضاهى ، وعلى هذا النحو ، ولّد لديهم او نمّى جنون القتل . »

ولكني احذر تشيركوف ، فليس هو شاهداً عاقلاً ، وإنما هو عجوز سادي ونصف مجنون : انه يحول كل شيء إلى شيطاني . وانه ليستحيل عليّ تصور السيد دوروبلون في هذا الدور الميلودرامي مثل حادثة القتل ! كلا ، كلا ! انه بارد ، وهو لا يُغري بالعاطفي : انه لا يُرشد بل يوحي ، ولا تستطيع طريقته المتحفظة التي لا لون لها ، ان تنجح إلا مع الناس من طينته ، كماسونيين او سياسيين .

كتبت السيدة دوشاريير تقول : « لم يكن ادهمار دوروبلون يرسم قط وهو يتكلم ، ولم يكن يقوم بالحركات ، ولم يكن يغيّر نغمة صوته . وكان يحفظ بعينيه نصف مغلقتين ، ونادراً ما يرى المرء بين أجفانه الطرف الأقصى من حدقتيه الرماديتين . لقد مضى على أعوام قصيرة منذ جرؤت على ان اعترف لنفسي بأنه كان يضجرني إلى أبعد حد . فكان يتكلم على نحو ما كان الأب مابلي يكتب » .

وهذا هو الرجل الذي كان ، بموهبته في التقليد ... ولكن كيف تراه كان يغوي النساء ؟ ثم إن هناك هذه القصة الغريبة التي يرويها « سيغور » والتي تبدو لي حقيقية :

« في عام ١٧٨٧ ، كان رجل عجوز ، هو صديق لديدرو ، وقد تخف

على أيدي الملاسقة ، كان يحتضر في خان بالقرب من « مولين » . وكان كهنة المناطق المجاورة قد بلغوا حد الإرهاق ، بعد أن حاولوا كل شيء عبثاً ، كان الرجل يرفض أن يتناول الأسرار الأخيرة ، وكان يؤمن بألوهية الكون . ومر السيد دورولبون ، وكان لا يؤمن بشيء ، فراهن مع كاهن « مولين » أنه لا يحتاج الى أكثر من ساعتين ليُعيد المحتضر الى مشاعره المسيحية . وقبل الكاهن الرهان وخسر . فقد بدأ اقناع المحتضر عند الساعة الثالثة صباحاً ، وقد اعترف عند الساعة الخامسة ، ومات عند السادسة . وسأل الكاهن : « أبلغ هذا الحد من قوة الحجة والنقاش ؟ إنك تبزّ رجالنا ! » . فأجاب السيد دورولبون : « إنني لم أناقشه أو أحاجه ، وإنما خوفته من الجحيم » .

والآن ، أتراه قد شارك مشاركة فعلية في القتل ؟ لقد صحبه ضابط من أصدقائه ذلك المساء ، حوالي الساعة الثامنة ، الى باب منزله . فإذا خرج منه ثانية ، فكيف اجتاز سان - بطرسبورغ من غير أن يقلق ؟ كان بول ، وهو نصف مجنون ، قد أصدر أمره باعتقال جميع المارة ، ابتداء من الساعة التاسعة مساء ، ما عدا القابلات والأطباء . فهل ينبغي تصديق الأسطورة السخيفة التي تقول إن رولبون قد تنكر في ثياب قابلة حتى يبلغ القصر ؟ أخيراً إنه كان ، بعد كل حساب ، جديراً بذلك . ومهما يكن من أمر ، فإنه لم يكن في بيته ليلة الاغتيال ، وهذا يبدو مثبتاً فيه . ولا بد أن الاسكندر قد ارتاب فيه بقوة ، إذ أن أحد أعماله الأولى حين تسلم السلطة كان أن أبعد الماركيز بحجة ارساله في مهمة الى الشرق الأقصى .

إن السيد دورولبون يضايقني ضجراً . وأنا أنهض ، وأتحرك في هذا النور الشاحب . وأني أراه يتغير على يدي وعلى أكمام سترتي . وأنا لا أستطيع أن أعبّر عن مدى اشمئزازي منه . إنه الشاحب . وأُشعل المصباح الكهربائي على الطاولة : فلعل نوره يستطيع أن يهزم نور النهار . ولكن لا : إن قصارى ما يستطيعه المصباح هو أن يحدث حول قاعدته مستنقعاً يثير الشفقة . وأطفئه وأنا أنهض . وأرى في الجدار ثقباً أبيض : إنه المرآة . إنه شرك . وأنا أعلم

أني سأتداني لسقوط فيه . لقد تم الأمر . فقد بدا الشيء الرمادي في المرآة . واقترب فأنظر إليه ، ويستحيل عليّ بعد ذلك الذهاب .

إنه انعكاس وجهي . وغالباً ما أبقى لأتأمله ، في هذه النهارات الضائعة . وأنا لا أفهم شيئاً منه ، هذا الوجه . إن لوجوه الآخرين معنى ، أما وجهي فلا . بل إنا لا أستطيع أن أقرر هل هو جميل أم قبيح . أعتقد أنه قبيح ، لأنهم قالوا لي ذلك . ولكن ذلك لا يثير استغرابي . بل يصدمني في الحقيقة أن يستطيعوا أن يعزوا له صفات من هذا النوع ، كما لو كانوا يصفون بالجمال أو القبح قطعة أرض أو كتلة من الصخر .

على أن هناك مع ذلك شيئاً تروق رؤيته ، فوق منطقة الخدين الطرية ، فوق الجبين : ذلك هو هذا الشعاع الأحمر الذي يذهّب جمجمتي ، إنه شعري . إن هذا يروق النظر . إنه لون واضح محدد على الأقل : فأنا مسرور بأن أكون أحمر الشعر . وهذا ، في المرآة يُرى ، ويشع . إني محظوظ ، رغم كل شيء : فلو كان جبيني يحمل شعراً كذلك الذي لا يوفق في التصميم بين الكستنائي والأشقر ، فإن وجهي كان يضيع في الإبهام ، وكان يعود عليّ بالدوار .

إن نظري يهبط ببطء ، وفي ملل ، على هذا الجبين ، وهذين الخدين : إنه لا يلتقي شيئاً صامداً ، بل يضيع كما لو أنه يغرق في رمل . هناك طبعاً أنف وعينان وفم ، ولكن هذا كله لا معنى له ، حتى ولا تعبير إنساني . ومع ذلك ، فقد كانت آني وفيلين تجدان هيئتي حية ، فمن الممكن أن أكون قد ألفت وجهي أكثر مما ينبغي . وكانت عمتي (بيجوا) تقول ، إذ كنت صغيراً : (إذا أفرطت في النظر إلى نفسك بالمرآة ، فسوف ترى فيها قرداً) . ولا بد أني نظرت وقتاً أطول أيضاً : وما أراه هو ما تحت القرد ، عند تخوم العالم النباتي ، على مستوى المرجانيات . إنا لا أنكر أن في ذلك حياة ، ولكن آني لم تكن تفكر بمثل هذه الحياة : فأنا أرى ارتعاشات خفيفة ، وأرى لحماً تافهاً يتفتح ويخفق في استسلام . ولا سيما العينان ، إنهما ، عن قرب ، فظيعتان ، إنهما زجاجيتان ، متهدلتان ، عمياوان ، يحدهما الاحمرار ، فكأنهما حراشف السمك .

الى استند بكل ثقلي على حافة الحوض ، وأدني وجهي من المرآة حتى لألمسها . وتختفي العينان والأنف والفم . ولا يبقى ما هو بشري قط . تجعدات سمراء عند كل جانب من انتفاخ الأنفين المحتوم للشققات حلوات . إنه زرعاً حريرياً ابيض يركض على منحدرات الجبين الكبيرة ، وشجيرات تفرجان من المنخرين : انها خارطة جيولوجية بارزة الخطوط . وبالرغم من كل شيء ، فان هذا العالم القمري مألوف عندي ، انا لا استطيع القول اني « أتعرف » اليه ، ولكن مجموعه يعطيني انطباعاً قد « سبقت رؤيته » يعود علي بالخدر : فأنسل على مهل في النوم .

اود ان استعيد السيطرة على نفسي : وان اتصلب حياً وحاسماً قبل ان يجرفني . وأطبق يدي اليسرى على حنكي ، وأشد على الجلد ، والعضل وجهي ، فيشل نصفه ، بينا يلتوي نصف الفم الأيسر وينتفخ وهو يكشف سناً من الثنايا ، وينفتح المحجر عن كرة بيضاء ، على بشرة وردية نازفة . وليس هذا ما كنت ابحث عنه : فليس ثمة من شيء بارز ، ولا من شيء جديد ، وانما هنالك ما هو عذب ، فضفاض ، سبقت رؤيته : وأنام مفتوح العينين ، ويكون الوجه قد بدأ يكبر ، ويكبر في المرآة ، فاذا هو هالة ضخمة شاحبة تنزلق في النور ...

وما ايقظني فجأة ، هو اني أضعت التوازن . فاذا بي أجد نفسي راكباً كرسياً وانا ما ازال مصاباً بالدوار . هل يملك سائر الرجال مثل هذه المشقة ليحكموا على وجوههم ؟ يخيل الي اني ارى وجهي كما احس جسدي ، باحساس عضوي أصم . والآخرون ؟ رولبون ، مثلاً ؟ أكان يهمه أيضاً ان ينظر في المرايا الى ما كانت السيدة دوجانلي تسميه « وجهه الصغير المجعّد ، النظيف الواضح ، المنقوش بالجدري ، حيث كان يكمن خبث فريد يقفز الى العين ، أياً كان الجهد الذي يبذله من أجل إخفائه ؟ » . وتضيف قائلة : « كان يهتم بالغ الاهتمام برأسه ، وانا لم أره قط من غير شعر مستعار . ولكن خداه كانا في زرقة تميل الى السواد لأنه كان ذا ذقن كثيفة ، وكان يحرص على

ان تعلقها بيده ، وكان هذا رديئاً جداً . وكان معتاداً ان يلطخ وجهه بأبيض الاسفيداج ، على غرار «غرم» . وكان السيد دوداقيل يقول عنه ، بهذا الابيض كله والازرق كله ، كان يشبه قطعة من جبن «روكفور» .

ويخيل إلي أنه كان ولا بد حسن المنظر . ولكنه لم يبدُ كذلك ، في آخر المطاف ، للسيدة دوشارير . طالما احببت انها كانت تجده بالأحرى شاحباً . وربما كان عسيراً على المرء ان يفهم وجهه بالذات . او لعل ذلك لأني انسان متوحد ؟ لقد تعلم الاشخاص الذين يعيشون في المجتمع ان يروا انفسهم ، في المرايا، كما يبدون لأصدقائهم . اما انا ، فليس لي من أصدقاء : أمن أجل ذلك يبدو لحمي عارياً الى هذا الحد ؟ لكأنها ــ أجل ، لكأنها الطبيعة بلا بشر .

ليس لدي رغبة بعد في العمل ، ولا يمكنني ان افعل شيئاً بعد ، إلا أن انتظر الليل.

الخامسة والنصف

إن الوضع سيء ! إنه سيء جداً : فأنا أشعر بها ، وتلك القذارة، تلك «الغثيان»، وهو شيء جديد ، هذه المرة : فقد أصابني وأنا في مقهى . لقد كانت المقاهي حتى الآن ملاذي الوحيد لأنها ملأى بالناس ومضاءة جيداً : فحتى هذا لن يتوفر لي بعد الآن ، وحين سأكون مطارداً في غرفتي ، لن أعلم بعد إلى أين أذهب.

كنت قد جئت لمضاجعة ، ولكني ما كدت أدفع الباب حتى صاحت بي مادلين الخادمة :

— إن صاحبة الفندق غير موجودة ، فهي في السوق لتبتاع حاجاتها.

وأحسست بخيبة شديدة في عضوي ، دغدغة طويلة مزعجة . وفي الوقت نفسه كنت أحس قميصي الذي كان يحك طرف ثديي ، فكنت محاطاً ومأخوذاً

بدوامة بطيئة مثولة ، دوامة من قصبات ، من الهواء في الدخان ، في الزوايا ، مع المقاعد الصغيرة التي كانت تلمع في الداخـــل ، ولم أكن أرى لماذا حدث ذلك هنـــاك ، ولا كيف حدث كذلك . وكنت على عتبة الباب ، مؤرجحاً ، ثم حدث تدفع إلى ظل في السقف وأحسني مدفوعاً إلى أمام ، كنت عالماً وكنت دائخاً بالضباب الثخين الذي كان يدخل فيّ من كل صفد . وجاءت مادلين عائدة تنزع سترتي ، فلاحظت أنها قد سرّحت شعرها إلى خلف وحلّت أذنيها بالأقراط ، حتى إني كدت أنكرها . وكنت أنظر إلى خديها الكبيرين اللذين كانا لا يكفان يمتدان نحو الأذنين . وكان في تجويف الخـــدين ، تحت الوجنتين ، لطختان ورديتان متوردتان كان يبدو أنهما محفورتان على تلك البشرة الشكية . كان الخدان يمتدان ، ينشدان نحو الأذنين ، وكانت مادلين تبتسم :

ـــ هذا أعجبك سيد الطوان ؟

وازداد الأسى والغثيان ، فتداعيت للسقوط على المقعد الصغير . ولم أكن أعرف حتى أين كنت . وكنت أرى الألوان تدور حولي على مهل ، وكانت بي رغبة للتقيؤ . وهكذا : عند ذلك الحين ، لم يترك لي الغثيان ، إذ يستولي علي وقفت . ورفعت مادلين صحني ، وسحقت كأسي على البلاط بركلة من الجزمة الصفراء ، حيث عادت فقاعتها . وكان المقعد مبلولاً ، في المكان الذي أجلس فيه ، فكنت مضطراً ، حتى لا أنزلق ، أن أشد على بقوة على الأرض ، إلى الطلس بإزاء . وإلى اليمين ، يلعب بعضهم الورق على سجادة من صوف ، والا لم أرهم حين دخلت ، وكل ما شعرت به أنه كانت ثمة رزمة دافئة ، نصفها على المقعد الطويل ، ونصفها على الطاولة الداخلية ، مع أزواج من الأذرع التي تتحرك . وبعد ذلك ، جاءتهم مادلين بالورق والطقطقة والقسائم في صحيفة . إنهم ثلاثة أو خمسة ، لا أدري ، فأنا لا أملك القوة لنظر إليهم . إن لي نابضاً مكسوراً ، فيوسعني أن أحرك عيني ، لا رأسي . إن الرأس على كله ، مقاط ، فكأنه موضوع وضعاً على رقبتي ، فإذا أدرته ، فإني أرشك

ان أسقطه . ومع ذلك ، فاني اسمع نفساً قصيراً . وأرى بطرف عيني ، بين الفينة والفينة ، لحماً أحمراً يغطيه شعر أبيض . إنها يده .

حين تكون صاحبة الفندق في السوق ، يحل محلها على المشرب ابن عمها وكان اسمه انولف . وقد بدأت انظر اليه وانا اجلس . وأستمر لأني لم أكن استطيع ان أدير رأسي . وكان يلبس قميصاً قصير الأكمام ، مع رافعتين بنفسجيتين ، وقد لف أكمام قميصه الى ما فوق المرفق . اما رافعتا البنطلون ، فهما تكادان لا تُريان على القميص الأزرق ، فهما ضيقتان ، غارقتان في الزرقة ، ولكن ذلك من قبيل التواضع الكاذب : فهما بالفعل لا تتركان مجالاً لأن تنسيا ، وهما تزعجانني بعنادهما الخروفي ، كما لو انهما ، بعد ان قررتا ان تصبحا بنفسجيتين ، توقفتا في الطريق ، من غير ان تتخليا عن ادعاءاتهما . إن المرء لتأخذه الرغبة في ان يقول لهما : « هيا ! إصبحا ، بنفسجيتين وليته الأمر ! » ولكن لا ، انهما تبقيان معلقتين ، معاندتين في جهدهما غير الناجز . احياناً تنزلق الزرقة التي تحيط بهما فتغطيهما تماماً : فأظل لحظة لا أراهما . ولكن تلك لا تكون الا موجة ، فان الزرقة لا تلبث ان تنسحب هنا وهناك ، وأرى من جديد جزراً صغيرة من بنفسج متردد تتسع وتتصل فيما بينها لتعيد تكوين الرافعتين . وليس لابن العم انولف عينان : إن أجفانه المتورمة المشمرة لا تنفتح الا ان تنفتح قليلاً على بياض . وهو يبتسم ابتسامة ناعسة ، وبين حين وآخر يشخر قليلاً ويتنحنح بضعف ، ككلب يحلم .

وكان قميصه القطني يبرز بفرح فوق جدار بلون الشوكولا . إن هذا ايضاً يجود بشعور « الغثيان » . او بالأحرى الغثيان نفسه . إن « الغثيان » ليس فيّ : فأنا أحسه « هنالك » على الجدار ، على الرافعتين ، حولي في كل مكان . فليس هو والمقهى إلا شيئاً واحداً ، انما انا الذي فيه .

والى يميني ، تأخذ الزمرة الدافئة في الضجيج ، وتحرك ازواج أذرعها .

— عجباً ! ها هوذا « الآتو » ! ما هو « الآتو » ؟

صَلْبٌ كبير أسود متحنٍ على الجبة .
— ها ها ها !
— ماذا ؟ هذا هو «الانو» . لقد لعبه !
— لا ادري ، لم أرَ ...
— بلى ، لقد لعبت الآن «الأنو» .
— آه حسناً ، إذن «أنو» القلب .
وأخذ يغنّي :
— «أنو» القلب ، أنو القلب ، انو القلب !
صوت : — ما هذا يا سيدي ؟ ما هذا يا سيدي ؟ انني أحلم !
ويسود الصمت من جديد — مذاق سكّر الحلوى ، في جوف فمي . الروائح النفاذة .

ونهض ابن العم ، فخطا بضع خطوات ، ووضع يديه خلف ظهره ، وابتسم ، ورفع رأسه وانقلب الى خلف ، على رأس عقبيه . إنه على هذا الوضع يبتسم . انه هنا يترنّح ، وهو ما يزال يبتسم ، وخداه يرتجفان . انه يوشك ان يسقط . انه ينحني الى خلف ، ينحني ، ينحني ، ووجهه مستدير كلياً نحو السقف ، واذ يوشك ان يسقط ، يستدرك نفسه فجأة على طرف المشرب ، ويستعيد توازنه . وبعد ذلك ، يعيد الكرة . ويأخذني الضجر ، فأنادي الخادمة :
— مادلين ، ضعي لي لحناً على الفونوغراف ، من لطفك . ان اللحن يعجبني . تعرفينه : «بعض هذه الأيام» .
— نعم ، لكن ذلك قد يزعج هؤلاء السادة ! ان هؤلاء السادة لا يحبون الموسيقى حين يكونون منهمكين في اللعب . آه سأسألهم .
وأقوم بجهد كبير فأدير رأسي . انهم اربعة . وتنحني على عجوز ارجواني يقبع على ارنبة انفه نظارة تحيط بها دائرة سوداء . انه يخفي اوراقه على صدره ويرمقني بنظرة خفية .

— إفعل ما تريد ، يا سيد .

ابتسامات . ان اسنانه متهرئة . وليس هو صاحب اليد الحمراء ، وانما صاحبها جاره ، وهو رجل ذو شارب شعرة . وصاحب الشارب هذا له منخرين هائلين بوسعهما ان يمدّا الهواء لأسرة برمتها ، وهما يأكلان نصف وجهه ، ولكنه مع ذلك يتنفس من فمه وهو يلهث قليلاً . وان معهما ايضاً شاباً ذا رأس كلبي ، ولا أتبين اللاعب الرابع .

وكان الورق يسقط على سجادة الصوف وهو يدوّم ، ثم تأتي اليد ذات اصابع ذوات خواتم فتلتقطه وهي تحكّ السجادة بأظافرها . وكانت الايدي تحدث لطخات بيضاء على السجادة ، وهي تبدو منتفخة مغبرّة . وكان الورق ما يني يسقط ، والايدي تروح وتجيء . اي انشغال عجيب ! انه لا يبدو في مظهر لعب ، ولا طقس ، ولا عادة . واعتقد انهم انما يقومون بذلك ليملأوا الوقت . ولكن الوقت اعرض مما ينبغي ، فهو لا يدع لهم ان يملأوه . ان كلّ ما يغطس فيه يميع ويتمطّط . فحركة اليد الحمراء هذه مثلاً ، التي تلتقط الورق وهي تتعثر ! انها حركة مرتخية تماماً يتعين فتقها والتفصيل في داخلها .

وتدير مادلين محرك الفونوغراف . المهم الّا تخطيء فتضع كما وضعت في المرة السابقة لحن « كافاليريا روستيكانا » . ولكن لا ، انه اللحن المطلوب ، والذي اعرفه منذ الايام الاولى . انه « راغ — تايم » قديم مع لازمة مغنّاة . وقد سمعت عام ١٩١٧ جنوداً امريكيين يصفّرونه في شوارع لاروشيل . ولا بد ان تاريخه يعود الى ما قبل الحرب . ولكن التسجيل حديث عهداً . ومهما يكن من امر ، فانه اقدم اسطوانات المجموعة ، اسطوانة « باتيه » ذات ابرة ياقوتية .

عما قليل تأتي اللازمة : انها هي التي احبها خاصة ، والطريقة الوعرة التي تقذف بها الى امام ، كجرف تجاه البحر . ان « الجاز » هو الذي يعزف الآن ، ليس له لحن ، وانما النغم ، عشرات الآلاف من الانتفاضات الصغيرة . انها لا تعرف راحة ، فان نظاماً صارماً يولّدها ويبيدها ، من غير ان يترك

لها ابداً وقتاً تستدرك فيه نفسها ، لتعيش فيه لحسابها . انها تركض وتتدافع فتضربني لدى مرورها ضربة حادة وتتلاشى . وكم اود كثيراً ان امسك بها ، ولكني اعلم اني اذا نجحت في ايقاف احداها ، فلن يبقى بين اصابعي الا لحن مترنح حقير . فينبغي ان اقبل موتها ، بل عليّ ان « اريده » ، هذا الموت : فقليلة هي الانطباعات التي اعرفها في مثل هذه المرارة والقوة .

بدأت أدفأ ، واحسّني سعيداً . وليس ذلك بعدُ شيئاً عظيماً ، فهي سعادة وغثيان صغيرة : تتمدّد في اعماق المستنقع اللزج ، في اعماق « زمننا » — زمن الرافعات البنفسجية والمقاعد المبقورة — وهي مصنوعة من لحظات عريضة رخوة تكبر لدى اطرافها بشكل لطخات الزيت . وهي ما كادت تولد ، حتى شاخت ، ويخيّل اليّ اني اعرفها منذ عشرين سنة .

وهناك سعادة اخرى : فثمة ، في الخارج ، تلك الشفرة الفولاذية ، وقت الموسيقى القصير الذي يخرق زمننا من جهة الى اخرى ويرفضه ويمزّقه بأطرافه الصغيرة الحادّة : ان هنالك زمناً آخر .

— السيد راندو يلعب القلب ، وانت تضع الواحد .

وينزلق الصوت ويختفي . لا شيء يعضّ على شريط الفولاذ ، لا الباب الذي يفتح ولا لفحة الهواء البارد التي تنسل على ركبتي ، ولا وصول الطبيب البيطري مع طفلته الصغيرة : ان الموسيقى تخرق هذه الاشكال المبهمة وتمرّ عبرها . وما كادت الطفلة تجلس ، حتى أخذت : انتهت جالسة ، مفتوحة العينين على صحنها ، وأخذت تصغي وهي تحكّ الطاولة بقبضتها .

لحظات اخرى وتغني الزنجية . ان ذلك يبدو لا مفرّ منه ، فما اقواها ضرورة هذه الموسيقى : لا شيء يستطيع ان يقطعها ، لا شيء مما يصدر عن هذا الزمن الذي يسترخي فيه هذا العالم ، وسوف تنقطع من تلقاء نفسها ، بالأمر . واذا كنت احبّ هذا الصوت الجميل ، فخصوصاً من اجل ذلك : لا من اجل عظمته ولا من اجل حزنه ، ذلك انه الحدث الذي هيأه كثير من الانغام ، من بعيد جداً ، وهي تموت لكي يحيا . ومع ذلك فأنا قلق : ان ايقاف الاسطوانة

لا تحتاج الا لشيء يسير جداً : ان ينكسر نابض ، او ان يأخذ ابن العم ادولف هوى مفاجىء . فكم هو غريب ، وكم هو مؤثر ان تكون هذه القسوة رخصة الى هذا الحد ! ان شيئاً لا يمكن ان يقطعها ، ويستطيع كل شيء ان يحطمها .

وتلاشى آخر نغم ، واحسست في الصمت القصير الذي تلا ان « شيئاً ما قد حدث » .

صمت

إن ما حدث هو ان « الغثيان » قد اختفى ، حين ارتفع الصوت في السكون احسست جسمي يقسو ، وتلاشى « الغثيان » . دفعة واحدة . وكان شاقاً تقريباً ان يصبح هكذا قاسياً كله ، لامعاً كله . وفي الوقت نفسه ، كان زمن الموسيقى يتمدّد ويتضخم كالإعصار . وكان يملأ القاعة بشفافيته المعدنية ، فيما هو يسحق على الجدران زمننا البائس . انني « في » الموسيقى . وفي المرايا تدور كرات نارية ، تحيط بها حلقات من دخان وتدور ، حاجبة وكاشفة بسمة النور القاسية . وتقلّص قدح البيرة امامي ، وتراكم على الطاولة : وكان يبدو كثيفاً ، لا غنى عنه . وأردت ان آخذه وأزنه فمددت يدي ... يا إلهي ! ان هذا خصوصاً هو الذي تغيّر ، انها حركاتي . لقد تمّت حركة ذراعي هذه كموضوع عظيم ، فانزلقت على طول غناء الزنجية ، وخيّل اليّ انّي كنت أرقص .

وكان وجه ادولف هنا ، مستنداً الى الجدار الشوكولاتي ، وكان يبدو قريباً جداً . وفي اللحظة التي كانت يدي تنطبق فيها ، رأيت رأسه ، وكان له وضوح الخاتمة وضرورتها . وضغطت أصابعي على القدح ، ونظرت الى ادولف : انّي سعيد .

ـ خذ !

وانقذف صوت وسط ضجة صاخبة . انه جاري يتكلم ، وكان العجوز يغلي . وقد احدث خدّاه لطخة بنفسجية على جلد المقعد الأحمر ، وصفق ورقة

على الطاولة . انها « مانيل » المربّع ولكن الشاب ذا الرأس الكلبي ابتسم وكان اللاعب الأحمر منحنياً على الطاولة يرصده من تحت ، طامعاً بالقفز .

— وخذ !

وخرجت يد الشاب من الظلّ ، حامت لحظة ، وهي بيضاء متكاسلة ، ثم انقضّت فجأة كأنها الحدأة ، وضغطت ورقة على السجادة . وقفز الأحمر السمين في الهواء :

— خراء ! انه يقطع .

وبدا طيف « ملك القلب » بين اصابع متشنّجة ، ثم قُلب على انفه ، واستؤنف اللعب . ملك جميل ، قادم من مكان بعيد ، مهيأ بكثير من الحيل ، وكثير من الحركات المختفية . وها هو ذا يختفي بدوره ، لتولد حيلٌ اخرى وحركات اخرى ، وكرّ وفرّ ، وارتداد حظّ ، وجمهرة من المغامرات الصغيرة .

انني منفعل ، وانا احسّ جسمي كآلة ضبط في الاستراحة . لقد حدثت لي انا مغامرات حقيقية ، وانا لا اذكر منها أيّ تفصيل ، ولكني ألحظ تسلسل الظروف الدقيق . لقد جزت البحار ، وخلّفت ورائي مدناً ، وعبرت انهاراً ، وأوغلت في الغابات ، وكنت أقصد دائماً مدناً اخرى . ولقد ملكت نساء ، وتقاتلت مع رجال ، ولم اكن استطيع قط ان ارجع الى الوراء ، شأني في ذلك شأن اسطوانة لا تستطيع ان تدور القهقرى . وذلك كله ، الى « أين » ، كان يقودني ؟ الى هذه الدقيقة ، الى هذا المقعد ، الى هذه الفقاعة من النور المدندنة بالموسيقى .

وحين تركتني ...

نعم ، انا الذي كنت كثيراً ما احب ان اجلس في روما على شاطئ « التيبر » ، وانا اهبط « الرمبلا » ، وأصعدها مئات المرات في برشلونة مساءً ، انا الذي رأيت قرب « انغكور » ، في جزيرة « باراي » في « براخان » ،

شجرة من تين البنغال تعقد جذورها حول كنيسة « الناغاس » . الى هنا . أعيش ألتحف نفسها الى بعيثها لأخير « القتيل » هؤلاء . وأصغي الى زعيق تعثّر ، بينما يرود الليل الضعيف في الخارج .

وتوقفت الاسطوانة .

ودخل الليل عذباً ، مترعداً ، انه لا يُرى ، ولكنه هنا ، يختنق المصابيح ، وان المرء ليستشق في الهواء شيئاً كثيفاً : الدهر ، الليل ، الطقس بارد . ويدفع احد اللاعبين الاوراق ، في غير ما نظام ، الى آخر يجمعها من جديد . وقد بقيت ورقة في الخلف . أتراهم لا يرونها ؟ انها لسعة القلب . ويأخذها احدهم اخيراً فيعطيها الشاب ذا الرأس الكلي .

ــ لم ؟ انها لسعة القلب !

حسناً . اني ذاهب . وينحني الشيخ المصحي على ورقة وهو يهز رأسه قليلاً . وتنظر اليه عيناي نظرة مشرقة وفارغة . ويقلب الشاب لسعة القلب بين اصابعه . يا إلهي !...

وأنهض في مشقة ، وفي الغرفة ، وفوق صفحة الطيب السطري ، أرى وجهاً لا بشرياً يسيل .

سأذهب بعد قليل الى السينما .

ان الهواء يمشي ، فليس له مذاق السكر ولا رائحة الفرموت الخمرية ولكن ما ابرد الطقس !

انها الساعة السابعة والنصف ، وليس بي جوع ، والسينما لا تبدأ الا في التاسعة . فالى اين الآن ؟ لست الا أسير بسرعة لأبدأ . وأردد : ان العادة خلفي تمضي الى قلب المدينة ، الى الزينات النارية الكبيرة للشوارع المركزية ، الى قصر بارامونت ، الى الامبريال ، الى المخازن ، جاهات ، الكبرى ، الى هذا لا يخرج على الاطلاق ، فهذه ساعة تناول المشهيات ، وقد رأيت ما يكفيني الآن من الأشياء الحية والكلاب والبشر وجميع الكتل الرخوة التي تتحرك

تلقائياً .

وانعطف الى اليسار ، وأوشك ان ألج تلك النفق . هناك ، في آخر صف مصابيح الغاز : التي سأتبع ، البولفار الأسود ، حتى جادة غاقلاني ، وبعث النفق رعباً مثلجة : ليس ثمة الا حجارة وتراب . ان الحجارة شيء قاسٍ لا يتحرك .

ان ثمة طرفاً من طريق مهل : فعلى الرصيف الأيمن كتلة عقارية رمادية مع خطوط ادرية ، وهي تحدث ضجة الصدف : انها المحطة القديمة . وقد أخصب وجودها الثلاث مئة متر الاولى من البولفار الاسود — ابتداء من بولفار « الروندوت » حتى شارع « بارادي » — وولَّد فيها زهاء عشرة مصابيح واربعة مقاه متجاورة ، مقهى « راندفو دي شامينو » وثلاثة اخرى ، تسترخي طوال النهار ، ولكنها تشاطب الضوء مساءً وتلقي مستطيلات مضيئة على الشارع . التي آلتها ثلاث حامات اخرى من النور الأصفر . وأرى امرأة مسنة تخرج من حانوت « رابانش » لسمانة ، وهي تشد خمارها على رأسها وتاخذ في الركض : لقد انتهى الأمر الآن ، انني على حافة رصيف شارع « بارادي » الى جانب آخر مصباح . ان شريط القطران يقطع هنا . في الناحية الاخرى للشارع ، يقوم السواد والوحل . وأعبر شارع بارادي ، وتمشي قدمي اليمنى في مستنقع ماء ، فيبلّ جوربي ، ان النزهة لتبتدئ .

ليس ثمة من يسكن ، هذه المنطقة من البولفار الأسود : فالطقس فيها اقسى من ان يُحتمل ، والأرض اعق من ان تستقر فيها الحياة وتنمو . والمنازل الثلاث للاخوة سولانج — (الاخوة سولانج هم الذين صنعوا القبة المفتحة لكنيسة سانت — سيسل دولامير والتي كلفت مئة الف فرنك) تفتح الى الغرب بكل ابوابها وكل نوافذها ، على شارع جانا — برت — كوري فتمتلئ بالهدير . وهي تولي بولفار فيكتور — نوار ظهورها الثلاثة التي التصق بها جدران . وهذه الأبنية تحف رصيف اليسار طوال اربعمئة متر : ليس ثمة أي نافذة ، حتى ولا كوّة .

ومرت هذه المرة بقدميّ الاثنتين في الساقية . وعبرت الطريق : كان على الرصيف الآخر مصباح غاز واحد ، كمنارة عند طرف الأرض الأقصى ، يضيء سياجاً مبقوراً ، مهدّماً في مواضع .

وكانت قصاصات من الاعلانات ما تزال ملصقة على الألواح . فهناك وجه جميل تملؤه بالحقد يكشّر عن ارغفة خضراء ممزّقة بشكل نجمة ، وتحت الأنف ، رسم المدهم شارباً معوّجاً . ويوحي الناظر انه يبهجاً . تغرق قصاصة اخرى ، كلمة « Pirates » بحروف بيضاء تسقط منها قطرات حمراء ، ربما كانت قطرات دم . ومن الممكن ان يكون الوجه والكلمة جزءين من الاعلان نفسه . غير ان الاعلان هو الآن ممزّق . فالصلات البسيطة المفضوحة التي تجمع بينها قد اختفت ، ولكن وحدة اخرى قد قامت من تلقاء نفسها بين الفم الملتوي وقطرات الدم والأحرف البيضاء وآخر الكلمة « Ates » : فكأنّ هوساً مجرماً لا يهدأ يسعى الى الظهور عن طريق هذه العلامات المبهمة . ويمكن المرء ان يرى بين الألواح الواهي اضواء الطريق الحديدية . وثمّة جدار طويل يكمل السياج . جدار بلا فتحات ولا ابواب ولا نوافذ ، يقف على بعد مئتي متر ، بازاء بيت . وجاوزت حقل عمل المصباح ، وهأنذا ادخل النفق الأسود . واني لأشعر ولا ارى ظلّي عند قدمي يذوب في الظلام ، اني اغطس في ماء مثلج . وأتبيّن امامي ، في البعيد ، عبر كثافات من سواد ، شحوباً موزّعاً : انها جادّة غاتياني . وأستدير ، وخلف مصباح الغاز ، في البعيد ، يوجد ظلّ من ضياء : تلك هي المحطة ، والمقاهي الأربعة ، وحشد من اشخاص يشربون ويلعبون الورق في المقاهي . اما هنا ، فليس الا ظلام ، وتحمل لي الريح ، في تواتر ، صوت جرس صغير متوحّد يأتي من بعيد . انه الضجيج الألوف ، وهدير السيارات والصراخ والنباح ، كل هذه لا تبعد قط عن الشوارع المضاءة ، فهي اظلّ محمومة . واما هنا الجرس ، فانه يخرق الظلمات ويصل الى هنا : انه انقى وأقلّ انسانية من سائر الضجيج .

وأتوقف لأصغي اليه . اني مغرور ، واذناي توقّفاني ، ولا بدّ انها

حولوان قدماً. ولكني لا أحس نفسي بعد، إني غارق في صفاء ما يحيط بي؛ لا شيء يعيش، إنه الريح تئن، وخطوط حادة تمر في الليل. إن البولفار الأسود لا يتخذ سحنة الشوارع البورجوازية التي تقدم عبارات للمارة. فليس هنا من اهتم بتزيينه: إنه لا يعدو أن يكون قفاً، قفا شارع جان - بيرت كوروي، وجادة غالفاني. صحيح أن سكان بوفيل ما زالوا يرعونه قليلاً، حوالي المحطة، إنهم ينظفونه بين وقت وآخر، بسبب المسافرين. ولكنهم سرعان ما يتركونه بعد ذلك، فيمضي مستقيماً أعمى، حتى يصطدم بجادة غالفاني. لقد نسيته المدينة. وقد تجتازه أحياناً بسرعة كبيرة شاحنة ضخمة بلون التراب، وهي ترسل ضجة راعدة، بل هو لا يحدث فيه قتل، لانعدام القتلة والضحايا. ان البولفار الأسود لا إنساني. كالمعدن. كمثلث. وإنه لحظ لبوفيل ان يكون فيها مثل هذا البولفار. فالمألوف ان لا يوجد مثله إلا في العواصم، في برلين، من ناحية نويكولن أو باتجاه فريدريشهاين — وفي لندن، خلف غرينتش، ممرات مستقيمة وقذرة، في صميم المجرى الهوائي، مع أرصفة عريضة بلا أشجار، إنها دائماً تقريباً خارج السور، في هذه الأحياء الغريبة التي تصنع فيها المدن، بالقرب من محطات البضائع، ومستودعات الترامات، والمسالخ، ومستودعات الغاز. إنها بعد يومين من المطر، حين تكون المدينة كلها لزجة تحت الشمس، وحين تشع بالحرارة الرطبة، تظل باردة تماماً، وتحتفظ بوحلها ومستنقعاتها. بل ان لها مستنقعات لا تجف أبداً، إلا شهراً واحداً في العام، في آب.

لقد بقي (الغثيان) هناك، في النور الأصفر. إنني سعيد: فهذا البرد شديد النقاء، وشديدة النقاء هذه الليلة. ألست انا نفسي نفحة من هواء مثلوج؟ ليتني لا أملك دماً، ولا لمفاً ولا لحماً. ليتني أسيل في هذا القنال الطويل نحو ذلك الشحوب هناك. ليتني لا أكون إلا برداً.

ها هم أولاء بشر. ظلالان. أية حاجة كانت بهما لتجيئا الى هنا؟ إنها امرأة قصيرة تشد رجلاً من كمّه. وهي تتكلم بصوت سريع

دقيق ، وأنا لا أفهم ما تقول ، بسبب الريح .

وقال الرجل : — متشكّرين بورك ، أليس كذلك ؟

وظلت تتكلم ، وفجأة دفعها . وتبادلا النظرات ، مترددين ، ثم دسّ الرجل يديه في جيبه ومضى من غير ان يلوي .

واختفى الرجل . وحالما تفصلني عن المرأة ثلاثة أمتار على الاكثر ، وفجأة مزقتها اصوات مريضة مبحوحة ، انتُزعت منها لتملأ الشارع كله بعنف هائل :

— شارل ! ارجوك ، أتعرف ما قلته لك ؟ عُد يا شارل ، فقد كفاني ما عانيت ، اني شقية اكثر مما ينبغي .

ومررت بها عن كثب ، حتى كان بوسعي ان ألمسها ، انها هي ... ولكن كيف أصدق ان هذا اللحم المحترق ، هذا الوجه المشع بالألم ؟... ومع ذلك فأنا اعرف الذيل والعطف والشامة التي على ذراعها اليمنى بلون قشر الخمر ، انها هي ، لوسي ، خادمة البيت . اني لا أجرؤ على ان أقدم لها مساعدتي ، ولكن يجب ان تستطيع النداء عند الحاجة : ومررت أمامها ببطء ، وانا انظر اليها . وثبتت عيناها عليّ ، ولكن لم يبدُ أنها رأتني ، انها تبدو وكأنها لا تعرفني في ألمها . وخطوت بضع خطوات ، ثم التفت ...

أجل ، انها هي ، انها لوسي . ولكنها متغيرة الوجه ، الشديدة الغضب ، متألقة سعادة بجنون ، التي احسدها . فهي هنا ، منتصبة باستقامة ، منفرجة الذراعين كما لو انها كانت تنتظر الكي : وفتحت فمها فكادت تختنق . وانا احس بأن الجدران قد كبرت ، على جانبي الطريق ، وتقاربت ، وان لوسي كانت في جوف بئر . وانتظرت بضع لحظات ، وانا اخشى ان تسقط ميتة : فهي أهزل من ان تتحمل هذا الالم العنيف ولكنها لم تتحرك . وبدا انها قد تجمدت ، ككل ما يحيط بها . وتساءلت ذات لحظة عمّا اذا لم أكن مخطئاً بشأنها ، وعما اذا لم تكن هذه طبيعتها تكشفت لي فجأة ...

وندّت عن لوسي آهة قصيرة ، ورفعت يدها الى حنجرتها وهي تفتح

عينين كبيرتين مندهشتين . لا ، انها لا تستمد من ذاتها القوة على ان تتألم الى هذا الحد . ان ذلك يأتيها من الخارج ... إن هـذه البولفار . يجب ان تؤخذ من كتفيها ، وتقاد الى الاسوار ، وسط الناس في الشوارع المضيئة الوردية ؛ فان المرء لا يستطيع هناك ان يتألم بهذه القوة ، سوف ترتخي هناك ، وستستعيد هيئتها الايجابية ومستوى آلامها العادي .

وأولينا تهرب . انها ، بعد كل حساب ، محظوظة . وانا هادئ ، اكثر مما ينبغي ، منذ ثلاث سنوات . وانا لا استطيع ان اتلقى شيئاً من هذه الوحدة الفاجعة الا قليلاً من الصفاء الفارغ . اني ذاهب .

الخميس الساعة الحادية عشرة والنصف

اشتغلت ساعتين في قاعة المطالعة . وهبطت الى ساحة « الزهورات » لأدخن غليوناً . ساحة مبلطة ببلاط وردي ، وسكان بوفيل فخورون بها ، لأنها ترجع الى القرن الثامن عشر . ورأيت في مدخل شارع شاماد وشارع سوسيدار سلسلات قديمة تسد الطريق على السيارات . وهاتيك السيدات اللواتي أتين لينزهن كلابهن يتسللن تحت القناطر ، بمحاذاة الجدران . وقلما يتقدمن حتى النور الواضح ، ولكنهن يرمين نظرات فتيات ، نظرات محتشمة راضية على تمثال غوستاف امبترار . لا بد انهن لا يعرفن اسم هذا العملاق البرونزي ولكنهن على ثقة من انه ، بفضل ردنجوته وقبعته العالية ، كان رجلاً من الطبقة العالية . انه يمسك قبعته بيده اليسرى ، ويضع اليمنى على ركام الطلحيات النصفية : فذلك يشبه لو ان جدهن كان هنا ، على هذه القاعدة ، مصبوباً في البرونز . ولم يكنّ بحاجة الى اطالة النظر اليه ليدركن انه كان يفكر مثلهن ، مثلهن تماماً ، حول جميع الموضوعات . وقد وضع في خدمة أفكارهن الصغيرة الضيّقة والصلبة سلطته وعلمه الواسع المستمد من الطلحيات النصفية التي تسحقها يده الثقيلة . وتشعر السيدات ذوات الأثواب السوداء بالعزاء ، فبوسعهن ان ينصرفن بهدوء الى شؤون المنزل ، وينزهن كلابهن . فالأفكار

المقدسة ، الافكار العلية التي ورثها عن آلهتهن ، ليس عليهن بعدئذٍ الدفاع عنها ، فان رجلاً من البرونز جعل نفسه حامياً لها .

إن «دائرة المعارف» الكبرى تكرس بضعة أسطر لهذه الشخصية ، وقد قرأتها في العام الماضي . وقد كنت وضعت المجلد على حافة النافذة ، وكان بوسعي ان ارى ، عبر الزجاج ، صنعة امبرّاز الخضراء . وقد علمت أنه اشتهر حوالي ١٨٩٠ . وكــان مفتشاً للاكاديمية . وكان يرسم أشياء جميلة . وقد ألف ثلاثة كتب : « حول الشعبية عند قدماء اليونان » (١٨٨٧) و « التربية عند رولان » (١٨٩١) و « وصية شعرية » في عام ١٨٩٩ . وقد مات عام ١٩٠٢ ، حاملاً حسرات تلامذته والمعجبين به من ذوي الذوق الرفيع .

استندت الى واجهة دار الكتب . إني أُدخن غليوني الذي يهدد بالانطفاء . وأرى سيدة مسنة تخرج خائفة من الرواق ذي القبب وتنظر الى امبرّاز نظرة دقيقة وعنيدة . وتجرؤ فجأة ، فتجتاز الساحة بكل سرعة رجليها وتقف امام التمثال وهي تحرك فكيها . ثم تمضي سوداء على البلاط الوردي وتختفي في خلل جدار .

ربما كانت هذه الساحة جذلة ، حوالي ١٨٠٠ ، بقرميدها الوردي وبيوتها . اما الآن فان فيها شيئاً جافاً ورديئاً ، ظلاً دقيقاً من فظاعة وهذا صادر من ذلك الرجل القائم هنالك على قاعدته . انهم حين صبّوا هذا الجامعي في البرونز ، جعلوا منه ساحراً .

وانظر الى امبرّاز مواجهة . ليس له عينان ، ويكاد لا يكون له أنف ، ولحية تأكلها ذلك البرص الغريب الذي ينقضّ أحياناً كالوباء على جميع تماثيل حي من الأحياء . إنه يحيّي ؛ وتحمل صدرته ، لدى القلب ، لطخة كبيرة خضراء اللون . وهو يبدو منحرف المزاج منزعجاً . انه طبعاً لا يحيا ، ولكنه ليس كذلك فاقد الروح . ان قوة خفية تنبعث منه : فكأنها ريح تردّني : ان امبرّاز يود ان يطردني من ساحة « الرهونات » ، ولكني لن

أتعب قبل أن أنهي تدخين هذا الغليون .
وتنبهت فجأة من غفوتي شبح كبير ، فأطرق مستفهماً ؟

— المعذرة يا سيدي ، لم أكن أريد أن أزعجك . لقد رأيت أن شفتيك كانتا تتحركان . ولا شك في أنك كنت تردد عبارات من كتابك (وضحك) إنك اليوم تطارد الخطرات .

وأنظر إلى « العصامي » في ذهول . ولكنه بدا مدهوشاً من دهشتي .

— أليس واجباً يا سيدي أن يتعقب المرء الخطرات في النثر ؟

أن احترامه لي قد تضاءل قليلاً . وسألته ما الذي يصحبه هنا ، في هذه الساعة . فيوضح لي أن معلمه قد أعطاه عطلة ، وأنه قدم تواً إلى المكتبة ، وأنه لن يتناول الغداء ، وأنه سيطالع حتى موعد الإغلاق . وأكف عن الإصغاء إليه ، ولكنه لا بد من أن يكون قد ابتعد عن الموضوع الأدبي ، فقد همس فجأة :

— ... ليتني أملك مثلك سعادة أن أكتب كتاباً .

يجب أن أقول شيئاً ما . وقلت بلهجة ارتياب :

— ... سعادة ...

فأخطأ في فهم معنى جوابي ، وسارع يصحح :

— كان عليّ يا سيدي أن أقول : كتابة .

ورقينا الدرج . ليست لديّ رغبة في العمل . وكان أحدهم قد ترك كتاب « أوجيني غرانديه » على الطاولة ، وكان الكتاب مطروحاً على الصفحة السابعة والعشرين . وقد التقطته بآلية ، وأخذت أقرأ الصفحة السابعة والعشرين ، ثم الصفحة الثامنة والعشرين : فليست لديّ الجرأة بالبدء من البداية . واتجه « العصامي » نحو رفوف الجدار بخطوة حيية ، وعاد بمجلدين وضعهما على الطاولة ، بهيئة كلب عثر على عظمة .

— ماذا تقرأ ؟

يخيّل إليّ أنه يكره الإجابة : فقد تردد قليلاً ، وأدار عينيه الكبيرتين

الفاروقين ، ثم مدّ لي الكتابين على مضض . إنهما « التراب العضوي ومناجم التراب العضوي » تأليف لاربالتريه ، و « إيتوباديزا أو التعلم المفيد » تأليف لاستيكس . ولكن ؟ إنني لا أرى مما يزعجه . فإن قراءة مثل هذه الكتب تبدو لي محتشمة جداً . وإرضاءً لضميري ، قلّبت صفحات « إيتوباديزا » فلم أجد فيه إلا كل ما هو رفيع .

الساعة الثالثة

تركت « اوجيني غرانديه » . وانصرفت الى العمل ، ولكن بلا حماسة. وكان « العصامي » الذي يرى أني أكتب ، يراقبني في تلذّذ واحترام . ومن الحين والحين أرفع قليلاً رأسي ، فأرى الياقة الكبيرة المنتصبة التي تخرج منها عنقه الدجاجية . إنه يرتدي ثياباً رثة ، ولكن لباسه الداخلي ذو بياض باهر . وقد تناول من على الرف نفسه مجلداً آخر قرأت عنوانه بالمقلوب : « سهم كوديبك » ، يوميات نورماندية للآنسة جولي لافيرنيو . إن قراءات العصامي ستحيّرني دائماً .

وتعاوده ذاكرتي دفعةً واحدة أسماء آخر المؤلفين الذين قرأ آثارهم : لامبير ، لانغلو ، لاربالتريه ، لاستيكس ، لافيرنيو . إنه لإشراق ! لقد فهمت طريقة العصامي : إنه يثقف نفسه وفق الألفباء .

وأتأمله في نوع من الإعجاب . أية إرادة يحتاج إليها ليحقق في هدوء وعناد خطةً واسعة المدى الى هذا الحد ؟ منذ سبعة أعوام (لقد قال لي إنه كان يدرس منذ سبعة أعوام) دخل هذه القاعة ذات يوم في أبهة كبيرة . وقد استعرض بنظره الكتب التي تغطي الجدران من غير أن يحصرها عد ، ولا بد أنه قال ، كما قال راستينياك تقريباً : « أنت وأنا ، أيها العلم الانساني ! » ، ثم ذهب ليأخذ أول كتاب على أول رف الى أقصى اليمين ، وفتحه على الصفحة الأولى ، بشعور من الاحترام والرهبة ممزوج بتصميم لا يتزعزع . وقد وصل الآن

الى حرف L . K بعد J ، و L بعد K . وقد انتقل بقسوة من درس مفردات الأجنحة الى نظرية «الكانتا» ، ومن كتاب عن تيمورلنك الى مقالة انتقاد كاثوليكية ضد مذهب داروين: العلم يحتضر لحظة واحدة . لقد قرأ كل شيء، وقد اختزن في رأسه نصف ما يعرفه البشر عن التناسل اللاتي ، ونصف الحجج ضد تشريح الحيوانات الحية . إن خلفه وأمامه عالماً . ويقترب اليوم الذي يقول فيه لنفسه ، وهو يغلق آخر كتاب في آخر رف الى أقصى اليسار: «والآن ؟»

إن هذه ساعة «عصرونيته» ، وهو يأكل ببطء برية خبزاً ولوحاً من «غلالايتر» . خطاه مسللان ، ويوسعي ان أتأمل أهدابه الجميلة المقوّسة — أهداب امرأة . وهو ينبعث رائحة تبغ قديم تختلط بها ، إذ يتنفس ، ، عطر الشوكولا الحليب .

الجمعة ، الساعة الثالثة

أهملت في شرك المرآة ، اكثر قليلاً من ذي قبل ، التي ألفتها ، ولكن لكي أسقط في شرك الزجاج : اقترب من النافذة ، مرغَماً التراخي ، إلا عمل الورشة ، السياج ، المحطة القديمة — المحطة القديمة ، السياج ، الورشة ، وأتثاءب بشدة ، حتى ان دمعة تقطر الى عيني . وأمسك الغليون بيدي اليمنى ، وزمة تبغي باليسرى . علي حشو هذا الغليون . ولكني لست متحمساً لذلك . إن ذراعي تتدليان ، وأنا أسند جبيني الى الزجاج . تلك المرأة العجوز تضايقني . أنها تتطلع في عناد ، بعينين شاخصتين . وهي تلف أحياناً بيئة مذعورة ، كما لو ان خطراً غير مرئي قد لامسها . ها هي ذي تحت نافذتي . إن الريح تلصق تنورتها على ركبتيها . وتقف تتسوّى علاقتها . ان يديها ترتجفان . وتمضي من جديد : وأنا الآن أراها من ظهرها . بالعجة العجوز ! أنا افترض أنها ستنعطف الى اليمين ، في الجادة السوداء . ان أمامها مئة متر لتقطعها : فاذا ظلت تمشي على هذا النحو ، فهي محتاجة الى عشر دقائق ، عشر دقائق سأبقى

في أثنائها هكذا ، أنظر إليها ، وجبيني ملتصق بالزجاج ، ستقف عشرين مرة ثم تمضي ، ثم تقف ...

إني «أرى» المستقبل . انه هناك ، منتصب في الشارع ، لا يكاد يزيد شحوباً عن الحاضر . ما حاجته لأن يتحقق ؟ أي جديد تتيحه ذلك ؟ ان العجوز تبتعد وهي تعرج . وتقف ، ثم تشد على خصلة رمادية تفلت من غلائلها . ثم تمضي . لقد كانت هناك ، وها هي الآن هنا ... إني لا أدري بعدُ أين بلغت من أمرها : هل «أرى» حركاتها ، أم إني «أتنبأ» بها ؟ إني لا أميّز بعدُ الحاضر من المستقبل . ومع ذلك ، فان هذا يستمر ، يتحقق شيئاً فشيئاً ؛ إن العجوز تتقدم في الشارع الخالي ، وهي تنقل نعليها الرجاليين الكبيرين. ان هذا هو الزمن ، الزمن عارياً تماماً . انه يأتي متمهلاً للوجود ، انه يُغري بالانتظار ، حتى اذا أقبل ، يُحس المرء بالاشمئزاز لأنه يلاحظ ان وقتاً طويلاً قد انقضى على وجوده هنا . ان العجوز تقترب من زاوية الشارع ، وهي ليست بعدُ إلا كومة صغيرة من الأقمشة السوداء . أجل ، إني أقر ، هذا جديد حقاً ، فهي لم تكن هناك الساعة . ولكن هذا جديد كامد ، ذابل ، لا يستطيع ابداً ان يفاجىء . إنها على وشك ان تنعطف في زاوية الشارع ، إنها تنعطف ـ طوال أبد .

وانتزع نفسي من النافذة ، فأجتاز الغرفة وأنا أترنح ، وألتصق بالمرآة ، أنظر الى نفسي ، أشمئز من نفسي : طوال أبد كذلك . وأخيراً ، أفلت من صورتي ، وأمضي لأرتمي على سريري . وأنظر الى السقف ، وأود ان أنام .

هدوء . هدوء . إني لا أحس بعدُ الانزلاق ، ولا ملامسات الزمن . أرى صوراً على السقف . دوائر نور اولاً ، ثم صلباناً . وكان ذلك يرفرف . ثم ها هي صورة أخرى تتشكل ، « في جوف عيني » ، هذه . انها حيوان كبير راكع ، وأنا أرى قدميه الأماميتين ، وبردعته . أما الباقي ، فمغطى بالضباب ، غير أني أتعرفه جيداً : انه جمل رأيته في مراكش ، وهو مربوط بحجر . كان قد ركع ونهض ست مرات على التوالي ، وكان بعض الصبية يضحكون

وعمّ صوته بأصواتهم .

منذ عامين ، كان ذلك رائعاً : لم يكن لي الا ان اغمض عيني ، وسرعان ما يطن رأسي كخلية : كنت ارى من جديد وجوهاً وأشجاراً وبيوتاً ويابانية من « كاميتي » ، تشتعل وهي عارية في برميل ، ورومياً ميتاً يسيل من جرح عريض فاغر ، ودمه كأنه في مستنقع بقربه . وكنت استعيد طعم الكسكس ، ورائحة الزيت التي تملأ عند الظهر شوارع بورغوس ، ورائحة النعناع التي تحتق في شوارع تطوان ، وصفير الرعاة اليونانيين . كنت منفعلاً . لقد انقضى وقت طويل على هذه الفرحة اللاهبة . أتراها ستولد اليوم من جديد ؟

خمس عشرة ، تشتعل في رأسي بخشونة ، كصفيحة فانوس سحري ، كأنها قطعة من سماء زرقاء ، وقد تسمّرت ، بعد بضع انتفاضات . فدهشني كلّ من الداخل . فمن أيّ بئر مراكشي (او جزائري او سوري) انفصل هذا اللمعان فجأة ؟ وتلاشت أسيل في اللاشي .

مكناس . كيف اراه كان الان ذلك الجبليّ الذي التقاها في زقاق ، بين جامع « بردان » وتلك الساحرة التي تظللها شجرة توت ؟ لقد اقبل علينا ، وكانت آتي الى يمني . او لعلها كانت الى يساري ؟

هذه الشمس وهذه السماء الزرقاء لم تكونا الا خداعاً . وهذه هي المرة المئة التي انخدع بها . ان ذكرياتي هي النقود في بورصة الشيطان : فأنا حين افتحها لا اجد فيها الا اوراقاً ميتة .

اما الجبلي ، فلا اتمثّل منه بعد الآن الا كرة مفقوءة ، حليبية . تلك العين ، أهي حقاً له ، هو ؟ إن الطبيب الذي كان يشرح لي في « باكو » ، فكرة مستشفيات الدولة للإجهاض : كان هو ايضاً أعور ، وحين اريد ان اتذكّر وجهه ، فإنما تبدو كذلك هذه الكرة المبيضة . ان هذين الرجلين لا يملكان الا عيناً واحدة يتداولانها بالدور ، شأنهما في ذلك شأن « النورن » (1)

---

(1) Nornes وهن في الميثولوجيا الاسكندينافية الهات القدر اللواتي يقطعن في مصائر الناس . (المترجم)

وأمر هذه الساحة التي كنت أقصدها في مكناس كل يوم، هو أشدّ بساطة: انني لا أراها بعدُ على الإطلاق. بيد انه يبقى لي الشعور الغامض بأنها كانت ساحة ساحرة، وهذه الكلمات الثلاث المترابطة ترابطاً لا انفصام له: ساحة مكناس الساحرة. لا شك في انني اذا اغمضت عينيّ او حدّقت بالسقف في غموض، استطعت ان أعيد تأليف المنظر: شجرة في البعد، شكل مظلم كيف يبدو الي. ولكني اخترع هذا كلّه لمتطلبات القضية. لقد كان ذلك المراكشي طويلاً وصلباً، والحق انني رأيته فقط حين كان يلمسني، وهكذا ما أزال «أعرف» انه كان طويلاً وصلباً: ان بعض المعلومات المختصرة تظلّ ثاوية في ذاكرتي. ولكني لا «أرى» بعدُ شيئاً: فعبثاً ما بحثت في الماضي، وانا لا أستخرج منه الا أطرافاً من صور، ولا أدري جيداً ما الذي تمثّله، ولا ما اذا كانت ذكريات او اوهاماً.

والحق ان هذه الاطراف نفسها قد اختفت في كثير من الحالات، لم يبقَ بعد الا كلمات! ما يزال بامكاني ان اروي حكايات، أرويها جيداً جداً (فانا بالنسبة للحكاية لا اخشى احداً، الا ضابط البحر الهيّن) ولكنها ليست بعد الا هياكل. صحيح ان القصة فيها قصة شخص يفعل هذا او ذاك، ولكنه ليس إياي، وليس عندي ما هو مشترك معه. انه يتنزّه في بلاد لا اعرف عنها اكثر مما لو انني لم أزرها قط. وتحدث احياناً، في اثناء السرد، ان انطق بهذه الاسماء الجميلة التي تقرأ في الأطالس، من مثل اراتجواز او كانتربري. انها تولّد فيّ صوراً جديدة كل الجدة كتلك التي يشكلها، بعد المطالعة، اولئك الذين لم يسافروا قط: انني احلم على كلمات، هذا كل ما في الأمر.

على انه يبقى من مئة حكاية ميتة حكاية او حكايتان حيّتان. وانا اذكرها في تلذّذ احياناً، لا اكثر مما ينبغي، خشية ان ابليها. وأتناول احداها، فأستعيد الديكور والأشخاص والمواقف. وفجأة الوقف: فقد احسست بشيء التلف، ورأيت كلمة تنفذ فوق نسيج المشاعر. وانا احدس ان هذه

الكلمة ستأخذ منا قليل مكان بضعة صور احبها . وسرعان ما اقف ، وأفكر في عجل بشيء آخر ، انني لا اريد ان أحيي ذكرياتي . ولكن حتماً ، ففي المرة القادمة التي اذكرها فيها ، سيكون قسم كبير منها قد انتُشل وتحرّر .

وارسم حركة مبهمة لكي انهض ، لأذهب لآتي بصوري في مكانس ، من الصندوق الذي دفعتُه تحت طاولتي . ما الفائدة ؟ ان مهيجات الشوق هذه فقدت كل تأثير على ذكرياتي . ولقد عثرت ذات يوم على صورة صغيرة مصفرّة تحت ورق نشاف . وكانت تمثل امرأة تبتسم ، بالقرب من حوض . وتأملتها لحظة من غير ان اعرفها . ثم قرأت على قفا الصورة : « آني . بورتسموث ، ٧ نيسان ٢٧ » .

لم يسبق لي ان احسست "كاليوم احساساً" قوياً بأني بلا ابعاد خفية ، واني محدودٌ بجسمي ، وبالافكار الخفيفة التي تتصاعد منه كالفقاقيع . اني أبني ذكرياتي بحاضري . فانا ملقىً ومتروك في الحاضر . اما الماضي فأحاول عبثاً ان اتصل به : انني لا استطيع ان افرّ .

الباب يطرق . انه العصامي : وكنت قد نسيته . لقد وعدته بأن أريه صور رحلتي . فليأخذه الشيطان .

وجلس على كرسيّ ، ولامست مؤخرته المسند والقى صدره الصلب الى امام . وقفزت من سريري واشعلت النور :

– ولكن كيف ذلك يا سيدي ؟ لقد كنا في حالة جيدة جداً .

– لا لرؤية الصور ...

وأخذت منه قبعته التي كان حائراً لا يدري ما يفعل بها .

– أصحيح هذا يا سيدي ؟ اتريد حقاً ان تُريني اياها ؟

– طبعاً .

وكان في هذا حساب : فأنا آمل ان يصمت ، ريثما ينظر اليها . وانحنيت تحت الطاولة ، ودفعت الصندوق بازاء الأحذية اللامعة ، ثم وضعت على ركبتيه ملء ذراعين من البطاقات البريدية والصور : اسبانيا ومراكش الاسبانية

ولكني ارى من هيئته الضاحكة المنفتحة الى المسرات خطأً فادحاً الا حببت الي ساحته الى الصمت . فقد ألقى نظرة على منظر لسان – سيباستيان مأخوذة من جبل ايغالدو ، ثم وضعه باحتراس على الطاولة وظلّ لحظة صامتاً ، ثم تنهّد .

– آه ! إنك محظوظ يا سيدي ، اذا كان ما يُقال صحيحاً ، فان السفر هو خير مدرسة . أتوافق على هذا الرأي يا سيدي ؟

فقمت بحركة مبهمة . ومن حسن الحظ انه لم ينتبه .

– لا بدّ ان ذلك يُحدث انقلاباً كبيراً . ولئن كُتب لي ان اقوم برحلة ، فيخيّل اليّ " اني اودّ " ، قبل ان اسافر ، ان اسجّل كتابة ادنى الخطوط في طبعي ، لأتمكن من ان اقارن لدى عودتي ما كنته وما اصبحته . وقد قرأت ان هنالك مسافرين تغيّروا تغيراً كبيراً جسدياً وروحياً ، حتى ان اقرب اقربائهم لم يعرفوهم لدى عودتهم .

وكان يقلّب في جزدانه رزمة كبيرة من الصور ، وقد تناول احداها ووضعها على الطاولة من غير ان ينظر اليها ، ثم حدّق بكثافة في الصورة التالية التي تمثل القديس جيروم منحوتاً على كرسي في كاتدرائية بورغوس .

– هل رأيت هذا «المسيح» ذا الجلد الحيواني في بورغوس ؟ ان هنالك يا سيدي كتاباً عجيباً من هذه التماثيل ذات الجلود الحيوانية ، بل وحتى ذات البشرة الانسانية . و «العذراء» السوداء ؟ انها ليست في بورغوس ، انها في ساراغوس ؟ ولكن ربما كانت هنالك صورة منها في بورغوس ؟ ان الحجاج يقبّلونها ، اليس كذلك ؟ – اقصد صورة ساراغوس . وهنالك اثر من قدمها على بلاطة ؟ موضوعة في ثقب ؟ تدفع الامهات فيه اولادهن ؟

ويدفع بكلتا يديه ، وهو منتصب تماماً ، ولداً خيالياً . فكأنما هو يرفض هدايا ارتاكزيركيس .

– آه ، العادات يا سيدي ، هذا ... عجيب !

ووجّه اليّ ، وهو يلهث ، فكّه الجاري الكبير ، وكانت تنبعث منه رائحة

الثلج والماء والنار . وكانت عيناه الجميلتان الشاردتان للسعال كجمرتين من نار ، وكان شعره القليل يحيط صلعته بهالة من غبار . وتحت هذه الصلعة ، كانت جماعات من الساموييد والنيام — نيام والمالاغاش والبوجيان يخطفون أغرب الأشياء ، ويأكلون آباءهم المسنين وأولادهم ، ويدورون حول أنفسهم على دقات الطبل حتى الإغماء ، ويستسلمون لجنون « الأموك »[1] ، ويحرقون موتاهم ، ويطرحونهم على السطوح ، ويتركونهم لمجرى المياه على قارب لهيبه شعلة ، ويتضاجعون بالاتفاق ، أمهات وأبناء ، آباء وبنات ، أخوة وأخوات ، ويبترون أعضاءهم ويخصون أنفسهم ، ويمدّدون شفاههم بالأطباق ويشمون على أجسامهم حيوانات مسيخة .

— هل يمكننا أن نقول مع باسكال أن العادة طبيعة ثانية ؟

وتذرع عيناه السوداوان بعيني ، يلتمس جواباً ، فقلت :

— هذا يتوقف .

وتنفس .

— وهذا أيضاً ما كنت أقوله لنفسي يا سيدي . ولكني أحذر نفسي أشدّ الحذر ، ينبغي على الإنسان أن يكون قد قرأ كل شيء ،

ولكنه أصيب بالهذيان لدى رؤيته للصورة التالية . فقد أطلق صرخة فرح :

— سيفوق ! سيفوق ! لقد قرأت كتاباً عن سيفوق .

وأضاف بلهجة تائه :

— إني يا سيدي لا أذكر بعد اسم المؤلف . فأحياناً تغيب عني الأسماء :

لـ... لو... لوه...

فقلت له بحيوية :

— صحيح ، إنك ما تزال عند حرف اللام ، لافولير .

وسرعان ما ندمت على عبارتي : فهو ، بعد كل حساب ، لم يحدثني قط

---

[1] جنون القتل في منطقة ملاكا . [المترجم]

حتى هذه الطريقة في القراءة . ولا بدّ ان ذلك عليّ بان سرّني . والواقع انه قد اضطرب وتقدّمت شفتاه بهيئة باكية ، ثم أخفض رأسه ونظر الى زهاء عشر بطاقات بريدية من غير ان ينبس بحرف .

ولكني لاحظت بعد ثلاثين ثانية ان حماسة كبيرة تنفخه ، وانه يوشك ان ينفجر اذا لم يتكلم !

— حين انتهي من تثقيف نفسي (وأمامي بعد ست سنوات لهذا) فسوف انضم ، اذا سمح لي ، الى الطلاب والاساتذة الذين يقومون برحلة سنوية الى الشرق الاوسط .

واضاف في طلاوة :

— اودّ ان ادقق بعض المعلومات ، واحب كذلك ان يحدث لي ما هو غير متوقع ، ما هو جديد ، وبكلمة واحدة : مغامرات .

وكان قد خفض صوته واتخذ هيئة الخبث . فقلت له مندهشاً :

— اي نوع من المغامرات ؟

— جميع الانواع يا سيدي . ان المرء قد يخطىء في اختيار قطار ، فيهبط في مدينة مجهولة ، او يضيع محفظته ، او يُقبض عليه خطأ فيقضي الليل في سجن . حسبت يا سيدي ان بالامكان تعريف المغامرة هكذا : حدث يخرج من العادي ، من غير ان يكون بالضرورة خارق العادة . يتحدثون عن سحر المغامرة ، فهل تبدو لك هذه العبارة دقيقة ؟ أودّ ان اطرح عليك سؤالاً يا سيدي .

— وما هو ؟

فاحمرّ وابتسم :

— ربما كان ذلك مخالفاً للرصانة ...

— قلْ مع ذلك ...

مال عليّ وسألني ، وعيناه نصف مغمضتين :

— هل وقعت لك مغامرات كثيرة ، يا سيدي ؟

فاجبت آلياً :

– يفيح مغامرات .

والتفتُ الى علب لأنقذني نفسه للوجوه . اجل ، لقد قلت ذلك بآلية ، من غير ان افكر بالأمر ، والواقع اني عادةً اميل الى الاعتزاز بأني عرفت مغامرات كثيرة . اما اليوم ، فقد كنت ألفظ هذه الكلمات حتى احاط بي غيظ على نفسي كبير . فقد خيّل اليّ اني اكذب ، واني في حياتي كلها لم اعرف اية مغامرة ، او اني بالأحرى لا اعرف حتى ما تعنيه هذه الكلمة . وفي الوقت نفسه ثقل على كتفيّ ذلك الجمود نفسه الذي استولى عليّ في هانوي ، منذ اربعة اعوام ، حين كان مرسيه يستعجلني ان ألحق به ، وكنت احدّق ، من غير ان اجيب ، في تمثال هندي صغير ، وكانت « الفكرة » هناك ، تلك الكتلة الضخمة البيضاء التي كانت كثيراً ما اثارت اشمئزازي ؟ لذلك ؛ وكنت لم ارها مرة اخرى منذ اعوام . وقال العصامي :

– هل يمكنني ان اسألك ...

فليكن ! لعله يطلب الي ان اروي له احدى هذه المغامرات الشهيرة ! اني لا اريد ان اقول كلمة في هذا الموضوع . وثبت فوق كتفيه الضيقتين وقلت وانا اضع اصبعي على احدى الصور :

– هذه هي سانتيانا ، اجمل قرية في اسبانيا .

– سانتيان جيل بلاس ؟ اني لم اكن أظن ان لها وجوداً حقيقياً . آه ! يا سيدي ، كم في حديثك من فائدة . ان المرء يرى جيداً انك قد سافرت حقاً .

صرفت العصامي ، بعد ان حشوت جيوبه بالبطاقات البريدية والصور والمحفورات . ولقد ذهب مسحوراً واطفأت النور . وها انذا الآن وحدي . لست وحدي تماماً . فما تزال هناك ايضاً هذه الفكرة ، تنتظر . ولقد تكوّرت ولبثت هناك ككتلة كبيرة . انها لا تشرح شيئاً ، وهي لا تتحرك وتكتفي بأن تقول لا . لا ، لم تحدث لي مغامرات .

وحشوت غليوني واشعلته وتمددت على سريري وانا اضع معطفاً على

ساقيّ . انه ما يدهشني ، هو ان احسني حزيناً ومحبطاً الى هذا الحد . فحتى لو كان صحيحاً انه لم تحدث لي مغامرات ، فما معنى ذلك ان يؤثر عليّ ؟ تخيّل اليّ اولاً انها قضية كلمات فحسب . قضية مكناس هذه مثلاً ، التي كنت افكر بها الساعة ؛ لقد وثب عليّ مراكشي وأراد ان يضربني بمدية كبيرة ولكني علته بقبضة ادركته تحت صدغه ... واذا فانه اخذ يصرخ باللغة العربية ، وسرعان ما برز عددٌ من القمّارين لحقوا بنا حتى سوق العطارين . انه بامكان الناس تسمية ذلك بالاسم الذي يروقهم ، ولكنه على كل حال حدث" لقد «وقع لي» .

ان الظلام مطبق ، وانا لا ادري بعدُ جيداً اذا كان غليوني مشتعلاً . ومرّ ترام : لمعان احمر في السقف . ثم جاءت سيارة ثقيلة هزّت البيت . لا بدّ انها الساعة السادسة .

لم تحدث لي مغامرات . لقد وقعت لي حكايات وأحداث وما الى ذلك ، ولكن لا مغامرات . انها ليست قضية كلام ، لقد بدأت افهم . ان هناك شيئاً احرص عليه اكثر من أي شيء آخر — من غير ان انتبه له تماماً . وهو لم يكن الحب ، ولله الحمد ، ولا المجد ، ولا الغنى ، وانما كان ... على أيّ حال ، كنت قد تصورت ان حياتي تمكن في بعض الفترات ان تتخذ صفةً نادرة وثمينة . ولم تكن ثمة حاجة الى الظروف الاستثنائية : كل ما كنت اطلبه شيء من الدقة . ان حياتي الحاضرة ليس فيها ما هو لامع جداً : ولكن بين الفينة والفينة ، حين كانوا يعزفون الموسيقى مثلاً في المقاهي ، كنت أرتدّ الى خلف وأقول لنفسي : في الماضي ، حدث وانا في لندن ، ومكناس ، وطوكيو ، لحظات رائعة ، وحدثت لي مغامرات . وهذا ما يُنتزع مني الآن . وعلمت فجأة ، بلا سبب ظاهر ، انني كذبت على نفسي طوال عشرة اعوام . ان المغامرات هي في الكتب . وطبعاً ، كل ما يروى في الكتب يمكن ان يحدث حقاً ، ولكن لا بالطريقة نفسها . وانا كنت حريصاً على طريقة الحدوث هذه بالذات حرصاً شديداً .

وقد كان ينبغي اولاً ان تكون البدايات بدايات حقيقية. يا للحسرة ! انني أرى جيداً الآن ما كنت أريده . بدايات حقيقية ، تظهر كجرس بوق ، كالنغمات الاولى للحن جاز ، فجأة ، واضعة حداً للسأم ، مؤكدة الزمن ؛ من تلك الأمسيات التي يقال بعدها : «كنت أتنزه ، وكان ذلك في أمسية من نوار .» يتنزه المرء ، إذ يكون القمر قد أطل ، فها هو خالٍ ، عاطل ، فارغ بعض الشيء . ثم يفكر دفعة واحدة : «لقد حدث شيء ما .» اي شيء : خشخشة خفيفة في العتمة ، طيف خفيف يعبر الشارع . ولكن هذا الحدث الضئيل لا يشبه الاحداث الاخرى . فنحن نلاحظ على الفور أنه مقدمة لشكل كبير يضيع رسمه في الضباب ، ونقول في انفسنا كذلك : «إن شيئاً ما يبدأ .»

شيء ما يحدث لينتهي : ان المغامرة لا تسمح بأن توضع لها وُصلة ، فهي لا معنى لها الا بموتها . والى هذا الموت ، الذي ربما يصبح موتي انا ايضاً ، أراني مدفوعاً بلا عودة . وكل لحظة لا تظهر الا لتجر اللحظات التي تلي . وانا متعلق بكل لحظة من قلبي : انني اعرف انها فريدة ، غير قابلة للاستبدال ـ ومع ذلك ، فأنا لن أقوم بحركة لأمنعها من ان تتلاشى . فهذه الدقيقة الأخيرة التي أقضيها ـ في برلين ، في لندن ـ بين ذراعي هذه المرأة التي لقيتها عشية الامس ـ الدقيقة التي احبها بشغف ، والمرأة التي أوشك ان احبها ـ سوف تنتهي ، وانا على يقين من ذلك . بعد قليل ، سأقصد بلداً آخر ، ولن أجد ثانية هذه المرأة ، ولا تلك الليلة . انني أنحني على كل ثانية ، وأحاول أن أستنفدها ، لا يحدث شيء إلا وأدركه وأثبته في نفسي ، لا شيء ، لا الرقة الفارة من هاتين العينين الجميلتين ، ولا صخب الشارع ، ولا الاشراق الكاذب للفجر ؛ ومع ذلك فان الدقيقة تنسل ، وانا لا ألتقطها ، وأحب ان تنقضي .

وفجأة ، بعد ذلك ، ينكسر شيء ما . لقد انتهت المغامرة ، ويستعيد الزمن رخاوته اليومية . والتفت ، فاذا بذلك الشكل الغنائي الجميل ، وراء ظهري ، يستغرق كلياً في الماضي . انه يتناقص ، ويتقلص إذ يميل ، حتى ان النهاية الآن

لا تشكل إلا "كلاً" واحداً مع البداية . ولكن وانا أتابع حتى هذه النقطة اللعبة التي سأقبل – حتى ولو تعرضت للموت او لفقدان ثروة او صديق – ان أعيش ثانية كل شيء ، في الظروف نفسها ، من البدء الى النهاية . ولكن مغامرة ما لا تُعاد من جديد ولا تستطيل .

أجل ، هذا ما كنت أريده – وهذا للأسف ما لا ازال أريده . اني اشعر بسعادة كبيرة حين تغني زنجية : فأية ذرى لن أبلغها إذا كانت حياتي الخاصة ، تكوّن مادة الغناء

ان « الفكرة » ما تزال هنا ، الشيء الذي لا يسمّى . انها تنتظر ، في سكون . وهي تبدو الآن ، وكأنها تقول :

« ماذا ؟ « أهذا ، ما كنت تريد ؟ الحق ان هذا هو ما لم تحصل عليه قط (أذكر انك كنت تخدع نفسك بالكلمات . كنت تطلق اسم المغامرة على بريق السفر الخُلّب ، وعلى غراميات الفتيات ، وعلى المنازعات ، وعلى الزجاجيات الملونة) وهذا ما لم تحصل عليه أبداً – ولا اي شخص آخر غيرك . »

« ولكن لماذا ؟ « لماذا ؟ »

ظهر السبت

لم يرني العصامي داخلاً قاعة المطالعة . كان جالساً في أقصى الطاولة الداخلية وكان واضعاً امامه كتاباً ولكنه لم يكن يقرأ . كان ينظر باسماً الى جاره الأيمن ، وهو طالب قذر يقصد دار الكتب غالباً . وقد تركه الآخر يتأمله لحظة ، ثم مدّ له لسانه فجأة وهو يكشّر تكشيرة فظيعة . واحمرّ العصامي ، وأسرع يُغرق انفه في كتابه ويستغرق في قراءته .

وعدت الى الافكار التي راودتني بالأمس . وكنت جافاً تماماً : كان لديّ سواء ألا تكون قد حدثت لي مغامرات . وانما كان يأخذني الفضول لمعرفة ما ، اذا لم يكن ممكناً ، ان تحدث مغامرات .

وهذا ما فكرت به : لكي يصبح أتفه حدث مغامرة، يجب ويكفي ان يأخذ المرء بـ « سرده ». وهذا ما يخدع الناس : إن الانسان هو دائماً سارد حكايات ، هو يعيش محاطاً بقصصه وقصص الآخرين ، وهو يرى عبرها كل ما يحدث له ، ويسعى لأن يعيش حياته كما لو أنه يحكيها .

ولكن لا بد من ان نختار : بين ان يعيش او ان يحكي . فأنا مثلاً حين كنت في هامبورغ مع « ايرنا » هذه التي كنت أحذرها والتي كانت تخافني ، كنت اعيش حياة غريبة ولكني كنت في داخلها ، ولم أكن افكر فيها . وذات مساء في مقهى صغير بسان باولي ، تركتني قاصدة المغاسل . وبقيت وحدي ، وكان ثمة فونوغراف يغني « السماء الزرقاء » فأخذت أروي لنفسي ما حدث منذ إبحاري . وقلت لنفسي : « في المساء الثالث ، دخلت مرقصاً يدعى « لاغروت بلو » ، فلاحظت امرأة طويلة نصف ثملة . وهـذه المرأة ، هي التي انتظرها في هذه اللحظة ، وأنا اسمع « السماء الزرقاء » ، وهي التي ستعود لتجلس الى يميني وتحيط عنقي بذراعيها . » وآنذاك ، أحسست بعنف انه كانت لي مغامرة . ولكن « ايرنا » عادت ، وجلست قربي ، وأحاطت عنقي بذراعيها فاحتقرتها من غير ان اعرف السبب حقاً . وانا الآن افهم : ذلك انه ينبغي العيش من جديد ، وان الطابع المغامرة قد تلاشى .

حين يعيش المرء ، لا يحدث شيء . كل ما في الأمر ان الديكورات تتغير وان الناس يدخلون ويخرجون . ليس ثمة بدايات قط . ان الايام تضاف الى الايام بلا رقع ولا سبب ، فهي عملية جمع رتيب لا ينتهي . وبين الفينة والفينة نرسم مجموعاً جزئياً ، فنقول : عدة ثلاثة اعوام سافرت فيها ، ثلاثة اعوام وانا في بوفيل . كذلك ليس ثمة من نهاية : ان المرء لا يغادر قط امرأة وصديقاً ومدينة مرة واحدة . ثم ان كل شيء متشابه : شنغهاي وموسكو ومدينة الجزائر ، فبعد خمسة عشر يوماً ، يصبح كل شيء متماثلاً . وثمة لحظات — نادرة — يضع فيها المرء النقاط على الحروف ، فيلاحظ انه التصق بامرأة ، وغرق في حكاية قذرة . ولا يستغرق ذلك اكثر من لمح البرق . ثم يستأنف العرض من

جديد ، ويعود المرء الى القيام بجميع الساعات والايام: الاثنين ، الثلاثاء ، الاربعاء ، نيسان ، ايار ، حزيران . ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ .

هنا ، هو الى جيش الانسان . أما حين يروي الحياة ، فان كل شيء يتغير ، غير انه تغير لا يلحظه احد ؛ والدليل انه يتحدث عن قصص حقيقية . كما لو انه كان ممكناً ان تكون هناك قصص حقيقية ، ان الاحداث تقع في اتجاه ، ونحن نرويها في اتجاه معاكس . ويبدو علينا اننا نبدأ منذ البداية : « حدث ذلك ذات مساء جميل من خريف ١٩٢٢ . وكنت آنذاك خادم كاتب عدل في مارموت . » والواقع اننا نكون قد بدأنا من النهاية . انها هنا ، غير مرئية وحاضرة ، وهي التي تمنح هذه الكلمات القليلة أبهة البداية وقيمتها . « كنت أتنزه ، وكنت قد خرجت من القرية من غير ان أنتبه ، وكنت أفكر في متاعبي المالية . » ان هذه العبارة ، اذا أخذت على ظاهرها ببساطة ، تعني ان الرجل كان مستغرقاً ، ضجراً ، على بعد مئة ميل من المغامرة ، وهو بالضبط في ذلك النوع من المزاج الذي يدع الاحداث ان تمر من غير ان يراها . ولكن النهاية موجودة هنالك ، وهي تغيّر كل شيء . ان الرجل ، بالنسبة الينا ، قد أصبح بطل القصة . وضجره ومتاعبه المالية هي أثمن من ضجرنا ومتاعبنا ، انها مذهّبة تماماً بنور العواطف القادمة . وتمضي القصة بالمقلوب : لقد كفّت اللحظات عن ان تتراكم بعضها فوق البعض ، وهي مخطوفة خطفاً سريعاً بنهاية القصة التي تجتذبها ، وكل واحدة تجتذب بدورها اللحظة التي تسبقها : « كان الليل هابطاً ، وكان الشارع مقفراً . » إن العبارة ملقاة بإهمال ، وهي تبدو زائدة ولكننا لا ندع القصة تنخدع بها ، ونضعها جانباً : انها إرشاد سندرك قيمته فيما بعد . وإن لدينا الشعور بأن البطل قد عاش جميع تفاصيل هذه الليلة كأنها إرهاصات ، كأنها وعود ، او انه كان يعيش من التفاصيل ما كان وعوداً فحسب ، أعمى وأصمّ بالنسبة لكل ما لا يُرهص بالمغامرة . اننا ننسى ان المستقبل لم يكن بعدُ هنالك ، ولقد كان الشخص يتنزه في ليل بلا طلائع ، ليلٍ كان يمنحه ثرواته الرتيبة ممتزجة ، ولم يكن يختار .

لقد اردت ان تتابع لحظات حياتي وتنتظم كلحظات حياة يتذكرها المرء. وكان هذا يعادل محاولة القبض على الزمن من ذنبه.

الأحد

كنت قد نسيت هذا الصباح ان اليوم يوم احد. ولقد خرجت ومضيت في الشوارع على مألوف العادة. وكنت قد حملت «اوجيني غرانديه». ثم شعرت فجأة، بينما كنت ادفع حاجز الحديقة العامة، ان شيئاً ما يومىء إليّ. كانت الحديقة مقفرة وعارية. ولكن... كيف أعبّر؟ لم يكن لها مظهرها العادي، بل كانت تبتسم لي. وقد ظللت لحظة مستنداً الى الحاجز، ثم فهمت فجأة ان اليوم كان يوم احد. وكان قائماً هناك على الشجر وعلى الأعشاب، كبسمة خفيفة. وكان ذلك لا يمكن وصفه، وكان يقتضي المرء ان يلفظ بسرعة: «الحديقة عامة، في الشتاء، صباح يوم احد».

وتركت الحاجز، وانطلقت نحو البيوت والشوارع البورجوازية وقلت بصوت منخفض: «انه يوم الأحد».

انه يوم الأحد: فقد كانت خلف احواض السفن، على طول البحر، بالقرب من محطة البضائع، وحول المدينة كلها، اكواخ فارغة وآلات جامدة في الظلام. وكان في جميع البيوت رجال يحلقون ذقونهم خلف نوافذهم، انه رؤوسهم مقلوبة، وهم يحدّقون احياناً في مراياهم وأحياناً اخرى في السماء الباردة ليعرفوا ان كانوا سيتمتعون بطقس جميل. وتفتح المواخير ابوابها لزبائنها الاولين، من القرويين والجنود. وفي الكنائس، على ضوء الشموع، يشرب رجل الخمر امام نساء راكعات. في جميع الضواحي، بين جدران المصانع التي لا تنتهي، أخذت صفوف طويلة سوداء في السير، متقدمة ببطء نحو وسط المدينة. وقد اتخذت الشوارع لاستقبالهم مظهرها الذي تتخذه في ايام الاضطراب: فقد اسدلت جميع المخازن، باستثناء مخازن شارع «تورنوبريده»

ستائرها الحديدية . ولن تلبث الأعمدة السوداء ان تغشى في صحن هذه الشوارع التي تتمدد ميتة : فيأتي أولاً عمال سكك لورفيل وأنداؤهم الذين يعملون في مصابن سان — سامفورين ، ثم صغار بورجوازيي جوكيتوبوفيل ، ثم عمال مصانع بيتو للغزل والنسيج ، ثم جميع حِرَفيّي حي ملك — ماكسالس ، أما رجال تيارلش فيكونون آخر الواصلين لتمام الساعة الحادية عشرة . ولن يلبث جميع ايام الآحاد ان يولد بين المخازن والأبواب المغلقة .

ولدى "ساعة النصف بعد التاسعة" أبدأ السير : اذ بوسع المرء ان يرى في بوفيل ، في مثل هذه الساعة من يوم الأحد ، منظراً هادئاً . عسى ألا يصل متأخراً أكثر مما ينبغي عن ساعة الخروج من القداس الكبير .

ان شارع جوليان — سولاري الصغير ميت ، ومنه تنبعث رائحة كهف ، ولكن ضجة ضخمة تملأه : ضجة مد وجزر ، كجميع ايام الأحد . وأنعطف في شارع بريزيلا — شامار التي تتألف بيوته من ثلاثة طوابق ذات شبابيك طويلة بيضاء . ان شارع "كتّاب العدل هذا مأخوذ" كلياً بصخب يوم الأحد الهائل . وتزداد الضجة في ممر دجيه و والذ اتعرف عليها : انها ضجة يحدثها البشر . ثم تحدث فجأة ، الى اليسار ، ما يشبه انفجار ضوء وأصداء . لقد وصلت : هو ذا شارع تورتوبريد . وليس لي إلا ان آخذ مكاني بين امثالي . وسأرى السادة النبلاء يتبادلون التحية بالقبعات .

منذ مئتي سنة فحسب ، لم يكن احد ليجرؤ على التنبؤ بمصير شارع تورتوبريد الحالي ، هذا الشارع الذي يطلق عليه سكان بوفيل اليوم اسم « البرادو الصغير » . ولقد رأيت خارطة ترجع الى عام ١٨٤٧ لم يكن هذا الشارع حتى ماثلاً فيها . ولا بد انه كان آنذاك زقاقاً منتناً أسود ذا ساقية تجرف مجراها بين البلاط رؤوس السمك وأمعاءه . ولكن ، المجلس القومي ، اعلن في آخر عام ١٨٧٣ ان من المصلحة العامة بناء كنيسة على تلة مونمارتر . وبعد أشهر قليلة ، حدث تحول لامرأة عطار بوفيل . لقد جاءت سيدتها التقية ستميل القدم لها لصالح . أكان من المحتمل ان تتوسل التحية كل يوم احد

لتقصد كنيسة سان - روك او كنيسة سان - كلوديان من اجل ان تحضر القداس مع الباعة ؟ ألم يسبق « لجمعية الوطنية » ان ضربت المثل ؟ الا يؤمل تجمع الآن ، بفضل حماية السماء ، مركز اقتصادي من الطراز الاول ؟ أليس من الملائم بناء كنيسة حياً قريب ؟

وقُبلت هذه الرؤى : فعقد المجلس البلدي جلسة تاريخية ، وقبل الأسقف ان تجمع التبرعات . وبقي اختيار المكان . وكان رأي أمر التجار ومتعهدي المراكب ان يُقام البناء على قمة « التلة الخضراء » ، حيث كانت تقيم هذه الأسر ، لتسهر القديسة سانت - ميشيل على بوفيل ، كما يسهر « قلب يسوع المقدس » على باريس » . وغضب سادة جادة « مارتيم » الجدد : إنهم على استعداد لاعطاء كل ما يلزم ، شريطة ان تبنى الكنيسة في ساحة مارتيم ، فهم إن كانوا يدفعون للكنيسة ، فإنما يقصدون الافادة منها ؛ وهم لم يغضبوا لإشعار هذه البورجوازية المتغطرسة التي كانت تعاملهم على أنهم حديثو النعمة - لم يغضبوا لإشعارها بقوتهم . واقترح الأسقف تسوية : فتبنى الكنيسة في منتصف الطريق بين « التلة الخضراء » وجادة « مارتيم » في ساحة « هال - او - بورو » التي صُمّت ساحة « سانت - ميشيل - دولامير » ، وهذا البناء الضخم الذي انتهى عام ١٨٨٦ ، كشف اربعة عشر مشيراً على الافق .

ولا يدانى شارع اورتوبيزيه الواسع ، على قذارته وسوء حظه ، أعيد بناؤه من جديد ، ودُفع سكانه بقوة وراء ساحة سانت - ميشيل ؛ وأصبح « البرادو الصغير » - ولا سيما صباح الاحد - ملتقى الأنيقين والأعيان . وفتحت المخازن واسعاً فراحاً على ممر النخبة ، وهي تبقى مفتوحة حتى الصبح ، وطوال ليلة الميلاد ، وكل يوم احد حتى الظهر . والى جانب « جوليانه » المشهور بمعجناته الحارّة ، يعرض « فوتوت » بائع الحلوى مصنوعاته العظيمة الخاصة من حلوى « الفتي فور » ذات الشكل المخروطي بالزبدة البنفسجية التي تعلوها بقشة من السكر . وفي واجهة مكتبة « دونيه »

زرق آخر منشورات « بلون » ، وبعض المؤلفات التكتيكية ، من مثل نظرية عن « السفينة » ، أو دراسة عن « الأشرعة » ، أو تاريخ كبير مصوّر لمدينة بوفيل ، ومطبوعات فاخرة معروضة بأناقة مثل « كونيغسمارك » المجلّد بجلد أزرق ، و « كتاب نولانتي » لبول دوميي ، المجلد بجلد أصفر مع زهور أرجوانية . وهنالك فيلين « خياطة رفيعة ، موديلات باريسية » الذي يفصل [illegible] بائع الزهور عن بائع الأثريات . ومحل المزين غوستاف ، الذي يستعمل أربعة [illegible] ، الطابق الأول من بناية حديثة مطلية بالأصفر .

منذ عامين ، كان حانوت صغير جرئ ، يقوم عند زاوية ممر « موليان — جيمو » وشارع تورنوبريد ، ما يزال يعرض اعلاناً عن « لو — بو — ليه » المبيد للحشرات . وكان الحانوت قد ازدهر ، اذ كانوا ينادون على السمك في ساحة سان سبيل . وكان قد بلغ آنذاك مئة سنة من عمره . وكان نادراً ما يغسلون زجاج واجهته . من أجل هذا ، كان لا بد من بذل الجهد لكي يميّز المرء ، عبر الغبار والبخار ، جمعاً من الأشخاص الشمعية الصغيرة التي ألبست ثياباً قصيرة ذات لون ناري ، تمثل جرذاناً وفئراناً . وكانت هذه الحيوانات تغادر سفينة حربية وهي تشد الى القصب ، وما تكاد تمسّ الأرض حتى تقتل فلاحة ترتدي ثياباً أنيقة ، ولكنها قد اسودّت من الأقذار ، فتحملها على الحرب حين تلقي عليها مبيد الحشرات . وقد كنت أحب هذا الحانوت كثيراً . وكان له منظر وقح وخبيث ، وكان يذكّر في فجة بطوق الدود والقذارة ، على بعد خطوتين من أهل كاتالس فرنسا كلّها .

ولقد ماتت العقاقيرية العجوز في العام الماضي وباع حفيدها البيت . وقد كان كافياً هدم بعض الجدران : فاذا هي الآن قاعة صغيرة للمحاضرات باسم « لابولونيير » وقد ألقى فيها هنري بوردو ، في العام الماضي ، حديثاً عن تسلق الجبال .

وفي شارع تورنوبريد ، ينبغي على المرء ألا يكون عجلاً : إن الأمر يمضي ببطء . ويربح المرء نصالاً جماً من الصفوف حين تدخل أسرة برمتها

حانوت فولون او ياسمو . ولكن ينبغي له في فترات اخرى ان يقف حتى تلتقي أسرتان تمشي احداهما الى الصف الصاعد ، والاخرى الى الصف الهابط ، فتشتبكان بالايدي تشابكاً صلباً . وأتقدّم خطى صغيرة ، فأشرف على الصفّين برأسي وأرى قبعات ، بحراً من القبعات . واكثرها سوداء قاتمة . وبين الفينة والفينة أرى احداها وهي تطير بطرف ذراع كاشفة النباع صلعاً رقيقاً ، وبعد لحظات ، تحطّ على الرأس ، في طيران الليل . وفي الرقم ١٦ من شارع توراوبريد ، علّق « اوربان » بائع القبعات ، الاخصائي في قبعة « الكبي » ، قبعة كبيرة لأسقف ، كأنها الرمز ، تمثل طرزها الذهبية على بعد مترين من الأرض .

ويتوقف الجمع . واذا بطريق يتجمّع تحت المطر تماماً . وينتظر جاري ، من غير نفاد صبر ، مثني الذراعين : وأنا اعتقد جيداً ان هذا العجوز القصير المتقع المحرج كالبورسلين ، انما هو « كوفيه » ، رئيس غرفة التجارة . ويبدو محرّفاً جداً لفرط اعتصامه بالصمت ، وهو يمسك في قمة « التلة الخضراء » بيتاً كبيراً لرمبدي السقف ، تظلّ ابوابه مشرعة ابداً ثم ينتهي الأمر : فلقد انفرط الجمع وعاد الى السير . وتشكّل جمع آخر ، ولكنه احتل مكاناً اصغر : فما كاد يتشكّل حتى اندفع الى واجهة غيسين . على ان الصف لم يتوقف ، واذا هو ينحرف انحرافاً يسيراً ، ولكم بيئة الشخاص متماسكي الأيدي : « صباح الخير . يا سيدي ، صباح الخير يا سيدي العزيز ، كيف الحال ، ولكن تغطّ جيداً يا سيدي ، فانك ستصاب بالبرد » ، شكراً يا سيدتي ، ان الطقس ليس حاراً . يا عزيزي ، أقدّم لك الدكتور لوفرنسوا ، انا سعيدة جداً يا دكتور بالتعرّف اليك ، ان زوجي حدثني دائماً عن الدكتور لوفرنسوا الذي عالجه معالجة ممتازة ، ولكن تغطّ جيداً يا دكتور ، فانك قد تصاب بأذى في هذا البرد . ولكن الدكتور يشفى بسرعة ، أسفاً يا سيدتي ، انما الأطباء هم اقل الناس عناية بأنفسهم . ان الدكتور موسيقيّ مرموق ، اوه ، يا دكتور ، لم اكن أعرف ذلك ، هل تعزف على الكمان ؟ ان الدكتور ذو موهبة غنية » .

أكيد ان العجوز القصير الواقف جانباً من « كوفيه » ، ان هناك في ثنايا الجمع واحدة ، هي السمراء، تأكله بعينيها، فيما هي تبتسم بجهة الدكتور ويبدو انها تفكر : « هوذا السيد كوفيه لا يتنازل لرؤية شيء » . ان هؤلاء الناس من جادة « مارينيم » : فهم ليسوا من علية القوم . فمنذ العهد الذي أجيء فيه الى هذا الشارع لأرى تبادل التحية بالقبعات يوم الأحد ، تعلمت ان اميّز الناس الجائية « من الناس » الثلاثة ، فحين يرتدي شخص معطفاً حديثاً ، وقبعة طرية ، وقميصاً باهراً ، ويتخذ المظاهر المختلفة ، فليس ثمة مجال للانخداع بشأنه : انه واحد من جادة مارينيم . أما رجال « التلة الخضراء » فيتميّزون بما لا ادريه مما يوحي بالشفقة والهبوط . ان لهم أكتافاً ضيقة ، وهيئة فجة على وجوه بالية . وإذا اراني ان هذا السيد الكبير الذي يمسك بيد غلام ، انما هو من « التلة » . ان وجهه رمادي تماماً وربطة عنقه معقودة كأنها الخيط .

ويقترب الرجل السمين منا ، فينظر تحديقاً بالسيد كوفيه . ولكنه قبل ان يحاذيه ، يلفت رأسه ويأخذ في مزاح أبوي مع صبيه الصغير . ويقوم بضع خطى اخرى ، منحنياً فوق ابنه ، وعيناه غارقتان في عينيه ، الا يبدو الا أباً ؛ ثم يلتفت فجأة نحونا ، فيلقي على العجوز القصير نظرة حية ، ويرسم تحية واسعة وجافة بدورة من ذراعه . ولم يكشف الصغير عن نفسه ؛ رغم حيرته : فتلك قضية بين الأشخاص الكبار .

وعند زاوية شارع « باس — شو » — فيو ، يصطدم صفنا بصفّ من المؤمنين يخرجون من القداس ، فيتصادم عشرة أشخاص ويتبادلون التحية وهم يدورون ، ولكن حركات القبعات تمضي أسرع من ان نستطيع تفصيلها . وفوق هذا الجمع الضخم الشاحب ، تنتصب كنيسة سانت سيسيل كتلتها الشيطانية البيضاء : بياض طباشيري على سماء معتمة ؛ وخلف هذه الجدران الساطعة ، تمسك بين جوانبها قليلاً من سواد الليل . ونعود الى السير ، وقد تغيّر النظام بعض الشيء . وكان السيد كوفيه قد دُفع حتى هنا ورائي . والتصقت بجنبي الأيسر امرأة ترتدي ثوباً كحلياً ، وهي قادمة من القداس ، انها تطرف بعينيها ، وهي مبهورة

بعض الشيء بالعودة الى نور الصباح . وهذا السيد الذي يمشي أمامها وله رقة عزيزة جداً ، هو زوجها .

وكان على الرصيف الآخر رجل يمسك امرأته من ذراعها ، وقد همس لها بضع كلمات في أذنها وأخذ يبتسم . وسرعان ما جرّدت سحنتها الناعمة من كل تعبير وخطت بضع خطى عرجاء . ان هذه العلامات لا تخدع : فلا شك في انهما سيحيّيان . وبالفعل ، لم تمض لحظة حتى قذف السيد يده في الهواء ، حتى اذا اصبحت اصابعه على حدود لياقته ، تردّدت لحظة قبل ان تحطّ على القبّعة . وفيما كان يرفعها بعذوبة ، وهو يخفض رأسه قليلاً ليساعد على رفعها ، قامت زوجته بقفزة قصيرة وهي ترسم على وجهها بسمة نضرة . وتجاوزهما طيف وهو ينحني ؛ ولكن بسمتيهما التوأمين لم تمّحيا على الفور ، بل ظلتا بضع لحظات على شفتيهما ، في شيء من الارتعاش . وحين التقى السيد والسيدة بي ، كانا قد استعادا جمودهما ، ولكن بقيت لها فيئة مرح حول الفم .

وانتهى الأمر : ان الجمع اقلّ كثافة ، وحركات القبعات أصبحت نادرة وواجهات المخازن تبدو اقلّ حذاقة ؛ انني في اقصى شارع تورنوبريد . أتراني سأعبر الشارع وأصعد على الرصيف الآخر ؟ حسبي اني اكتشفت ، فحسبي ما رأيته من هذه الصلعات الوردية ، وهذه السحن الدقيقة ، المتحرّكة ، المتميّزة . سأعبر ساحة ماربيان . واذ كنت انزع نفسي بجهد من الصف ، انبثق بالقرب مني رأس ضئيل يخترق من قبعة سوداء . انه زوج السيدة ذات الثوب الكحلي . آه ، يا لجمال سلمة الوجه الطويل ، المزروعة بشعر قصير قاس ، ويا للشارب الاميركي الجميل الذي اندسّت فيه خيوط فضية . ولا سيما البسمة ، البسمة الرائعة المدروسة . وهناك نظارة ايضاً ، في مكان ما من الأنف .

وكان يلتفت الى زوجته ويقول لها :

ـــ انه رسّام جديد في الصنع . ولا أتساءل عمّا عساه يفعل هنا . انه صبي صغير طيب ، خجول ، وهو يسلّيني .

وكان الرسام الشاب الذي اعاد قبّعته الى رأسه ، اراه زجاج الحمام جوليان ، ما يزال متوتراً ، خافض العينين عند المشي ، محتفظاً بجميع مظاهر الشهوة العنيفة انه بلا شك يوم الأحد الأول الذي يجرؤ فيه على عبور شارع تورتوبريد وهو يبدو كمن يتناول للمرة الاولى ، فقد شبك يديه خلف ظهره وأدار وجهه نحو الواجهة بيئاً حسناً مدة تماماً ، وهو ينظر من غير ان يرى الى اربعة اسماك لامعة تتضجع على تابلها من البقدونس .

وخرجت امرأة من حانوت الحمام فأمسكت بذراعه . انها امرأته ، وهي قصيرة صبية بالرغم من جلدها المتآكل . وهي تستطيع ان تتمشى في اطراف شارع تورتوبريد ، ولن يحترها احد سيدة ، فان لمعان عينيها الوقح وهيئتها العاقلة الرصينة يخونانها . ان السيدات الحقيقيات لا يعرفن ثمن الأشياء ، ومن ثمّ يجهلن الاعمال الحيوية الجليلة ، وعيونهن هي زهور جميلة طاهرة ، زهور متفتحة قبل الأوان .

وحين آنت الساعة الواحدة وصلت الى مطعم فيرلين . ان المسنّين هناك ، على مألوف العادة . وقد بدأ اثنان منهم في تناول الطعام . وهناك اربعة يلعبون الورق وهم يتناولون المقبّل . اما الآخرون فواقفون ينظرون الى لحمهم بينما يُعدّ لهم الطعام . ان اكبرهم ، وهو ذو لحية طويلة ، وكيل صرافة ، وهناك آخر ، مفوض متقاعد في « التسجيل » البحري . انهم يأكلون ويشربون كما لو انهم في العشرين ، وهم يأكلون الكرلب يوم الأحد . اما آخر الواصلين ، فينادون الآخرين الذين بدأوا طعامهم .

— والآن ؟ اله ثانٍ الكرلب الرباني ؟

ويجلسون وهم يتنهّدون رضى .

— صغيرتي ماريت ، نصف قدح بيرة ، وصحن كرلب .

وماريت هذه فتاة نشيطة . وقبالتي كنت اجلس على طاولة ، في الساحة ، لحظ عجوز محمرّ الوجه يسعل من الغضب بها كانت تجيء له قدح فرموت ، وقال وهو يسعل :

ـ حسناً ! صُبّي لي المزيد منه .

ولكنها غضبت بدورها : فأنا لم أكن قد انتهيت من القصّ .

ـ ولكن دعني اصبّ ، من الذي يقول لك شيئاً ؟ انك تشبه الشخص الذي يُزعج نفسه قبل ان يتحدث اليه احد .

فأخذ الآخرون يضحكون .

ـ لقد أصبت الهدف ؟

وحين اتجه وكيل الصرافة للجلوس ، اخذ ماريت من كتفها :

ـ اليوم هو الأحد يا ماريت . فهل تذهبين الى السينما بعد الظهر ، مع صديقك الصغير ؟

ـ آه ، نعم . انه يوم العطلة . اما بشأن الصديق الصغير ، فأنا الذي أتحمّل اتهاماً .

وجلس وكيل الصرافة ، تجاه عجوز حليق الذقن ، ذي مظهر شقيّ . ولم يلبث العجوز الحليق ان بدأ قصة جنسية . ولم يكن وكيل الصرافة يصغي اليه بل كان يكشّر ويشدّ على لحيته . انهما لا يصغيان الى بعضهما ابداً .

وأتعرّف الى جاري : انه تاجر صغير من الجوار بصحبة زوجته ، ويوم الأحد ، تأخذ خادمتهما اذنها ، فيقصدان هذا المطعم ، ويجلسان دائماً الى الطاولة نفسها . ان الزوج يأكل قطعة وردية من لحم البقر ، وهو ينظر اليها عن كثب ويشم بين الفينة والفينة . اما الزوجة فتحدث حركات بطيئة في صحنها . انها شقراء قوية في الأربعين من عمرها ذات خدين احمرين قطنيين ، ولها نهدان جميلان قاسيان تحت قميصها من الساتان . وهي تشرب ، كالرجال ، زجاجة خمرها الأحمر في كل وجبة .

سأقرأ « اوجيني غرانديه » . وليس السبب اني احب في قراءتها متعة ، وانما لا بدّ من أعمل شيئاً ما . وأفتح الكتاب اتفاقاً : هاهي الأم والابنة تتحدثان عن حبّ اوجيني الوليد :

« وقبّلت اوجيني يدها وهي تقول :

— كم انت طيبة يا أمي الحبيبة ؟

وجعلت هذه الكلمات وجه الأم الذي أذبلته آلام طويلة يشعّ إشعاعاً.

وسألت اوجيني :

— هل تجدينه مناسباً ؟

لم تجب الأم غرانديه بغير بسمة ، ثم قالت ، بعد لحظة صمت ، بصوت منخفض :

— أتراك قد احببته ؟ ان ذلك سيكون سيئاً .

قالت اوجيني : — سيئاً ، لماذا ؟ انه يروق لك ، ويروق لنانون ، فلماذا لا يروق لي ؟ هيا يا ماما ، لنهيء مائدة غدائه .

وألقت ما بين يديها من عمل ، وكذلك فعلت امها وهي تقول لها :

— انك مجنونة !

ولكن لذّ لها ان تبرّر جنون ابنتها بان تشاطرها اياه .

ونادت اوجيني نانون :

— نعم ، ماذا تريدين ايضاً يا آنسة ؟

— نانون ، أيكون عندك قشدة ، عند الظهر ؟

فأجابت الخادم العجوز :

— عند الظهر ، نعم .

— حسناً ، إمزجيها بكثير من القهوة ، فقد سمعت من يحدّث السيد ديغراسين ان القهوة توضع بكثرة في باريس . فأكثري منها .

— ومن اين تريدين ان آتي بها ؟

— اشتريها .

— واذا التقى بي السيّد ؟

— انه في حقوله .... »

كان جاري وزوجه قد بقيا صامتين منذ وصولي ، ولكن صوت الزوج انبعث فجأة من ورائي ، اذ قال بلهجة غامضة مرحة :

- قولي ، هل رأيت ؟

فانتفضت المرأة ونظرت اليه ، كخارجةٍ من حلم ، وظلّ يأكل ويشرب ، ثم استطرد باللهجة المرحة نفسها :

- ها ! ها !

وساد صمت ، وعادت المرأة فسقطت في حلمها ، ثم ارتعشت فجأة وسألت :

- ماذا تقول ؟

- سؤال بالأمس .

قالت المرأة : - آه نعم ! لقد ذهبت لمقابلة فكتور .

- ما الذي كنت قد قلته لك ؟

ودفعت المرأة صحنها بيدٍ من فقد صبره :

- انه طعام رديء .

وكانت اطراف صحنها ملأى بأكثر من اللحم الرمادي الذي لفظته ، وتابع الزوج فكرته :

- تلك المرأة القصيرة هناك ...

وصمت وهو يبتسم بغموض . وكاد وكيل الصرافة تحاشياً يلامس ذراع ماريت وهو يلهث قليلاً . وبعد لحظة :

- سبق ان قلت لك ذلك ، منذ ايام .

- ما الذي قلته لي ؟

- انها ستذهب لمقابلة فيكتور .

ثم سأل فجأة بلهجة مذعورة :

- ماذا هناك ؟ الا تحس هذا ؟

- انه طعام رديء .

فقال في اخية :

- ليس الأمر بعدُ كما كان في عهد هيكار . أتعرفين أين هو ، هيكار ؟

- أليس هو في نومورغي ؟

- إي ، إي ، من قال لك ذلك ؟

- أنت ، قلته لي يوم الأحد .

وأكلت كسرة خبز كانت ملقاةً على حواف الورق . ثم قالت وهي تكنس بيدها الورق على حافة الطاولة ، مترددة :

- أتعرف تلك عطلي ؟ ان سوزان أكثر ...

فأجاب في شرود :

- هذا ممكن ، ممكن جداً يا صغيرتي !

وبحث بعينيه عن ماريت ، ثم أومأ لها :

- ان الطقس حار .

واستندت ماريت ألفة على حافة الطاولة ، فقالت المرأة وهي تئن :

- اوه ! نعم ، الطقس حارّ . ان المرء ليختنق هنا . ثم ان لحم البقر رديء ، وسأبلغ المعلّم ذلك ، لقد تغيرت الحال . افتحي قليلاً كوّة الباب ، يا صغيرتي ماريت .

واستعاد الزوج هيئته المرحة :

- ولكن ألم تريْ عينيها ؟

- ولكن متى يا عزيزي ؟

فقلّدها بنفاد صبر :

- ولكن متى يا عزيزي ؟ انت لا تتغيرين : في الصيف ، حين يهطل الثلج .

- تقصد أمس ؟ آه ، حسناً !

وضحك ، ونظر الى البعيد ، ثم قال بسرعة ، في شيء من الجهد :

- عينا قطة تغوّط في الرماد .

وبدا من شدة الرضى بحيث نسي ما كان يودّ ان يقول . وأخذها المرح بدورها ، من غير فكرة مسبقة :

— ها ! ها ! يا لك من خبيث كبير !

ووجهت الى كتفه ضربات صغيرة :

— يا لك من خبيث كبير ! يا لك من خبيث كبير !

فردّد في مزيد من الثقة :

— ... قطة الغوّاط في الرماد .

ولكنها كفّت عن الضحك :

— كلا ، انها حقاً رصينة .

وانحنى فهمس في أذنها حكاية طويلة ، ونظرت لحظة فاغرة الفم ، متوترة الوجه ، حائلة ، كمن يوشك ان ينفجر ضاحكاً ، ثم ارتدّت فجأة الى الخلف وخبطت بيديه قائلة :

— هذا غير صحيح ، هذا غير صحيح .

وقال بلهجة مفتعلة رصينة :

— أصغي اليّ يا صغيرتي ، ما دام قد قالها : فلو لم يكن ذلك صحيحاً ، فلماذا تراه قد قالها ؟

— لا ، لا .

— ولكن ما دام قد قالها : إسمعي ، إفرضي ...

فأخذت تضحك :

— أضحك لأني فكرت في زوجه .

— نعم .

وضحك هو ايضاً ، واستطردت بصوت منخفض ينمّ عن الأهمية :

— إنه لابد لاحظ الأمر يوم الثلاثاء .

— بل يوم الخميس .

— كلا ، بل الثلاثاء ، انت تعلم بسبب ...

ورسمت في الجو شكلاً اهليلجياً ، ثم ساد الصمت ، وغمس الزوج كسرة خبز في مرقه ، وغيّرت ماريت الصحون وحملت لهما الحلوى ، عمـا قليل ،

سآكل انا أيضاً قطعة حلوى . وفجأة أرسلت المرأة وهي في وضع حالم ، وعلى شفتيها بسمة اعتزاز لا تخلو من دهشة ، صوتاً مطوطاً :

— أوه ، كلا ، انت أعلم !

وكان في صوتها قدر كبير من الشهوانية ، حتى انه انفعل ولامس رقبتها بيده السمينة ، وتمتمت وهي تبتسم ، ولها تدلله :

— كفى يا شارل ، اصمت ، انك تثيرني يا حبيبي .

وحاولت أن استأنف قراءتي :

« — ومن اين تريدين ان آتي بها ؟

— اشتريها .

— وإذا التقى بي السيد ؟ »

ولكني ظللت اسمع المرأة تقول :

— اسمعي يا ماريت ، التي سأضحكها ، سأرويها لها ...

ثم سكت جاري وزوجته ، وأعطتهما ماريت ، بعد الحلوى ، خوخاً ، فانشغلت المرأة كل الانشغال بأن تلفظ النوى ، برشاقة ، في ملعقتها . وكان الزوج ، وعينه في السقف ، يوقع على الطاولة لحناً عسكرياً . فكان من يراهما يعتقد ان حالتهما الطبيعية هي الصمت ، وان الكلام حمّى صغيرة تنتابهما احياناً .

« — ومن اين تريدين ان آتي بها ؟

« — اشتريها . »

وأغلقت الكتاب ، ومضيت لأتنزه .

وحين خرجت من مطعم فرانسي ، كانت الساعة تقارب الثالثة ، وكنت أحس بعد الظهر في كل جسمي الثقل . لا بعد ظهري انا ، وانما بعد ظهرهم هم ، ذلك الذي سيعيشه مئة الف من سكان باريس بطريقة مشتركة . انهم في هذه الساعة نفسها ، بعد غداء الأحد الثقيل الطويل ، ينهضون عن الطاولة ، وقد مات شيء ما في نظرهم . ان يوم الأحد قد أنفق شبابه الخفيف . ويجب هضم

المروج والعلوي ، وارتداء الثياب للخروج .

وكان جرس سيبا الدورادو يُصدي في الهواء الطلق . انها ضجة يوم الأحد المألوفة ، هذا الجرس في وضح النهار . وكان أكثر من مئة شخص واقفين في الصف ، بإزاء الجدار الطويل الأخضر . وكانوا ينتظرون بينهم ساعة الطاولات الثلاثية : ساعة الاسترخاء والاستسلام ، الساعة التي تلمع فيها الثالثة كأنها حصة بيضاء تحت الماء ، ثم تحكي وتحلّم لهم . وانها لرغبة غير عجيبة : ان شيئاً ما فيهم سيظل منقبضاً ، انهم خائفون اكثر مما ينبغي ان يُفسد يوم احدهم ، وسيصابون ، عما قليل ، بالخيبة ، كما حدث كل احد : سيكون الفيلم سخيفاً ، او سيحتك جارهم الغليرد ويلصق بين ركبتيه ، او سيكون لوسيان مزعجاً جداً ، إذ انه لن يقول كلمة لطيفة يقولها ، او ان وجعهم بين الأضلاع سيعاودهم اليوم ، اليوم بالذات ، حين قرروا ان يقصدوا السينما . وستحدث في القاعة المظلمة ، عما قليل ، ألوان صغيرة من الغضب الأصم الشامي .

وواصلت سيري في شارع «ريسيان» الهادىء وكانت الشمس قد بددت السحب وصفا الجو . وخرجت أسرةٌ من مقصورة « لافاغ » وكانت الفتاة ترتدي قفازيها على الرصيف ، وكانت في حدود الثلاثين من عمرها . أما الأم ، فقد كانت مروعة على الدرجة الاولى من السلم ، تنظر امامها باستقامة ، وهي تتنفس نفساً عريضاً ، بنية مضحكة . ولم اكن ارى من الاب إلا الظهر العالي كان منحنياً على القفل ، يغلق الباب بالمفتاح . إن البيت سيبقى خالياً مظلماً حتى عودتهم . وفي البيوت المجاورة ، المغلقة المقفرة ، كان الاثاث والارض الخشبية قد بدأا يطقطقان على مهل . وكان السكان ، قبل ان يخرجوا ، قد اطفأوا النار في موقد غرفة الطعام . ولحق الأب بالمرأتين . وانطلقت الأسرة في السير ، من غير كلام . اين تراهم ذاهبين ؟ ان الناس يقصدون يوم الأحد المقبرة الضخمة ، او يزورون أقارب لهم ، او انهم يقصدون « لاجيته » فلتره ، اذا كانوا احراراً تماماً . وكنت حراً : وقد واصلت سيري في شارع

بريسان الذي يفضي الى منتزه « لاغيتيه » .

وكانت السماء ذات زرقة شاحبة : بعض دخـــان ، وبعد طير البلشون ، وبين الفينة والفينة تنجرف سحابة فتمر أمام الشمس . وكنت أرى في البعيـــد سياج الاسمنت الابيض الذي يمتد عـــلى طول منتزه « لاغيتيه » ، وكان البحر يلتمع عبر الفتحات . وسلكت الاسرة « الى اليمين ، شارع «امونية — هيلار» الذي يصعد الى « التلة الخضراء » ، وقد رأيتهم يصعدون بخطى بطيئة ، فيشكلون ثلاث لطخات سوداء عـــلى التماع الاسفلت . وانعطفت الى اليسار ، فدخلت في الجمع الذي كان يسير على حافة البحر .

وكان الجمع اكثر اختلاطاً من الصباح . وكان يبدو ان جميع هؤلاء الناس لم يملكوا القوة للمحافظة على ذلك التدرج الاجتماعي الجميل الذي كانوا ، قبل الغداء ، فخورين به كل الفخر . كان التجار والموظفون يسيرون جنباً الى جنب ، وكانوا يدعون أشخاصهم ان يلامسوهم بالمرافق ، بل ان يصدموهم ويدفعوهم ، عمال صغار ذوو سحنٍ بائسة . وهكذا كانت الارستوقراطيات ، والنخب ، والفرق المهنية ، قد ذابت في هذا الجمع الدافىء . وكان يبقى لـــه أناس شبه متوحدين ، قد كفّوا عن ان يمثلوا .

مستنقع نور في البعيد ، ذلك هو البحر في حالة الجزر . وكان بعض صخور مزدهرة تثقب برؤوسها هذا السطح المنير . وعلى الرمل كانت قوارب صيد منبطحة ، غير بعيد عن المكعّبات الحجرية الدبقة التي قُذفت في غير انتظـــام على الرصيف تحميه من الامواج . وكانت تدع فيما بينها فجواً مليئة بالصخب . وعنـــد مدخل المرفأ ، كانت جرفة الرمل تلقي ظلها على السماء التي بيضتها الشمس . انها تهدر كل مساء ، حتى منتصف الليل ، وتجرف ألواناً مختلفة من الاشياء . اما يوم الأحد ، فان العمال يتنزهون على الارض ، وليس ثمة إلا حارس على الشاطىء . وهكذا تصمت المجرفة .

كانت الشمس صافية وشفافة الضوء : خمرة بيضاء . وكان نورها لا يكاد يلامس الأجسام ، ولا يمنحهـــا ظلالاً ولا بروزاً . فكانت الوجوه والأيدي

تحدث لطخات ذهبية شاحبة . كان جميع أولئك الرجال في معاطفهم يبدون وهم يحومون ببطء على بضع بوصات من الأرض ، وبين الفينة والفينة ، كانت الريح تدفع إلينا أشباحاً ترتعش كأنها الماء ، وكانت الوجوه تنطفيء خفقة وتصبح طبشورية .

ذلك كان يوم الأحد ، كان الجميع محشوراً بين السياج ومداخل المقاصير ، يحدق موجات صغيرة ، ليلعب فيضيع في ألف مجرى خلف فندق شركة الزاسباطنطيك . وما أكثر الأولاد ! أولاد في العربات ، وبين الأذرع ، والأيدي ، وهم يسيرون على ثلاث ، أمام ذويهم ، بهيئة متكلفة الوقار ; كنت قد رأيت جميع هذه الوجوه ، قبل ذلك بساعات ، في الظاهر من الانتصار ، في شباب صباح أحد . أما الآن ، فهي تسيل غماً ، ولا تعبّر بعدُ إلا عن السكون والارتخاء ، وعن لون من العناد .

قليل من الحركة : صحيح أن ثمة بعدُ تلويحات بالقبعات ، ولكنها خالية من عظمة الصباح ومن مرحه الصبي . كان الناس يتسللون القهقرى قليلاً ، مرفوعي الرأس ، بعيدي النظر ، متروكين للريح التي كانت تدفعهم نافخة معاطفهم . وتنبعث بين الفينة والفينة ضحكة جافة ، سرعان ما تختنق ، صيحة أم ، جاك ، جاك ، هل تريد أن ، ثم يعود الصمت . رائحة تبغ أشقر خفيفة ، إنهم المشتغلون الذين يدخنون سلامبو ، عائلة ، تكاير يوم الأحد . وقد حسبتني أقرأ ، على بعض الوجوه الأكثر استسلاماً ، شيئاً من الأسى ، ولكن لا ، إن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا حزانى ولا مرحين : وإنما كانوا يستريحون . وكانت عيونهم الثابتة والملوحة على صفحتها تعكس البحر والسماء ، في غير ما حركة ، إنهم سيعودون عما قليل إلى بيوتهم ، فيشربون فنجان شاي ، مع أفراد العائلة ، على طاولة غرفة الطعام . أما الآن ، فإنهم كانوا يريدون أن يحيوا بأقل كلفة ممكنة ، وأن يقتصدوا الحركات ، والكلمات ، والأفكار ، أن يسيروا متشدّدين على ظهورهم : إنهم لم يكونوا يملكون إلا يوماً واحداً ليمحوا تجعّداتهم ، ومظهر أيديهم الملطخة ، والفتيات

المرأة التي علّقها جهد الأسبوع . يوم واحد . كانوا يشعرون بالدقائق تسيل من بين أصابعهم ، أتراهم سيتاح لهم الوقت لكي يجمعوا من الشباب ما فيه الكفاية حتى ينطلقوا من جديد صباح الاثنين ؟ كانوا يتلهفون عليه ولكنهم لأن هواء البحر يمحي : أن أنفاسهم وحدها ، أنفاسهم المتقطعة العميقة الشبيهة بأنفاس الشمس ، كانت ما تزال شاهدة على حياتهم . وكنت أمشي خطى قليلة ، ولم أكن أدري ما الذي أفعله بحسي الفاحي الرطب ، وسط هذا الجمع الفاجع الذي كان يستريح .

وكان لون البحر قد أصبح بلون الحجر الأرلوازي . وكانت ترتفع ببطء ، وستكون عالية عند هبوط الليل ، وستكون منتزهاً ، لا نهائياً ، هذه الليلة أقفر من جادة فكتور – لوار . وسوف تلمع في القمة ، وإلى اليسار ، نارٌ حمراء في الممر الضيق .

كانت الشمس تهبط رويداً على البحر ، وكانت تحرق بنورها نافذة مقصورة نورماندية ، ورفعت امرأة مبهورة يدها إلى عينيها بحركة متعبة وحركت رأسها وقالت بضحكة مترددة :

– غاستون ، إن هذا يبهرني .

فقال زوجها : – هه ؟ أنها شمس صغيرة لطيفة ، قد لا تدفيء . ولكنها مع ذلك تبعث على اللذة .

وقالت وهي تلتفت إلى البحر :

– كنت أحسب أنا سنراها .

فقال الرجل : – لا حظ لنا بذلك ، فهي في الشمس .

ولابدّ أنهما كانا يتكلمان عن جزيرة « كابيوث » التي كان المفروض أن يُرى رأسها الجنوبي بين المجرة ورصيف المرفأ .

ورقّ الضوء . وكان شيء ما ، في هذه الساعة القلقة ، يؤذن بالمساء . لقد أصبح لهذا الحد ماضٍ . وكانت المقاصير والدرابزون الرملي تبدو وكأنها ذكريات قريبة العهد جداً . وكانت الوجوه تفقد فرادتها واحداً فواحداً ،

وأصبح عدد منها زرقاً تقريباً .

وكان ثمة امرأة حامل تستند الى شاب أشقر ذي هيئة وحشية . وقد قالت :

— هناك ، هناك ، انظر .

— ماذا ؟

— هناك ، هناك ، رمْح الله .

فهز كتفيه : لم يكن ثمة من رمْح . وكانت السماء قد اصبحت ثلجية تقريباً ، ووردية بعض الشيء ، في الأفق .

— لقد سمعتها . أصغ إليها ، إنها ترقرق .

وأجاب : — انما ذلك شيء قد عبر .

والتمع مصباح غاز . وظننت ان مُشعل المصابيح قد مر . ان الأولاد يترصدونه ، ذلك انه كان يعطي اشارة العودة . ولكن لم يكن ذلك إلا المكانة الشمس الأخيرة . صحيح ان السماء كانت ما تزال مشرقة ، ولكن الارض كانت تسبح في الظل . وكان الجمع يتبدد ، وكانت زمجرة البحر تُسمع بوضوح . ورفعت امرأة شابة ، مستندة بكلتا يديها الى الدرابزون ، وجهها الأزرق الذي خططته بالأسود حُمرة الشفتين ، رفعت وجهها نحو السماء ، وتساءلت لحظة عما اذا كنت لن أحب الناس ، ولكنه كان ، بعد كل حساب ، أحدهم هم ، لا أحدي .

وكان النور الاول الذي أضاء ، هو نور منارة كايبوت ، وتوقف صبي صغير بقربي وتمتم بلهجة انتشاء : « اوه ! المنارة ! »

وشعرت بقلبي إذ ذاك مليئاً بإحساس مغامرة عميق .

* * *

وانعطفت الى اليسار ، ومن شارع « فواليه » بلغت « لوبولي براد » . كان الستار الحديدي مسدلاً على الواجهات . وكان شارع « تورنوبريد » مشرقاً ، ولكنه مقفر ، وهو قد فقد مجده الصباحي العابر . فليس ثمة ما

عبيرُه بدءاً في هذه الساعة ، عن الشوارع المجاورة ، وهبّت ريحٌ قوية عما فيه الكفاية . وسمعت قبعة الأسقف المصفّحة تصر .

انا وحيد ، وقد عاد معظم الناس الى بيوتهم ، انهم يقرأون صحيفة المساء وهم يستمعون الى الراديو . وقد خلّف الأحد الذي انتهى مذاق رماد عندهم ، وبدأ فكرهم يلتفت الى يوم الاثنين . ولكن ليس لي انا احدٌ او اثنين : هنالك ايام تتدافع في غير انتظام ، ثم فجأة ، التماعات كهذه الالتماعة .

لم يتغير شيء ، ومع ذلك فكل شيء موجود على نحو آخر . انني لا استطيع ان أصوّر ، إنّ الامر ، « كالغثيان » ، وهو مع ذلك عكسه تماماً : إن مغامرة تحدث لي اخيراً ، وحين أتساءل ، أرى « انه تحدث لي اني أنا وأني هنا » انا الذي « اشقّ الليل » وأني اسعد كبطل رواية .

إن شيئاً ما سيقع : ففي ظلام شارع « باس – دو – في » ينتظرني شيء ما ، وهنالك ، عند زاوية هذا الشارع الهادىء ستبدأ حياتي . إني أراني أتقدم ، بإحساس من حتمية القدر . ان في زاوية الشارع لوحاً من النصب الابيض ؛ وقد كان يبدو ، من بعيد ، اسود تماماً ، وهو لدى كل خطوة ، يميل اكثر فأكثر الى البياض . ان هذا الجسم المظلم الذي يتضح رويداً رويداً يخلق لديّ انطباعاً خارقاً : فحين يصبح مضيئاً كل الاضاءة ، ابيض تماماً ، سأتوقف بقربه تماماً ، وآنذاك تبدأ المغامرة . انها قريبة جداً الآن ، هذه المنارة البيضاء التي تخرج من الظلام ، حتى أني أذوب بالخوف : وفكرت لحظة في ان أعود ادراجي . ولكن ليس ممكناً إحباط السحر . وأتقدم ، وأمدّ يدي ، وألمس النصب .

هو ذا شارع « باس – دو – في » وكتلة كنيسة سانت سيسيل الهائلة القابعة في الظل والتي يلتمع زجاج واجهاتها . وتصرّ القبعة المصفحة . لست ادرى ان كان العالم هو الذي ضيّق حدوده فجأة او إن كنت انا الذي يضع بين الأصوات والأشكال وحدة قوية الى هذا الحد : إنني لا استطيع حتى ان أتصوّر ان شيئاً مما يحيط بي هو غير ما هو .

وأتوقف لحظة، وأنتظر، وأحسّ بأن قلبي يخفق، وأقلّب بعينيّ الساحة المقفرة، فلا أرى شيئاً. لقد هبّت ريح قوية بما فيه الكفاية. ولقد أخطأت، ان شارع «باس - دو - في» لم يكن الا محطة: و «الشيء» انما ينتظرني في جوف ساحة «دوكوتون».

لست مستعجلاً لاستئناف السير. وخيّل اليّ انّي لمست ذروة سعادتي. ما الذي لم ابذله في مرسيليا وشنغهاي ومكناس لأربح احساساً مليئاً الى هذا الحد، كهذا الاحساس؟ اني اليوم لا انتظر بعدُ شيئاً، وانا اعود الى بيتي، في نهاية احد فارغ: انه هنا

وأمضي من جديد. وتحمل لي الريح صرخة صفارة. اني وحيد، ولكني أسير كفرقة تهبط نحو مدينة. ان هنالك اللحظة سفناً تصدح بالموسيقى في البحر، وأنواراً تضاء في جميع مدن اوروبا، وشيوعيين ونازيين يطلقون النار في شوارع برلين، وعاطلين عن العمل يضربون ارض نيويورك المبلطة، ونساءً بالقرب من مراياهن، في غرفة دافئة، يضعن «الرمل» على جفونهن. وانا هنا، في هذا الشارع المقفر، وكل طلقة نار تنطلق من نافذة في «نوكولن»، وكل حشرجة دامية تصعد من جرحى يُحملون، وكل حركة دقيقة تأتيها نساء يتبرّجن، تجيب على كل خطوة من خطواتي، وعلى كل خفقة من خفقات قلبي

وامام زقاق «جيليه» لم اعرف بعدُ ما ينبغي لي ان افعل. أتراهم لا ينتظرونني في جوف الزقاق؟ ولكن هنالك ايضاً، في ساحة «دوكوتون»، بأقصى شارع تورنوبريد، شيءٌ ما يحتاج اليّ ليولد. اني مثقل ضيقاً: فان ادنى حركة تلزمني. ولا استطيع ان احدس ما يريدونه مني. ولا بدّ مع ذلك من الاختيار: اني اضحّي بزقاق «جيليه»، وسأجهل دائماً ما كان يخبئه لي.

ساحة «دوكوتون» خالية. أتراني قد اخطأت؟ خيّل اليّ اني لن احتمل ذلك. أصحيح انه لن يحدث شيء؟ اني اقترب من اضواء مقهى «مابلي». اني مضطرب، فاقد الاتجاه، ولا ادري ان كنت سأدخل: اني ألقي نظرة

عبر الواجهات الكبيرة المبخّرة .

القاعة غاصّة ، والهواء ازرق بسبب دخان السجائر والبخار الذي تصعده الثياب الرطبة . امينة الصندوق على صندوقها ، انني اعرفها جيداً : انها حمراء الشعر مثلي ، وفي بطنها مرض . انها تعفّن قليلاً قليلاً تحت تنّورتها بسمنة كئيبة ، شبيهة برائحة التفسّخ التي تصعدها احياناً الاجسام وهي في حالة التحلّل . وتسري في جسمي رعشة من الرأس حتى القدمين : انها ... انها هي التي تنتظرني . كانت هنالك ناتئة نصفها الأعلى الجامد فوق الصندوق ، وكانت تبتسم . ان شيئاً ما من جوف هذا المقهى يرتدّ الى خلف على لحظات هذا الأحد المتناثرة ، فيصهرها فيما بينها ، ويعطيها معنى : لقد عبرت هذا النهار كله لأصل الى هنا ، جبهتي ملتصقة بهذه الواجهة ، لأتأمل هذا الوجه الدقيق الذي يتفتح على ستار مخملي احمر . لقد توقف كل شيء ، لقد توقفت حياتي : ان هذه الواجهة الكبيرة ، وهذا الهواء الثقيل ، الأزرق كأنه الماء ، وهذه النبتة السمينة في قعر الماء ، وانا نفسي ، اننا جميعاً نشكّل كلاً جامداً ممتلئاً : واني لسعيد .

وحين ألفيتني ثانيةً في جادة « لاروذوت » لم يكن باقياً لديّ بعدُ الاّ أسفٌ مرير . وكنت اقول : « شعور المغامرة ذاك ، ربما لم يكن ثمة شيء في العالم احرص عليه اكثر منه . ولكنه يجيء حين يشاء ، ويذهب بسرعة عجيبة ، وكم اجدني جافّاً حين يذهب ! ولكن أتراه يقوم بهذه الزيارات القصيرة الساخرة ليدلّل لي أني اضعت حياتي ؟ »

وخلفي ، في المدينة ، في الشوارع الكبيرة المستقيمة ، بأضواء مصابيحها الباردة ، كان حادث اجتماعي هائل يحتضر : انه نهاية الأحد .

الاثنين

كيف استطعت ان اكتب ، امس ، هذه العبارة الضخمة اللامعقولة :

كنت وحيداً ، ولكني كنت أسير كأنني أهبط الى مقبرة .

لا حاجة بي الى صنع العبارات . اني أكتب لأوضّح بعض الملابسات ، يجب الاحتراز من الأدب . ينبغي للمرء ان يكتب كما يقوده قلمه ، من غير ان يبحث عن الكلمات .

والحق ان ما يقرفني هو اني كنت مساء امس جزل الانشاء . حين كنت في العشرين من عمري ، كنت أثمل ، ثم اشرح اني رجل على شاكلة ديكارت ؛ وكنت أحس جيداً اني كنت انتفخ بطولة ، وكنت استسلم لذلك ، كان هذا يروق لي . غير اني في اليوم التالي ، كان ينتابني مثل الاشمئزاز الذي احسه كما لو اني استيقظت في سرير مليء بالقيء . اني لا اتقيأ حين أثمل ، ولكن الأمر يعادل اكثر من ذلك . بالأمس لم يكن لي حتى عذر السُكر ، لقد تحمّست كالأبله . اني محتاج الى تنظيف نفسي بأفكار مجرّدة ، شفافة كالماء .

وشعور المغامرة ذاك ، غير صادر حتماً عن الاحداث : ولقد قام على ذلك الدليل . وانما هو صادر بالاحرى عن الطريقة التي بها تتسلسل اللحظات . ها هي القضية ، اني افكر بما يحدث : يشعر المرء فجأة بأن الزمن يجري ، وان كل لحظة تؤدي الى لحظة اخرى ، وهذه الى لاحقة ، وهكذا دواليك ، ان كل لحظة تتلاشى ، ولا جدوى من محاولة إمساكها الخ ، الخ ... واذ ذاك ، نعزو هذه الخاصّة للأحداث التي تبدو لنا « في » اللحظات ، اذ ما يخص الشكل ، نعزوه الى المضمون . وبالاجمال ، يتحدثون طويلاً عن جريان الزمن هذا العظيم ، ولكنه لا يُرى ابداً . اننا نرى امرأة ، فنفكر بأنها ستصبح عجوزاً ، غير اننا لا « نراها » تشيخ . ولكن يخيّل الينا احياناً اننا نراها تشيخ واننا نحسّنا نشيخ معها : ذلك هو شعور المغامرة .

ان هذا يُسمّى ، اذا لم أخطىء التذكر ، لاعكوسيّة الزمن . وشعور المغامرة يعادل بكل بساطة الشعور بلاعكوسية الزمن . ولكن لماذا لا نملكه دائماً ؟ هل مردّ ذلك ان الزمن ليس دائماً ممتنعاً عن القلب ؟ ان هنالك لحظات يُحسّ المرء فيها انه بوسعه ان يفعل ما يريده ان يذهب الى امام او يتراجع الى خلف ،

وأن هذا لا أهمية له ، وهناك لحظات اخرى يقول المرء فيها ان الحلقات قد ضاقت ، وليست القضية ، في تلك الحالة ، ان يفوّت عليه الأمر ، لأنه لن يستطيع بعدُ ان يجده من جديد .

كانت آني تردّ إلى الزمن كلّ ما كان يستطيعه . فحين كانت في جيبوتي ، وكنت انا في عدن ، وحين كنت اقصدها لأربع وعشرين ساعة ، كانت تفتنّ في مضاعفة سوء التفهم بيننا ، حتى لا يبقى بعد حل ذهابي الا ستون دقيقة تماماً ستون دقيقة ، الوقت اللازم لإشعار المرء بأن الثواني تمرّ واحدة واحدة . وانا اذكر احدى تلك الأمسيات العظيمة . كان عليّ ان ارحل عند منتصف الليل ، وكنا قد قصدنا داراً للسينما في الهواء الطلق ، وكانت هي على مثل يأسي ، ولكنها كانت تمثّل اللعبة . وعند الساعة الحادية عشرة ، حين بدأ الفيلم الكبير ، تناولت يدي فشدّت عليها بين يديها ، من غير ان تنبس بكلمة . وأحسستني مغموراً بفرحة جافية ، فأدركت ، من غير ان انظر الى ساعتي ، انها كانت الساعة الحادية عشرة . ومنذ تلك اللحظة ، بدأنا نحسّ الدقائق تجري ، وكنا سنفترق في تلك المرة ، لمدة ثلاثة اشهر . وذات لحظة ، عُرضت على الشاشة صورة بيضاء تماماً ، فرقّ الظلام ، ورأيت انّ آني كانت تبكي ، ثم تركت يدي عند منتصف الليل ، بعد ان شدّتها بعنف ، ونهضت فمضيت من غير ان اقول لها كلمة واحدة . وكان ذلك عملاً موفقاً كل التوفيق .

الساعة السابعة مساء

يوم عمل . ولم يكن رديئاً جداً ، لقد كتبت ست صفحات ، في شيء من المتعة . لا سيما وانها كانت تأملات مجرّدة عن عهد بول الاول . ولقد بقيت ، بعد إدمان الأمس ، حزيناً طوال النهار . كان ينبغي الا استلب العون من قلبي ولكني كنت احسّني في متعة كبيرة وانا افكك نوابض الاوتوقراطية الروسية . غير ان رولبون هذا يضايقني . انه يبدو شديد الغموض في اصغر الامور .

ما الذي تراه استطاع ان يفعله في اوكرانيا بشهر آب عام ١٨٠٤ ؟ انه يتحدث عن رحلته بعبارات محجبة :

« ان الأجيال القادمة ستحكم ما اذا كانت جهودي ، التي لا يستطيع النجاح ان يكافئها ، لم تكن لتستحق خيراً من انكار وحشي وألوان من الإذلال كان لا بد من تحملها بصمت ، حين كنت أمسك في صدري ما أخرس به الهازئين وألقيهم في الخوف » .

لقد انخدعت به مرة : كان يبدو مليئاً بالتكتمات المدعية حول موضوع رحلة قصيرة كان قد قام بها الى بوفيل عام ١٧٩٠ . ولقد أضعت شهراً في التحقق من اقواله وحركاته . وتبيّن في آخر المطاف انه قد جعل ابنة احد مزارعيه تحمل منه . أليس هو بكل بساطة ممثلاً هزلياً دجالاً ؟

اني أحسّني مليئةً بالحقد على هذا المختال الصغير الكذاب ، وربما كان ذلك حنقاً مصحوباً بالغضب : كان يسرني ان يكذب على الآخرين ، ولكني كنت اود لو انه استثناني من ذلك . كنت احسب اننا سنتفاهم من فوق رؤوس جميع هؤلاء الاموات ، وان الأمر سينتهي به الى كشف الحقيقة لي !! ولكنه لم يقل شيئاً ، لم يقل شيئاً على الإطلاق ، لم يقل اكثر مما قال للاسكندر او لويس الثامن عشر الذي كان يخدعه . يهمني كثيراً ان يكون رولبون شخصاً ممتازاً . انه خبيث بلا شك . فمن ليس كذلك ؟ ولكن أكان خبيثاً كبيراً ام صغيراً ؟ اني لا احترم التحريات التاريخية بما فيه الكفاية لكي اضيع وقتي مع انسان ميت لو كان على قيد الحياة لما تنازلت للمس يده . ما الذي اعرفه عنه ؟ ليس بالامكان ان يحلم المرء بحياة اجمل من حياته ؛ ولكن أهو الذي صنعها ؟ ليت رسائله لم تكن مدّعية الى هذا الحد ... آه ! كان ينبغي معرفة نظرته ، فربما كانت له طريقة ساحرة لإمالة رأسه على كتفه ، او لتحريك سبابته الطويلة ، في هيئة خبيثة ، بجانب انفه ، او لإظهار عنف موجز بين كياستين مهذبتين ، ثم ما يلبث ان يخنق ذلك العنف . ولكنه قد مات : ولم يبق منه الا « دراسة عن الستراتيجية » و « تأملات حول الفضيلة » .

لئن أرعبت أعمى العناد ، المتحدث في تصوّره : انه فيما وراء سخريته اللاذعة التي سببت كثيراً من الضحايا ، البالغ البسيط ، صالح تقريباً . انه يفكر قليلاً ، ولكنه أوتي كياسة عميقة تمكنه في كل مناسبة من فعل ما ينبغي فعله بالضبط . ان حبه طاهر للغاية ، سخي الى السخاء ، في مثل اخلاص حبه للفضيلة . وهو بعد ان يخون اصدقاءه والمحسن اليه ، يرتد الى الأحداث بعد ليستخرج منها العبرة الأخلاقية . انه لم يفكر قط ان له ادنى حق على الآخرين ، وليس للآخرين ادنى حق عليه . فالهبات التي تمنحها إياه الحياة ، انما يعتبرها مجانية وغير مبررة . انه يتعلق بكل شيء تعلقاً شديداً ، ولكنه ينفصل عن كل شيء بسهولة . ورسائله وآثاره لم يكتبها هو نفسه قط : وانما كلف الكاتب العام بتأليفها .

ولكن لو كانت القضية ان ابلغ ما بلغته الآن ، لكان احرى بي ان اكتب رواية عن الركيز دورولبون .

الساعة الحادية عشرة ليلاً

تناولت العشاء في مطعم « رانديفو دي شامينو » . ولما كانت صاحبته موجودة ، فقد كان لا بد لي من مضاجعتها ، ولكن ذلك كان بدافع التأدب ، أما هي فتهتز قليلاً ، فهي مفرطة البياض ، ثم ان رائحتها تشبه رائحة الطفل الوليد . وقد كانت تشد رأسي الى صدرها في فيض من العاطفة المهووسة وهي تحسب انها تحسن صنعاً . اما انا ، فقد كنت ألمس فرجها بشرود تحت الغطاء ، ثم تخدرت ذراعي . وكنت افكر بالسيد دورولبون : ما الذي يمنعني ، بعد كل حساب ، من ان أكتب رواية طويلة عن حياته ؟ وتركت ذراعي تمر على خاصرة صاحبة المطعم ، فرأيت فجأة حديقة صغيرة ذات اشجار واطئة عريضة تتدلى منها اوراق ضخمة يغطيها الشعر . وكان ثمة نمل يعدو في كل مكان ، وحرابش وسوس . وكان ثمة ايضاً حيوانات افظع ، كانت اجسامها

مصنوعة* من قطعة خبز محمّص كتلك التي يوضع تحت الحمام ، وكانت تمشي جانباً بأرجل عقربية . وكانت الأوراق العريضة مسودّة لكثرة ما عليها من حشرات . ومن خلف شجر الصنّار . كانت فيلادا ! الحديقة العامة تشير بأصابعها ان فرجها . وقد صحت : «ان هذه الحديقة لتصعد رائحة ق(١) ».

قالت صاحبة المطعم :

— لم اكن اريد ان اوقظك ، ولكن كان لي تحت أليّ ثنية قاش ، ثم يجب عليّ أن أهبط الى تحت من اجل زبائن قطار باريس .

ثلاثاء الرفع

جاءنا موريس باريس ، كنا ثلاثاء خيرو . وكان في منتصف وجهه احدث ثقب . واقترب موريس باريس فقال لنا : «هذا حسن !» وأعطى كلاًّ منا باقة من البنفسج . وقال الجندي ذو الرأس المثقوب : «لا ادري اين اضعها» فقال له موريس باريس : «يجب ان تضعها وسط الثقب الذي في رأسك» . فأجاب الجندي : «بل سأضعها لك في استك» . وقلبنا موريس باريس ونزعنا عنه لباس عورته . وكان هذا اللباس ثوب كاردينال احمر . ورفعنا الثوب فأخذ موريس باريس يصيح : «انتبهوا ! ان لي سروالاً بلا ستر» ولكننا جلدناه حتى الدم ، ورسمنا على مؤخرته ، ببراعم البنفسج ، رأس ديروليد»(٢) .

اني منذ حين اتذكر احلامي اكثر مما ينبغي ، ولعل انه لا بد اني اتقلب كثيراً في اثناء نومي ، لانني اجد في كل صباح لحافي على الارض . ان اليوم هو ثلاثاء الرفع ، ولكن ذلك لا يعني شيئاً هاماً في برنامجي ، فانه لا يكاد يتذكر

---

(١) كلمة بذيئة من [illegible] : في لهجة [illegible] ، والمقصود منه [illegible] (المترجم)

(٢) شاعر وسياسي فرنسي (١٨٤٦ - ١٩١٤) رئيس جامعة الوطنيين الأحرار ومؤلف «أغاني الجندي» (المترجم)

في القبة كلها اكثر من مئة شخص .

وإذ كنت اهبط السلّم ، نادتني صاحبة الفندق :

— ان لك رسالة .

رسالة : كانت آخر رسالة تلقيتها ، من أمين مخطوطات مكتبة روان في شهر أيار الماضي . وقادتني صاحبة الفندق الى مكتبها ، وبسطت لي ظرفاً طويلاً أصفر منتفخاً ، انها رسالة من آني . ها هي خمسة اعوام تنقضي من غير ان القى شيئاً منها . وكانت الرسالة قد ذهبت تبحث عني في منزلي بباريس ، وهي تحمل طابع اول شباط . وخرجت وانا امسك المغلّف بين اصابعي ، ولا اجرؤ على فضّه . ان آني لم تغيّر ورق رسائلها ، واني اتساءل عما اذا كانت لا تزال تشتريه من مكتبة بيكاديللي الصغيرة . وأعتقد انها قد حافظت ايضاً على تسريحة شعرها ، وعلى خصلاتها الطويلة الثقيلة التي لم تكن تريد قصّها ، ولا بد انها تصارع في صبر امام المرايا لتنقذ وجهها : ليس ذلك بداعي التأنق ولا خوفاً من الشيخوخة ، وانما هي تريد ان تبقى كما هي ، كما هي تماماً . ولعل هذا هو ما كنت اوثره فيها ، هذه الأمانة القوية القاسية لأدنى ملمح في وجهها .

وكانت حروف العنوان العملاقة المكتوبة بالحبر البنفسجي (انها لم تغير حبرها كذلك) ما تزال تلمع قليلاً .

« السيد انطوان روكنتان » .

كم احب ان اقرأ اسمي على هذه المغلفات ! فلقد عثرتُ من جديد على احدى تلك البسمات وسط الضباب ، وتمثلت عينيها ، ورأسها المائل : كانت تجيء ، اذ اكون جالساً ، فتتربع امامي وهي تبتسم . وكانت تشرف علي بقامتها ، وتمسكني من كتفي وتهزّني بذراعين ممدودتين .

كان المغلّف ثقيلاً ، فلا بد انه كان يحتوي على ست صفحات على الأقل . وكانت اصابع بوابة منزلي القديم تعلو خطّها الذبابي على تلك الكتابة الجميلة :

« فندق بريتانيا — بوفيل »

ولم تكن هذه الأحرف الصغيرة لتمنع .

وحين فضضت الرسالة ، أحسستني ، من زوال الوهم ، أصغر ستة أعوام :

« لست أدري كيف تصنع آني لتفتح مغلفاتها على هذا النحو : فليس في داخلها شيء أبداً » .

هذه العبارة ، قلتها مئة مرة في ربيع ١٩٢٤ وأنا أجهد ، كاليوم ، لأستخرج من بطانة المغلف قصاصة ورق مربعة . ان البطانة روعة : خضراء معتمة مع نجوم ذهبية ، فكأنها قماشة ثقيلة منشّاة . فهي وحدها تزن ثلاثة ارباع المغلف .

وقد كتبت آني بالرصاص :

« سأمرّ على باريس بعد ايام ، تعال لرؤيتي في فندق اسبانيا يوم ٢٠ شباط . ارجوك . « يجب » ان أراك . آني »

وكنت في مكناس وطنجة ، حين اعود الى غرفتي مساء ، أجد أحياناً كلمة على سريري : « أريد ان أراك على الفور » . فكنت أسرع فتفتح لي آني ، مرفوعة الحاجبين ، في هيئة دهشة : ليس لديها بعدُ ما تقوله لي ؛ وقد كانت تلومني قليلاً لأني قد جئت . سوف أذهب ، فلعلها سترفض ان تستقبلني ، او ربما قالوا لي في مكتب الفندق : « لم ينزل عندنا احد بهذا الاسم » . ولا أعتقد انها ستعمل ذلك . غير انها قد تكتب لي ، بعد ثمانية ايام ، أنها غيّرت رأيها وأن اللقاء سيكون في مرة أخرى .

إن الناس في اعمالهم ، وانه لثلاثاء مرفع مسطّح ، هــذا الذي يؤذن . إن رائحة الخشب الرطب تنبعث من شارع « الموتيليه » ، كما تحدث حين يوشك المطر ان يهطل . اني لا أحب هذه النهارات العجيبة : فان دور السينما تقــدم حفلات صباحية ، وأولاد المدارس في عطلة ، وفي الشارع هيئة عيد غامضة لا تني تجتذب الانتباه ، ثم تتلاشى لمجرد ان ينتبه لها المرء .

لا شك في أني سأرى آني من جديد ، ولكني لا استطيع القول ان هــذه الفكرة تفرحني . فأنا منذ تلقيت رسالتها ، أحسستني عاطلاً عن العمل . ومن حسن الحظ ان الوقت ظهر ، لست جائعاً ، ولكني سآكل ، لإزجاء الوقت .

وأدخل مطعم « كميل » ، في شارع « الاورلوجيه » .

إنه « علبة » محكمة الإغلاق ، وهم يقدمون فيه الكريب والفاصولياء طوال الليل ، ويقصده الأشخاص لتناول العشاء بعد خروجهم من المسرح ، ويُرسل رقباء المدينة إليه السياح الذين يصلون ليلاً وهم جائعون . وفي المطعم ثماني طاولات من الرخام ، ومقعد جلدي يمتد على طول الجدران . وهناك مرآتان أكلتهما لطخات حمراء . وواجهتا النافذتين والباب هي من الزجاج المحبَّر ، ويقوم الشرب والصندوق في تجويفة من الجدار . وهناك أيضاً حجرة جانبية لم أدخلها قط ، وهي مخصصة للأزواج .

– أعطني بيضاً مقلياً بلحم الخنزير .

إن الخادم ، وهي فتاة ضخمة ذات خدين أحمرين ، لا تستطيع الامتناع عن الضحك حين تتحدث الى رجل .

– ليس لي الحق . هل تريد بيضاً مقلياً بالبطاطا ؟ ان لحم الخنزير محجوز عليه ، ولا يستطيع ان يقصه إلا صاحب المطعم .

طلبت صحناً من الفاصولياء . إن صاحب المطعم يدعى كميل وهو رجل قاس .

ومضت الخادم . انني وحيد في هذه الحجرة القديمة المعتمة . وفي محفظتي رسالة من آني ، يمنعني خجل مزيف من ان أعيد قراءتها . وأحاول ان أتذكر العبارات واحدة واحدة .

« عزيزي انطوان » .

وابتسم : لا ، بكل تأكيد ، إن آني بكل تأكيد لم تكتب « عزيزي انطوان » منذ ستة اعوام — وكنا قد افترقنا باتفاق مشترك — قررت ان تسافر الى طوكيو ، وكتبت لها بضع كلمات . ولم يكن بوسعي بعد ان أدعوها « حبيبتي الغالية » فبدأت بكل براءة « عزيزتي آني » فأجابتني :

– « اني معجبة بسهولتك في الكلام ، انا لم أكن ولست قط عزيزتك آني ، وأرجوك ان تعتقد انت انك لست عزيزي انطوان . فاذا كنت لا تعرف ان

تدعوني ، فلا تدعني ، هذا أفضل » .

وأتناول رسائلها من معطفي . إنها لم تكتب « عزيزي انطوان » . وكذلك، فليس في أسفل الرسالة عبارة التأدب : « حب إلى أن أراك ، آني » . لا شيء مما يشفي الحنين من مواطنها ، ولا أستطيع أن أشكو من ذلك : فأني أعرف هنا أن شغفها لما هو « كامل » . كانت تريد دائماً أن تحقق «لحظات كاملة» ، فإذا لم يكن الظرف «ملائماً» ، كفت عن أن تهتم بشيء ، وكانت الحياة تختفي من عينيها ، وكانت تعيش بكسل ، وعليها هيئة فتاة كبيرة في سن العقوق ، أو إنها كانت تخلق أسباب النزاع معي :

— إنك تتحدث كالبورجوازي ، بكل أبهة ، وتسعل في منديلك بكل رضى ،

وكان ينبغي ألا أجيب ، كان ينبغي أن أنتظر : وقد كانت ترتعش فجأة ، لدى إشارة لم أدركها ، وتقسو ملامحها المسترخية الجميلة وتبدأ عملها النملي . كان لها سحر جذاب لا يقهر ؛ وكانت تتمتم مغنية بين أسنانها وهي تنظر في كل ناحية ، ثم كانت تنتصب باسمة ، فتقبل علي ، تهزني من كتفي ، وتظهر وكأنها تعطي أوامرها إلى كل الأشياء التي تحيط بها . وكانت تشرح لي ، بصوت منخفض وسريع ، ما كانت تنتظره مني .

« اسمع ، إنك راغب في أن تبذل جهداً ، أليس كذلك ؟ لقد كنت شديد الحماقة ، في المرة الماضية . أترى كم يمكن هذه اللحظة أن تكون جميلة ؟ انظر إلى السماء ، انظر إلى لون الشمس على السجادة . كل ما فعلته أني ارتديت ثوبي الأخضر ، ولم أصبغ شفتي بعد بالحمرة ، إني ممتقعة جداً . ارجع إلى الخلف ، واذهب فاجلس في الظل ؛ هل أنت فاهم ما ينبغي لك أن تفعل ؟ حسناً ، فلنقل ؟ ما أحمقك ! حدثني » .

وكنت أحس أن نجاح العملية كان بين يدي : كان للحظة معنى غامض كان يجب توضيحه وإنجازه ، يجب أن أعمل بعض الحركات ، وتُقال بعض الكلمات ؛ وكنت مرهقاً تحت عبء مسؤوليتي ؛ كنت أوسع عيني ولا أرى شيئاً ، وكنت أتخبط وسط طقوس كانت آني تخترعها لتوها وكنت أمزقها

بذراعيّ الكبيرتين كأنها خيوط عنكبوت. وفي تلك اللحظات، كانت تحدق فيّ بكل تأكيد، فأذهب لرؤيتها، التي أحترمها وما زلت أحبها من كل قلبي. وآمل لو ان احداً غيرها قد أوتي حظاً كبيراً وبراعة اكبر في لعبة اللحظات الكاملة.

كانت تقول: «ان شعرك القطيع يفسد كل شيء. فما تريد ان يُصنع برجل احمر الشعر؟»

وكانت تبتسم. وقد فقدتُ اولاً ذكرى عينيها، ثم ذكرى جسمها الطويل واحتفظت اطول مدة ممكنة ببسمتها، ثم فقدتها ايضاً، منذ ثلاثة اعوام. ولكنها عادت الساعة فجأة، حين كنت اتناول الرسالة من يد صاحبة الفندق، وقد حسبتني أرى أمي وهي تبتسم. وما زلت أحاول ان أتذكرها: إن بي حاجةً لأن أحس كل الحنان الذي توحيه لي أمي، وهو هنا، هذا الحنان، انه قريب جداً، وهو لا يطلب إلا ان يولد. ولكنّ البسمة لا تعود أبداً: انتهى الأمر. وأنا أبقى فارغاً جافاً.

ودخل رجل يرتعش برداً:

— سادتي، سيداتي، مساء الخير.

وجلس من غير ان ينزع معطفه المخضر، وأخذ يفرك يديه الطويلتين فيما بينهما وهو يشبك اصابعه.

— ماذا أقدّم لك؟

فانتفض، وفي عينيه القلق:

— ايه؟ اعطني قدح «بير» بالماء.

فلم تتحرك الخادم. وكان وجهها في المرآة، يبدو وكأنه نائم. صحيح ان عينيها مفتوحتان، ولكنهما ليستا إلا شقّين. انها هكذا، فهي لا تستعجل في خدمة الزبائن، وهي تأخذ دائماً لحظةً لتحلم بطلباتهم. ولا بد انها تفكر بالزجاجة التي ستأخذها من فوق المشرب، وبرقعة الورق البيضاء وعليها حروف حمراء، وبالمشروب الكثيف الأسود الذي ستصبّه: فذلك شبه بما

لو كانت تشرب هي نفسها.

وأذكر رسالة آني في محفظتي: لقد أعطتني ما كانت تستطيعه، التي لا أستطيع أن أرتد إلى المرأة التي أخذتها بيديها وطوتها ووضعتها في الظرف. ولكن هل من الممكن التفكير بأحد في صيغة الماضي؟ إننا طوال تبادلنا الحب لم نسمح لأدنى لحظة من لحظاتنا، ولا لأيسر همومنا أن تنفصل عنا وتظل في الخلف: الأصوات، والروائح، وألوان النهار، وحتى الأفكار التي لم نتصارح بها، كنا نحمل كل شيء، وكان كل شيء يبقى حياً متيقظاً: ونحن لم نكفّ عن التمتع بها وعن التألم منها في الحاضر. يحتوي في ذلك كل ذكرى، وحب عنيف لا يلين، حبٌّ بلا ظلال، ولا تراجع، ولا ملجأ. ثلاثة أعوام حاضرة معاً. من أجل هذا افترقنا: فإننا فقدنا القوة على تحمّل ذلك العبء. ثم فجأة، حين تركتني آني، انهارت الأعوام الثلاثة مرةً واحدة، ودفعة واحدة، في الماضي. ولم يحدث حتى أن تألمت. وكنت أحسني فارغاً. ثم عاد الزمن يجري، وكبُر الفراغ. وبعد ذلك، في سايغون، حيث عزمت على العودة إلى فرنسا، تلاشى كل ما كان ما يزال باقياً — من الوجوه الأجنبية والأمكنة والأرصفة على شواطىء الأنهار. وهكذا، ليس ماضيّ بعد إلا ثقباً هائلاً. أما حاضري، فهو هذه الخادم ذات الثوب الأسود التي تحلم بالقرب من المشرب، وهذا الرجل القصير. إن كل ما أعرفه من حياتي، يخيّل إليّ أني تعلمته في الكتب. إن قصور بنارس، ومصطبة الملك الأبرص، ومعابد جاوة بسلالمها الكبيرة المحطمة، انعكست ذات لحظة في عيني، ولكنها بقيت هناك، في أماكنها. والترام الذي يمر بالقرب من فندق برنتانيا لا يحمل مساءً على زجاج نوافذه انعكاس لافتة النيون، إنه يلتهب لحظة ويبتعد بزجاج أسود.

وهذا الرجل لا يكف عن النظر إليّ: إنه يضجرني. إنه يتظاهر بالأهمية المناسبة لقامته. وتعزم الخادم أمراً على خدمته. وترفع بكسل ذراعها الكبيرة السوداء فتتناول الزجاجة وتحملها مع قدح.

— تفضل يا سيدي .

فقال بتلطف : — السيد أشيل .

وصمتُّ من غير أن أجيب ، وفجأة يسحب عقب إصبعه من الفم ويضع كلتا يديه مبسوطتين على الطاولة . وكان قد ألقى برأسه إلى الخلف ، وأخذت عيناه تبرقان . وقال بصوت بارد :

— والفتاة المسكينة ؟

وانتفض الخادم ، وانتفضت أنا أيضاً : إن لــه تعبيراً غير قابل للتعريف ، ربما كان دهشة ، كما لو أن آخر قد تكلم . إننا ، نحن الثلاثة ، منزعجون .

وكانت الخادم هي أول من تنبه : إنها لا تملك خيالاً . وقد حدجت السيد أشيل في فضول : إنها تعرف جيداً أنه تكفيها يدٌ واحدة لتنتزعه من مكانه وتلقي به خارجاً .

— ولماذا أكون ، يا ترى ، فتاة مسكينة ؟

فتردد ونظر إليها مذعوراً ثم ضحك . وتجعد وجهه بألف ثنية ، وقام بحركات خفيفة من قبضته :

— لقد أزعجها ذلك . ولكن الناس يقولون هــكذا هكذا . يقولون : فتاة مسكينة . من غير قصد .

ولكنها أولته ظهرها ومضت إلى خلف المشرب : لقــد جُرحت حقاً . وضحك مرة أخرى :

— ها ! ها ! لم أكن أقدّر ذلك ؟ لقد غضبتْ ، لقد غضبت !

قال ذلك وهو يتوجّه إليّ .

ولويت رأسي : ويرفع قدحه قليلاً ، ولكنه لا يفكر بأن يشرب : إنه يطرف بعينيه بهيئة مأخوذة وخائفة ، فكأنه يجهد في أن يتذكر شيئاً . وكانت الخادم قد جلست إلى الصندوق ، وتناولت الصوف وعاد كل شيء إلى الصمت ، ولكنه لم يكن بعدُ الصمت نفسه . هذا هو المطر : إنه يصفق الزجاج المحجر صفقاً خفيفاً ؛ ولئن كان ما يزال في الشارع صبية متنكرون ، فلا شك في

انه سيجعل أقنعتهم الكرتونية طرية ملطخة .

وأضاءت الخادم المصابيح : صحيح ان الساعة لم تكد تجاوز الثانية ، ولكن السماء سوداء تماماً ، وهي لا ترى رؤية كافية تمكنها من ان تخيط . ضوء رقيق ، إن الناس في البيوت . ولا شك في انهم هم ايضاً قد أضاءوا ، انهم يقرأون ، وينظرون الى السماء من النافذة . ان الامر ، بالنسبة إليهم ، شيء آخر . لقد شاخوا بطريقة أخرى ، انهم يعيشون وسط الهبات والهدايا ، وكل قطعة من أثاثهم تذكار . ساعات ، اوسمة ، صور ، أصداف ، مُظلات ورق ، حواجز خشبية ، شالات ، ان لهم خزائن ملأى بالزجاجات والأقمشة والثياب القديمة والصحف . لقد احتفظوا بكل شيء . ان الماضي يفوح من جميع الأماكن .

فأين تراني سأحتفظ بماضيّ ؟ ان المرء لا يضع ماضيه في جيبه ، وربما ينبغي ان يكون له بيت ليضعه فيه . إنني لا أملك غير جسمي ، ولا يستطيع رجلٌ وحيد ، بنفسه وحده ، ان يوقف التذكريات ، فهي تمرّ به عرضاً . ولا ينبغي لي ان أتذكر : فأنا لم أرد إلا ان أكون حراً .

وتململ الرجل القصير وتنهد ، وقد تراكم في معطفه ، ولكنه كان ينتصب بين الفينة والفينة ويتخذ مظهر التعالي . هو ايضاً ، ليس له ماضٍ . واذا بحثنا جيداً ، فسوف نجد بلا شك ، لدى أقرباء كثيراً من معاشرته ، صورة تمثله في عرس ، وهو يضع باقة مكسورة ، ويرتدي قميصاً ذا صدرة ، وقد نبت له شارب شاب قاسٍ . أما الآن ، فأعتقد انه لم يبق فيه حتى هذا .

ها هو ذا ما يزال ينظر إليّ ، وهو سيحدثني هذه المرة ، فأحسّني متصلاً . ليس ما بيننا ود ؟ كل ما هنالك اننا متشابهان ، انه وحيد مثلي . ولكنه أشد مني إخلالاً في الوحدة . ولا بدّ انه ينتظر ، غثيانه ، او شيئاً من هذا القبيل . وإذن ، فان هنالك الآن أشخاصاً يعرفونني ، ويفكرون ، بعد ان يحدجوني : « ان هذا شيء ، حسناً ؟ ما الذي يريده ؟ لا بدّ انه يعرف ان احداً لا يستطيع ان يصنع شيئاً للآخر . ان العائلات قائمة في بيوتها ، وسط ذكرياتها . أما نحن ، فحطامان بلا ذاكرة . ولئن نهض فجأة ، ووجّه لي الكلام ، فسأثب في الهواء .

وانفتح الباب في صخب . انه الدكتور روجيه .

ــ مرحباً بالجميع .

ودخل شرساً ، شاكياً ، وساقاه الطويلتان تصطكّان قليلاً وتكادان لا تحملان قامته التي غالباً ما أراه يوم الأحد في مطعم فيرالييز ، ولكنه لا يعرفني . وهو في جسمه يشبه معلّمي جوالقيل القدامى : أذرع كالسيقان ، دورة الصدر تساوي مئة وعشرة ، وهم لا يتماسكون على اقدامهم وقوفاً .

ــ جان ، صغيرتي جان .

وتعلط حتى الشجب ليعلّق به قبعته اللبدية . وطوت الخادم شغلها وأقبلت بلا عجلة ، متماوجة ، لتستخرج الطبيب من معطفه .

ــ ماذا تأخذ ، يا دكتور ؟

فتأملها بجد . هو ذا ما أدعوه وجه رجل جميلاً . ان الحياة والمشاعر الضيقة قد استهلكته وحزّته . ولكن الطبيب قد فهم الحياة وهيمن على مشاعره وقال بصوت عميق :

ــ لا أدري على الاطلاق ما الذي أريده .

وتداعى لسقوط على مقعده قبالتي : ومسح جبينه ؛ إنه يحس الراحة والرضى اذ لا يكون واقفاً على ساقيه . وان عينيه لجفنان ؛ عيناه كبيرتان سوداوان ، متعجرفتان .

ــ سأطلب ... سأطلب ــ قدحاً من الكالفادوس (١) ، يا ابنتي .

وجعلت الخادم تتأمل هذه السحنة المتجدّدة القائلة ، من غير أن تأتي حركة انها عاقلة . ورفع الرجل القصير رأسه وهو يبتسم بسمة متحررة . وكان صحيحاً : ان هذا الانسان الضخم قد حرّرنا . لقد كان هنا شيء فظيع يوشك ان يأخذنا وتنفست بقوة : إننا الآن بشر تجاه بشر .

ــ متى يأتي عمري ؟

فانتفضت الخادم ومضت . وبسط هو ذراعيه الضخمتين وأخذ الطاولة

---

(١) عصير التفاح .

من حافتها . ان السيد أشيل فرحٌ غاية الفرح ، وقد كان يودّ جذب انتباه الطبيب . ولكنه عبثاً قد ارجع ساقيه وقفز على المقعد ، فهو من القماءة بحيث يحدث ضجيجاً .

وحملت الخادم الكالفادوس ، وبحركة من رأسها دلّت الطبيب على جاره ، وأدار الدكتور وجهه وقامته ببطء ؛ انه لا يستطيع ان يحرك رقبته ، وصاح :

— عجباً ! هذا انت أيها القذر ؟ ألم تمت ؟

وتوجّه الى الخادم :

— هل تقبلون تلك عندكم ؟

ونظر الى الرجل القصير بعينيه المتوحشتين ، نظرة مستقيمة تضع الأمور في نصابها . وتابع موضحاً :

— انه مجنون قديم .

ولم يبذل أي جهد ليُظهر انه يمزح . انه يظن ان المجنون القديم لن يغضب ، وانه سيبتسم . وهذا ما حدث : فقد ابتسم الآخر في بلاهة . مجنون قديم : انه يسترخي ، ويُحسّ محمياً من نفسه بالذات ، ولن يحدث له شيء اليوم . والأعجب من ذلك ، هو انني انا نفسي قد استعدت اطمئناني . مجنون قديم : هكذا كان اذن ، ولم يكن غير هذا .

وضحك الطبيب ، ورماني بنظرة واعدة متواطئة : لا شك في ان ذلك بسببي — ثم اني ارتدي قميصاً نظيفاً — انه يريد ان يشاركني مزاحه . ولم أجب على تمهيداته : واذ ذاك ، جرّب عليّ ، من غير ان يكفّ عن الضحك ، نار حدقتيه الهائلة . وجعلنا نتبادل النظر في صمت بضع لحظات ، كان يحدجني وهو يصطنع النظر الحسير ، كان يصنّفني . في فئة المجانين ؟ ام في فئة السوقة ؟

ومع ذلك ، فهو الذي صرف بصره : خَيْبٌ يسير امام شخص وحيد ، لا اهمية اجتماعية له ، وذلك امر لا يستحق التحدث عنه ، انه يُنسى على الفور ، ولفّ سيكارة واشعلها ، ثم ظلّ جامداً بعينين ثابتتين قاسيتين ، على غرار الشيوخ .

التجاعيد الجميلة ، انه يملكها جميعاً : خطوط الجبين المترفعة ، ارجل الأوز ، والثنيات المريرة لكل جهة من الفم ، بصرف النظر عن الحبال الصفراء التي تتدلى تحت ذقنه . هوذا رجل محظوظ : ان من يراه ، ولو من ابعد مكان ، يقول لنفسه انه لا بد ان يكون قد تألم ، وانه واحد من الذين عاشوا . والحق انه يستحق وجهه ، لانه لم يستخف لحظة بطريقة الحفاظ على ماضيه واستغلاله : كل ما هنالك انه حشاه ، واتخذ منه تجربة لاستهواء النساء والشبان .

ان السيد الشيل سعيد ، كما لا بد انه لم يكنه منذ وقت طويل . انه يتلاشى اعجاباً ، وهو يشرب قدحه من « البيرة » بجرعات صغيرة ينفخ لها خديه ، لقد عرف الطبيب حقاً كيف يأخذه ! ان الطبيب ليس هو الشخص الذي يسحره مجنون قديم الى درجة ان تحدث نوبته ، ان ما يحتاجونه ضربة ماهرة ويضع كلمات كأنها السوط . ان الطبيب تجربته ، فهو محترف للتجارب : ان الاطباء والكهنة والقضاة والضباط يعرفون الانسان كما لو انهم صنعوه .

احس الخجل من اجل السيد الشيل . اننا من طينة واحدة ، وينبغي لنا ان نتحد ضدهم . ولكنه تخلى عني وانحاز الى جانبهم : وهو يؤمن ايماناً مخلصاً بها ، « بالتجربة » ، لا بتجربته ، ولا بتجربتي ، وانما بتجربة الدكتور روجيه . كان السيد الشيل يشعر الساعة بأنه عجيب ، وكان لديه احساس بأنه وحيد ، اما الآن فهو يعلم ان ثمة آخرين في مثل وضعه ، آخرين كثيرين : فلقد التقى بهم الدكتور روجيه ، وسيكون بوسعه ان يروي للسيد الشيل قصة كل منهم ويقول له كيف انتهت . كل ما في الأمر ان السيد الشيل « حالة » تتلخص في سهولة ببضع افكار عامة .

كم اود ان اقول له انهم يخدعونه ، وانه لعبة بيد المهمّين . محترفو تجربة ؟ لقد قضوا حياتهم في الكسل المخدّر والسُبات ، ولقد تزوجوا على عجل ، بدافع من نفاد الصبر ، وصنعوا اطفالاً بالاتفاق . لقد التقوا الناس الآخرين في المقاهي ، وفي حفلات الأعراس ، وفي حفلات الدفن . ومن

الهيئة والهيئة ، كان بأعلهم الاندفاع ، فيتخبّطون من غير ان يفهموا ما يحدث لهم . ان كل ما حدث حولهم ابتدأ وانتهى خارج نطاق نظرهم . اشكالٌ طويلة غامضة ، وأحداثٌ آتية من بعيد قد لامستهم بسرعة ، وحين ارادوا ان ينظروا ، كان كل شيء قد انتهى ، وبعد ذلك ، حين بلغوا الاربعين ، عمّدوا صنوف عنادهم الصغيرة وضعة امثال باسم تجربة ، وبدأوا يجعلون انفسهم آلات توزيع اوتوماتيكية : درهمان في الشق الأيسر ، وها هي حكايات مغلفة بورق فضي ، ودرهمان في الشق الأيمن ، وها هي نصائح ثمينة تلتصق بالأسنان كالكاراميل اللاذع . وسيكون بوسعي انا ايضاً ، في هذا الصدد ، ان أدعى للدخول الى بيوت الناس ، حيث يقولون فيما بينهم انني رحّالة كبير الرأي ، « الخالد » . اجل ، ان المسنين يخرّون راكعين ، وتستعمل القابلات القانونيات الهندوكيات ، عوضاً عن نبات الارغوتين ، الزجاج المسحوق في روث البقر ، وفي بورنيو ، حين تصاب الفتاة بالطمث ، تقضي ثلاثة ايام وثلاث ليال على سطح بيتها . وقد رأيت في فينيسيا عمليات دفن في « الغوندول » ، وحضرتُ في إشبيلية احياء « الاسبوع المقدس » ، كما شاهدت « آلام المسيح » لاوبير اميرغو . وبالطبع ، ليس ذلك كله الا « عيّنة » هزيلة عن معلوماتي : فبوسعي ان انقلب فوق كرسي ، وأبدأ في لهجة تسلية :

« أتعرفون جيهلاقا ، يا سيدتي العزيزة ؟ انها مدينة صغيرة عجيبة من مدن مورافيا مكثت فيها عام ١٩٢٤ » ...

وعند نهاية قصتي يحول الكلام رئيس المحكمة الذي رأى حالات كثيرة :

« كم هذا صحيح ، يا سيدي العزيز . وكم هو انساني : لقد رأيت حالة مشابهة في بدء حياتي القضائية . كان ذلك عام ١٨٠٢ ، وكنت قاضياً مناوباً في ليبزج » ...

غير انهم بالغوا بازعاجي بهذا في شبابي . بالرغم من انني لم اكن من اسرة مترفين . ولكن هنالك ايضاً هواة . انهم امناء السر ، والموظفون ، والتجار ، وأولئك الذين يصغون الى الآخرين في المقهى : انهم يحسّون أنفسهم مضحّين ،

حين يقاربون الأربعين من العمر ، بتجربة لا يستطيعون ان يُسيلوها في الخارج . ومن حسن الحظ انهم قد صنعوا اولاداً ، فهم يجبرونهم على ان يستهلكوها عن كثب . انهم يودّون ان تصدّق ان ماضيهم لم يضع ، وان ذكرياتهم قد تركّزت وتحوّلت بهدوء الى « حكمة » . فيا للماضي المناسب ! ماضي جيب ، كتاب صغير مذهّب ، ملء بالحكم الجميلة . « صدّقوني ، اني احدّثكم عن تجربة » ، « كل ما اعرفه قد قبسته من الحياة » . اترى « الحياة » قد حلت عبء التفكير عنهم ؟ انهم يشرحون الجديد بالقديم — وقد شرحوا القديم بأحداث اشدّ قدماً ، على غرار اولئك المؤرخين الذين يجعلون من لينين روبسبيراً روسياً ، ومن روبسبير كرومويلاً فرنسياً : فهم في آخر المطاف لم يفهموا شيئاً على الإطلاق ... انا نكتشف وراء أهميتهم كسلاً دبساً : فهم يرون مظاهر تمرّ امامهم ، فيتثاءبون ، ويفكرون بأن لا شيء جديداً تحت السماوات . « مجنون قديم » — وكان الدكتور روجيه يفكر بغموض في مجانين آخرين لا يذكر احداً منهم بصورة خاصة . والآن ، لن يستطيع شيء مما سيفعله السيد اشيل ان يفاجئنا : « ما دام « مجنوناً قديماً » !

انه ليس مجنوناً قديماً ، بل هو خائف . مم عساه يكون خائفاً ؟ ان من يريد ان يفهم شيئاً ، يقف تجاهه وحده ، من غير عون ، وماضي العالم كله لا يملك ان يقدّم ايّة خدمة . ثم يختفي الشيء ، وما فُهِم منه يختفي معه .

اما الأفكار العامة فهي اكثر اغراءً ومخادعة . ثم ان المحترفين وحتى الهواة ينتهي بهم الامر الى ان يكونوا على حق . ان حكمتهم توصي باثارة اقل ما يمكن من الضجة ، وبالعيش اقل ما يمكن ، وبالتداعي للنسيان . وأفضل حكاياتهم حكايات الطائشين الشاذّين الذين نالوا عقابهم . اجل : ان الامر يجري هكذا ، وليس ثمة من يقول العكس ، ربما لم يكن السيد اشيل مرتاح الضمير جداً ، وربما يقول لنفسه انه ما كان يبلغ هذا المبلغ لو انه استمع الى نصائح ابيه واخته الكبرى . ويحق لطبيب ان يتكلم : فانه لم يخسر حياته ولم يفوّتها ، لقد عرف ان يكون مفيداً . وهو ينتصب ، هادئاً وقادراً ، فوق هذا

الحطام ، انه صخرة .

كان الدكتور روجيه قد شرب قدح الكالفادوس ، وكان جسمه الكبير متكوماً ، وجفناه مسترخيين بتثاقل . وللمرة الاولى ، ارى وجهه من غير العينين : فكأنه قناع كرتوني ، كتلك الأقنعة التي تباع اليوم في الحوانيت ، ان لخدّيه لوناً وردياً مريعاً ... وبدت لي الحقيقة فجأة : ان هذا الرجل سيموت عما قريب . وهو يعرف ذلك بالتأكيد ، وحسْبُه ان يكون قد نظر الى نفسه في مرآة : فهو يزداد كل يوم شبهاً بالجثة التي سيكونها . بهذا تتلخص تجربتهم ، ولهذا السبب قلت لنفسي غالباً ان رائحة الموت تنبعث منها : فتلك هي دفاعهم الأخير . ان الطبيب يودّ كثيراً ان يصدّق الأمر ، يودّ لو يقنّع الواقع الذي لا يُحتمل : من انه وحيد ، بلا خبرة ، ولا ماضٍ ، وأنّ له عقلاً يتدبّق ، وجسماً ينحلّ . من اجل هذا تراه قد بنى جيداً هذيانه التعويضي الصغير ، ورتّبه جيداً ، وعلّقه جيداً : فهو يقول لنفسه انه يتقدّم . ان له فجوات في الفكر ، لحظات تدور الأمور فيها دوراناً فارغاً في رأسه ؟ ذلك انّ حكمه كفّ عن ان يمتاز بعجلة عهد الشباب . انه لا يفهم بعد ما يقرأ في الكتب ؟ ذلك انه قد اصبح الآن شديد البعد عن الكتب . انه لا يستطيع بعد ان يقوم بعمل الحب ؟ ولكنه قام به . فأنّ يكون المرء قد قام بعمل الحب ، أفضل كثيراً من ان يستمر في القيام به : انه بالارتداد الى خلف يحكم ويقارن ويفكّر . ولكي يستطيع ان يتحمّل رؤية هذا الوجه المريع ، وجه الجثة ، في المرايا ، فانه يجهد للاعتقاد بان دروس التجربة قد نُقشت فيه .

ويدير الطبيب رأسه قليلاً ، ويفتح جفناه ، فينظر اليّ بعينين وردّهما النعاس . وأبتسم له . اني أودّ لو تكشف له هذه البسمة كل ما يحاول ان يخفيه عن نفسه : ان هذا هو ما سوف يوقفه ، اذا استطاع ان يقول لنفسه : « هو ذا انسان « يعرف » اني سأموت ! » ولكن جفنيه يُسبلان من جديد : انه ينام . وأخرج ، تاركاً السيد أشيل يسهر على نومه .

لقد انقطع المطر ، وأصبح الهواء عذباً ، وكانت السماء تُقلّب في هدوء

صوراً جميلة سوداء ، وكان ذلك اكثر من كاف لصنع إطار لحظة كاملة ، لقد كان جديراً بكي ، لكي تعكس هذه الصور ، انا لولتك في قلبنا عبرات صغيرة محضة . اما الآن ، فلا أحس انبهار الفرحة : اني امضي تائهاً ، خالياً وساكناً ، تحت هذه السماء التي لا تُستعمل .

الأربعاء

«يجب الا اخاف »

الخميس

كتبت اربع صفحات . وبعد ذلك ، فترة طويلة من السعادة . ينبغي الا ابالغ في التفكير بقيمة « التاريخ » ، فان ذلك يوشك ان يخترقني منه . يجب الا انسى ان السيد دوروليوت يمثل ، في الساعة التي هو فيها ، التبرير الوحيد لوجودي .

سألتقي آني بعد ثمانية ايام .

الجمعة

كان الضباب من الكثافة ، في جادة « لازوتوند » ، بحيث حسبت من الحكمة ان احاذي جدران « الكلازيرلد » ، وكانت اضواء السيارات التي تحقي بطرف امامها نوراً مبللاً ، وكان مستحيلاً ان يعرف المرء اين كان ينتهي الرصيف . وكان حولي اشخاص ، وكنت اسمع وقع اقدامهم ، واحياناً ، طنين كلامهم ، ولكني لم اكن ارى احداً . وذات مرة ، تشكل على مستوى كتفي وجه امرأة ، ولكن الضباب ما لبث ان ابتلعه ، ومرة اخرى ، لامسني آخر وهو يلهث بشدة ، ولم اكن ادري اين انا ذاهب ، فقد كنت شديد

الاستغراق . كان ينبغي التقدم بحذر ، وجسّ الارض بطرف القدم ، بل ومدّ اليدين الى امام . والحق اني لم اكن اصيب أية متعة بهذا التمرين ، ومع ذلك ، فاني لم اكن افكر بالعودة الى غرفتي ، فقد كنت مأخوذاً . وأخيراً ، لمحت في البعيد بعد نصف ساعة غاراً ازرق . واذ توجهت اليه ، بلغت طرف شارع كبير ، عرفت فيه مقهى ماتلي الذي كان يحترق بأضواء الضباب .

ان لمقهى ماتلي اثني عشر مصباحاً كهربائياً ، ولكن لم يكن مضاءً منها الا اثنان ، احدهما فوق الصندوق ، والآخر في السقف . ودفعني الخادم الوحيد الى زاوية مظلمة .

– ليس من هنا يا سيدي ، فهنا التنظيف .

وكان يرتدي سترة ، بلا صدرة ولا ياقة منشّاة ، مع قميص ابيض مخطط بالبنفسجي . وكان يتثاءب وينظر اليّ بنظرة عابسة وهو يمرّر أصابعه في شعره .

– فنجان قهوة مع « الكرواسان » .

وفرك عينيه من غير ان يجيب ، وابتعد . وكانت العتمة تحيط بي حتى عينيّ ، ظلمة حلزونية قذرة . ان المدفأة لم تكن مضاءة ، بلا شك .

ولم اكن وحدي . كانت امرأة ذات بشرة لحمية حائلة قبالتي ، تحرك يداها بلا انقطاع ، تارة تلامسا قميصها ، وتارة تسوّيا قبعتها السوداء على رأسها . وكانت بصحبة رجل طويل اشقر كان يأكل خبز « البريوش » من غير ان ينبس بحرف، وبدا لي الصمت ثقيلاً . وكانت بي رغبة لأشعل غليوني ، ولكن كان يحرجني ان اجلب انتباهها بفرقعة عود الثقاب .

جرس التلفون . وتوقفت اليدان : وظلتا معلقتين بالقميص . وتباطأ الخادم في الاجابة ، وظلّ يكنس على مهل ، قبل ان يقرر اخيراً التغلب لرفع السماعة . « ألو ؟ السيد جورج ؟ مرحباً ، يا سيد جورج ... نعم ، يا سيد جورج ... المعلم ليس هنا ... نعم ، لا بد انه قد هبط ... آه ، في مثل هذا الطقس الضبابي ... عادته ان يهبط حوالي الثامنة ... نعم ، يا سيد جورج ،

سأنقل إليه الرسالة . مع السلامة ، يا سيد جورج ! !

كان الضباب يطل على زجاج النوافذ كستار ثقيل من المخمل الرمادي . والتصق وجه بالزجاج ذات لحظة ثم اختفى .

وقالت المرأة بلهجة شاكية :

— إربط لي حذائي .

فقال الرجل من غير أن ينظر :

— إنه غير منحلّ .

فسكتت ، وأخذت يداها تشدّان قميصها ورقبتها كأنهما عنكبوتان كبيران .

— بلى ، بلى ، إربط لي حذائي .

فانحنى بهيئة مزعجة ولمس قدمها لمساً خفيفاً تحت الطاولة :

— لقد فعلت .

فابتسمت في رضى . ونادى الرجل الخادم :

— كم هو الحساب ؟

فقال الخادم : — كم قطعة « بريوش » أخذتما ؟

وكنت قد خفضت عيني حتى لا أبدو كمن يلاحظهم ، وبعد بضع ثوانٍ ، سمعت بعض فرقعات ، ورأيت طرف تنورة ونعلين منوّشين برمل جافّ يتجهان لملاقاة الرجل ، وكانا يرقصان مشتبكين ويتقدّمان نحوي ، ثم تعثّرا واستدارا نصف استدارة ، كأن يراقصان ... وفي هذه اللحظة ، انطلقت يدٌ تربت على التنورة ، تمتدّ إلى ذراع صلبة ، وتردّدت قليلاً ، وهي تحكّ التنورة .

وقال الرجل : — هل أنت على استعداد ؟

وانفتحت اليد وجاءت تمسّ لمسة مرتبكة من الرسغ على الحذاء الأيمن ، ثم اختفت .

قال الرجل : — اوف !

وكان قد تناول حقيبة قرب المشجب، وخرجا، ورأيتهما يختفيان في الضباب.

وقال لي الخادم، وهو يحمل لي قهوتي:

— إنهما فنانان، وهما اللذان قدّما، مرة، «الاستراحة» في سينما بالأمس. إن المرأة تعصب عينيها وتقرأ الاسم الأول لمشاهدين وعمرهم. وهما غائبان اليوم، لأنه يوم الجمعة، وفيه يتغيّر البرنامج.

وذهب ليأتي بصحن من «الكرواسان» كان على الطاولة التي غادرها الفنانان.

— لا حاجة بي إليها.

لم تكن بي رغبة لآكل تلك القطع من «الكرواسان»...

— يجب أن أطفىء الكهرباء. مصباحان لزبون واحد، في الساعة التاسعة صباحاً: إن المعلم سيناقشني الحساب.

وغمرت العتمة المقهى، كان ضوء هزيل، ملطخ بالرمادي والأسمر، يسقط الآن من واجهات الزجاج العليا.

— أريد أن أرى السيد فاسكيل.

ولم أكن قد رأيت العجوز داخلة. وهبّت نفحة هواء مثلج، فارتعشت لها.

— لم يهبط السيد فاسكيل بعد.

فاستطردت تقول: — إن السيدة فلوران هي التي بعثتني. إنها متوعكة، وهي لن تأتي اليوم.

والسيدة فلوران هي أمينة الصندوق، ذات الشعر الأحمر.

وقالت العجوز: — إن هذا الطقس مزعج، لا يناسب بطنها.

فاتخذ الخادم هيئة اهتمام وأجاب:

— إنه الضباب، وهذا شبيه بحال السيد فاسكيل، ويدهشني أنه لم يهبط، لقد طلبوه على التلفون. وهو عادة، يهبط في الساعة الثامنة.

فنظرت العجوز آلياً الى السقف :

— انه فوق ؟

— نعم ، تلك غرفته .

فقالت العجوز بصوت مخطوط ، كما لو انها كانت تتحدث الى نفسها :

— لنفرض انه مات ...

فتغيّر وجه الخادم من غيظ شديد وقال :

— آه ! شكراً لك ، شكراً !

لنفرض انه مات ... لقد ألقت هذه الفكرة بذهني . وهذا حظاً نوع الافكار التي تراود المرء في هذا الطقس من الضباب .

وخرجت العجوز . وكان عليّ ان أتخذ حذوها : فقد كان الطقس بارداً ومظلماً . وكان الضباب يتسرب من تحت الباب ، وكان يوشك ان يصعد ببطء ويغرق كل شيء . ولو كنت في المكتبة البلدية ، لوجدت نوراً وناراً .

ومن جديد أقبل وجهٌ يسحق على الزجاج ، وكان يكشّر . فقال الخادم في غضب وهو يخرج راكضاً :

— انتظر قليلاً .

وانمحى الوجه ، فبقيت وحدي . وأحسست على نفسي باللائمة المريرة التي غادرت غرفتي . لا بد ان يكون الضباب قد غمرها الآن فاذا دخلتها ، فلا بد ان يأخذني الخوف .

وفرقع شيء ما في الجثة ، خلف الصندوق . وكان ذلك صادراً عن الشمع الغامض . أتراه الشيخ يهبط أخيراً ؟ لا . ان احداً لم يظهر . كانت الدرجات المرتفع من تلقاء نفسها . وكان السيد فاسكويل ما يزال نائماً . او ربما كان قد مات فوق رأسي . «عُثر عليه ميتاً في سريره ، ذات صباح ضبابي» — وفي عنوان اصغر : في المقهى ، كان الزبائن يشربون من غير ان يشعروا ...

ولكن ، أكان ما يزال في سريره ؟ أتراه لم يسقط ، جاذباً المعاطف معه ،

صادماً رأسه بالأرض الخشبية ؟

إنني اعرف السيد فسكيل معرفة جيدة ، وقد مال أحياناً عن صمتي ، انه انسان حسن مرح ، ابو لحية مرسلة ؛ فاذا مات ، فلا بد ان يكون السبب نوبة ، وسيكون بلون الباذنجان ، ولسانه خارج فمه ، ولحيته في الهواء ، ورقبته بنفسجية تحت الشعر المجعد .

كان السلم الخاص يضيع في الظلام ، وكنت لا أكاد استطيع ان أميز الكرة من الدرابزين ، ينبغي عبور هذا الظلام ، وسوف يرتفع السلم ، وفوق ، سأجد باب الغرفة ....

إن الجسم هناك ، فوق رأسي . اذا صعدت ، فسأدير مفتاح الضوء ؛ وسألمس تلك الشعرة الداكنة ، لأرى . ولم أستطع الاحتمال بعد ، فنهضت ، اذا فاجأني الخادم في السلم ، فسأقول له اني سمعت ضجة

وجاء الخادم فجأة ، وهو يلهث ، وصاح :

— نعم ، يا سيدي .

الأحمق ! وأقبل نحوي .

— فرنكال .

فقلت له : — سمعت ضجة فوق .

— إن الوقت ليس باكراً !

— نعم ، ولكني اعتقد ان هناك شيئاً ما ؛ فكأنها حشرجات ؛ ثم إنها قد حدثت ضجة ثقيلة .

وفي تلك الحجرة المظلمة ، بهذا الضباب خلف الزجاج ، كان ذلك يبدو طبيعياً جداً . اني لن أنسى نظرة عينيه تلك .

والتفت بحدة : — عليك الا تصعد لترى .

قال : — أوه ، لا . أخشى ان يوبخني . كم هي الساعة ؟

— الساعة العاشرة .

— سأصعد اليه في العاشرة والنصف ، إن لم يهبط .

وخطوت خطوة نحو الباب .

ـ هل أنت ذاهب ؟ ألا تبقى ؟

ـ لا .

ـ أكانت حضرية حقيقية ؟

فقلت له وأنا أهمّ بالخروج :

ـ لا أدري ، ربما كان ذلك لأني كنت أفكر فيه .

وكان الضباب قد انحسر قليلاً ، وأسرعت في سلوك شارع « تورنوبريد » ، كنت تواقاً الى أضوائه . ولكني أصبت بالخيبة : كان ثمة نور بكل تأكيد ، وكان يسيل على زجاج الحوانيت . ولكنه لم يكن نوراً مرحاً : كان أبيض كل البياض بسبب الضباب ، وكان يسقط على كتفيك كأنه « الدوش » .

كثير من الناس ، ولا سيما من النساء : خادمات ، ووصيفات ومديرات أيضاً ، من هاتيك اللواتي يقلن : « اني اشتري بنفسي ، فهذا أضمن » . وكن يتمهلن أمام الواجهات قليلاً ، ثم ينتهي بهن الأمر الى الدخول .

وتوقفت امام بائع اللحوم « جوليان » . وكنت أرى بين الفينة والفينة ، عبر المرآة ، يداً تومىء الى الأرجل المحشوة بالكمأة والى الامعاء . وإذ ذاك ، كانت فتاة صبية شقراء تنحني ، مبلولة الصدر ، وتأخذ بين اصابعها طرف اللحم الميت . وقد كان السيد « فاسكيل » ميتاً في غرفته ، على بعد خمس دقائق .

وبحثت فيما حولي عن مرتكز صلب ، عن حماية لي من أفكاري . ولكني لم أجده : رويداً رويداً ، كان الضباب قد تمزق ، ولكن شيئاً ما مخيفاً كان باقياً يتسكع في الشارع . ربما لم يكن تهديداً حقيقياً : فهو قد امحى ، شفافاً . ولكن هذا بالذات هو ما كان ينتهي باشاعة الخوف . وأسندت جبيني بالواجهة . ولاحظت على « مايونيز » بيضة معدة على الطريقة الروسية قطرة ذات لون احمر معتم : كان ذلك دماً . وكان هذا الاحمر على ذلك الاصفر يثير اشمئزازي .

وفجأة ، حدثت لي رؤية : لقد سقط احد الأشخاص ، ووجهه الى أمام

يرف في صحون الطعام . وكانت البيضة قد تضرجت في الدم ، وانفصلت عنها قطعة البندورة التي كانت تكللها ، فسقطت حمراء على الورد الأحمر . وكان المايونيز قد سال قليلاً : فاذا هو بحيرة من القشدة الصفراء تقسم قناة الدم الى ذراعين .

وإن هذا غاية في البلادة ، فيجب ان أنتفض . إنني ذاهب للعمل في دار الكتب .

للعمل ؟ كنت أعلم جيداً أنني لن أكتب سطراً واحداً . انه نهار آخر يضيع ، ورأيت ، وأنا أعبر الحديقة العامة ، على المقعد الذي اعتدت ان أجلس عليه ، رداءً كبيراً أزرق جامداً . هذا الانسان لا يصاب بالبرد .

وحين دخلت غرفة المطالعة ، كان العصامي يهم بأن يغادرها . وارتمى عليّ :

— يجب ان أشكرك يا سيدي . إن صورك قد جعلتني أقضي ساعات لا تنسى .

وغمرني لحظة أمل إذ رأيته : ربما كان من الأيسر قضاء هذا النهار حين نكون اثنين . ولكن ، مع العصامي لن نكون اثنين إلا في الظاهر .

وضرب بيده على مجلد : كان « تاريخ الأديان » .

— يا سيدي ، لم يكن ثمة من هو أكفأ من « نوساپيه » لمحاولة وضع هذا المؤلف التركيبي . أهذا صحيح ؟

كان الوهن بادياً عليه ، وكانت يداه ترتجفان . وقلت له :

— إن وجهك ينمّ عن التعب .

— آه ، أظن ذلك يا سيدي . ذلك انه حدث لي حادث كريه .

وكان الحارس قادماً نحونا : انه كورسيكي قصير غضوب ، ذو شاربين يشبهان شاربي ضارب طبل كبير . وهو يتنزه ساعات طويلة بين الطاولات ، صافقاً عقبيه . وهو في الشتاء يبصق في مناديل يجففها بعد ذلك على المدفأة .

واقترب « العصامي » حتى كاد فمه يلامس وجهي ، وقال لي بلهجة

صارماً :

– لن أقول لك شيئاً امام هذا الرجل . اذا كنت تريد ، يا سيدي ؟..

– ماذا ؟

فاحمرّ وجهه ، وتمايل كتفاه بلطافة :

– سيدي ، آه يا سيدي : إني أرتمي في الماء . هل تشرفني بتناول الغداء معي يوم الأربعاء ؟

– بكل رضى .

وكانت رغبتي في تناول الغداء معه لتشبه رغبتي في شنق نفسي . وقال العصامي :

– أية سعادة تعطيها لي !

ثم أضاف بسرعة :

– سآتي لاصطحابك من بيتك ، اذا كنت تريد .

واختفى ، ولا شك ان ذلك كان خوفاً من أن أغيّر رأيي إذا ترك لي الوقت الكافي لذلك .

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف . وقد اشتغلت حتى الثانية إلا ربعاً ، وكان عملاً رديئاً : صحيح ان كتاباً كان تحت نظري ، ولكن ذهني كان ما يفتأ يرجع الى مقهى مابل . ترى ، أيكون السيد فاسكيل قد هبط الآن ؟ الحق اني لم أكن أؤمن كثيراً ، في أعماقي ، بموته ، وهذا بالذات ما كان يزعجني ! كانت هذه فكرة حائمة لم أكن أستطيع أن أقتنع بها ولا ان أتحرر منها . وكان نعلا الكورسيكي يصطفقان على الأرض الخشبية . وقد أتى مرات عديدة يتربع أمامي ، وعليه هيئة من يريد التحدث إليّ ، ولكنه كان يعدل ، ويبتعد .

وحوالي الساعة الواحدة ، خرج آخر المطالعين . ولم أكن جائعاً ، وكنت خصوصاً لا أريد ان أذهب . وعملت فترة أخرى ثم انتفضت : كنت أحسني مكفناً بالصمت .

ورفعت رأسي : كنت وحيداً . ولا بد ان الكورسيكي قد هبط الى زوجته التي كانت بوابة المكتبة ، وكانت بي رغبة لسماع صوت قدميه . وكل ما سمعته صوت سقوط فحم في الموقد . وكان الضباب قد غشى القاعة : ليس الضباب الحقيقي ، الذي كان قد تبدد منذ وقت طويل ، وإنما الضباب الآخر، ذلك الذي كانت الشوارع ما تزال ملأى به ، والذي كان يخرج من الجدران ، ومن الأرض المتسخة . انه لون من لاكثافة الاشياء ، وكانت الكتب ما تزال هنا ، بالطبع ، مصفوفة وفق الأبجدية على الرفوف ، بظهورها السوداء او السمراء وطابعها أ ع . أ ف ٧٩٩٦ (استعمال السموم ـ أدب فرنسي) او أ ع ، ع ط (استعمال السموم ، علوم طبيعية) . ولكن ... كيف أفسر ؟ انها عادة ، بقوتها وكثافتها ، مع الموقد ، والمصابيح الخضر ، والنوافذ الكبيرة ، والسلام ، تسد المستقبل . وما دام المرء باقياً بين هذه الجدران ، فان ما سيحدث ينبغي ان يحدث الى يمين الموقد او يساره . حتى ولو كان على القديس دنيس ان يدخل حاملاً رأسه بين يديه ، فيجب ان يدخل من اليمين ، وأن يمشي بين الرفوف المخصصة للأدب الفرنسي والطاولة المخصصة للقارئات . وإذا لم يمس الأرض ، انما عام على ارتفاع عشرين سنتيمتراً من الأرض ، فان حلقه الدامية ستكون على ارتفاع رف الكتب الثالث . وهكذا تجدي هذه الاشياء ، على الاقل ، في تثبيت حدود ما هو محتمل الوقوع .

ولكنها اليوم لم تكن تثبت شيئاً على الاطلاق : بل كان يبدو ان وجودها بالذات موضع نقاش ، وانها كانت تعاني اكبر المشقة للانتقال من لحظة الى أخرى . وشددت بين يدي بقوة المجلد الذي كنت اقرأ فيه : ولكن أعنف المشاعر كانت قد ضعفت . ولم يكن شيء ليبدو حقيقياً ، وكنت احسني محاطاً بديكور كرتوني يمكن ان ينتزع فجأة من مكانه . كان العالم ينتظر ، وهو ممسك انفاسه ، وهو يتصاغر ـ كان ينتظر نوبته ، غثيانه ، كما حدث للسيد أشيل ، في ذلك اليوم .

ونهضت ، لم يكن بوسعي بعد ان أتماسك وسط هذه الاشياء التي الحقها

الضعف والوهن ، وقفت لألقي نظرة من النافذة على رأس امبتراز ، وقلت : « كل شيء » يمكن ان يحدث ، « كل شيء » يمكن ان يحصل . بالطبع ، ليس نوع ما هو فظيع الذي اخترعه البشر ؛ إن امبتراز لن يأخذ في الرقص على قاعدته ، وانما سيكون شيئاً آخر .

ونظرت في ذعر الى هذه الكائنات غير الثابتة التي ربما انهارت بعد ساعة او بعد دقيقة ؛ أجل ، لقد كنت هنا ، كنت أجلس وسط هذه الكتب الزاخرة بالمعارف ، التي كان بعضها يصوّر الاشكال التي لا تتغير للاجناس الحيوانية ، وكان بعضها الآخر يشرح أن كمية الطاقة تحفظ بنفسها كاملاً في العلم ؛ كنت هنا ، واقفاً قرب نافذة كان زجاجها علامة انعكاس محدّدة . ولكن ما أضعفها من حواجز ! إنني أفترض ان العـالـم يتشابه من يوم لآخر ، بداعي الكسل . انه يبدو اليوم وكأنه يريد ان يتغيّر . وإذ ذاك يمكن ان يحدث « كل شيء »، « كل شيء » .

ليس لديّ وقت أضيعه : إن اصل هذا القلق يعود الى قصة مقهى مابلي ، يجب ان أعود اليه ، وأن أرى السيد فاسكيل على قيد الحياة ، وأن ألمس عند الحاجة لحيته او يديه ، وعند ذلك ، ربما أتحرر .

وتناولت معطفي على عجل ، وألقيته على كتفيّ من غير ان ارتديه ، إني أهرب . وفيما كنت أعبر الحديقة العامة ، وجدت في المكان نفسه الرجل ذا الرداء ، وكان له وجه ممتقع هائل بين أذنين قرمزيتين من فرط البرد .

وكان مقهى مابلي يشع من بعيد : لا بدّ ان المصابيح الاثني عشر كانت مضاءة كلها . وحثثت خطوي : كان ينبغي ان انتهي من الأمر . وألقيت اولاً بنظرة عاجلة من الفتحة الكبيرة الزجاجية : كانت القاعة خالية . لم تكن أمينة الصندوق هناك ، ولا الخادم ـ ولا السيد فاسكيل .

وكان عليّ ان أبذل جهداً كبيراً لأدخل ، ولم أجلس ، بل صحت : « غارسون ! » ، فلم يجب احد . كان ثمة فنجان فارغ على طاولة ، وقطعة سكّر على الصحن .

ـ أليس هنا أحد ؟

كان ثمة معطف يتدلى من مشجب ، وكانت مجلات مركومة في صناديق كرتونية سوداء موضوعة على طاولة ذات عمود واحد . وأرهفت سمعي لأدنى صوت ، ممسكاً أنفاسي . وفرقع السلّم الخاص فرقعة خفيفة . وفي الخارج ، صفارة باخرة . وخرجت متقهقراً ، من غير أن أنحدر السلّم ثانية .

أعرف جيداً : إن الزبائن لا يعرفون ، في الساعة الثانية بعد الظهر . كان السيد فاسكيل مريضاً . ولا بد انه كان قد أرسل الخادم في مهمة . ربما للعودة بطبيب . نعم ، ولكن القضية التي كنت ، بحاجة ، لأن أرى السيد فاسكيل . وعند مدخل شارع لورنوبريه ، التفتّ ، وتأملت في اهتزاز المقهى الشيء العالي . كانت الشبابيك مغلقة ، في الطابق الأول .

واستولى عليّ ذعر حقيقي . ولم أكن أدري أين كنت أتجه بعد . وعدوت محاذاة أحواض السفن ، وانعطفت إلى الشوارع المقفرة في حي " أبوفيرازي " : كانت البيوت تنظر إليّ عارية بعيونها الكئيبة . وكنت أردد لنفسي في ضيق إلى أين أذهب ؟ إلى أين أذهب ؟ يمكن أن يحدث كل شيء . وبين الفينة والفينة ، كنت أقوم بنصف استدارة فجائية ، خافق القلب : ما الذي كان يحدث في ظهري ؟ ربما كان ذلك مبتدئاً خلفي ، حتى إذا التفتّ ، فجأة ، يكون الأوان قد فات . وما دام في مكنتي أن أحدّق في الأشياء ، فلن يحدث شيء : وكنت أنظر إلى كل ما كنت أستطيع النظر إليه ، من الطرق والبيوت وقناديل الغاز . وكانت عيناي تنتقلان بسرعة من احداها إلى الأخرى ، لتفاجئها وتوقفها وهي في إبّان تحولها . ولم تكن هيئتها طبيعية جداً ، ولكني كنت أقول لنفسي في قوة : إن هذا قنديل غاز ، وهذا نبع ، وكنت أحاول ، بقوة بصري ، أن أحيلها إلى مظهرها اليومي . وقد التقيت مرات عديدة بحانات في طريقي : « مقهى سكان بريتانيا » ، « حانة البحرية » . وكنت أقف ، وأتردد أمام ستائرها المصنوعة من التول الوردي : ربما لم تنسَ بعد هذه العُلب المحكمة جداً ، وربما كانت ما تزال تنطوي على ذرة من عالم الأمس ، معزولة ، منسية .

ولكن كان ينبغي دفعُ الباب ، والدخول . ولم اكن اجرؤ ، فكنت امضي في سبيلي . وكانت ابواب البيوت خاصةً تخيفني . كنت اخشى ان تنفتح من تلقاء نفسها . وانتهى بي الأمر الى السير وسط الشارع .

وأفضيت فجأة الى محطة « اجوانى الشيال » . قوارب صيد ، بيوت صغيرة ، ووضعت قدمي على حلقة حديدية محفورة في الحجر . هنا ، بعيداً عن البيوت ، بعيداً عن الابواب ، سيتاح لي ان اعرف لحظة راحة . وعلى الماء الهادىء المنقط بحبوب سود ، كانت سدادة تعوم .

« و » تحت « الماء ؟ ألم تفكر بما عساه يكون « تحت » الماء ؟ »

حيوان ؟ بيت سلحفاة غارق الى منتصفه في الوحل ؟ ان اثني عشر زوجاً من الأرجل تقلع الوحل على مهل . والحيوان يرتفع قليلاً ، بين الفينة والفينة . في جوف الماء . ودنوت ، مترصداً حركة ما ، تموّجاً خفيفاً . وظلت السدادة جامدة ، وسط الحبوب السود .

وفي تلك اللحظة ، سمعت اصواتاً . كان قد آن الأوان لذلك . واستدرت على نفسي ، وواصلت سيري .

وأدركت الرجلين اللذين كانا يتكلمان ، في شارع « كاستيغليون » . ولدى سماعهما وقع اقدامي ، ارتعشا بعنف والتفتا معاً . ورأيت عيونهما القلقة تتجه نحوي ، ثم خلفي ، لترى اذا كان شيء آخر قادماً . هل كانا اذن مثلي ، هل كانا اذن خائفين ؟ وحين تجاوزتهما ، تبادلنا النظر : ولولا قليل ، لتبادلنا الكلام . ولكن الأنظار عبّرت فجأة عن الحذر . ان المرء في مثل هذا اليوم لا يتحدّث الى أي كان .

والفيتني في شارع « بولينيه » ، وأنا الهث . واذن ، فقد حكم القدر : انني سأعود الى « دار الكتب » ، وسأتناول رواية ، وأحاول ان اقرأ . واذ حاذيت حاجز الحديقة العامة ، لمحت الرجل ذا الرداء . كان ما يزال هناك ، في الحديقة المقفرة ، وكان انفه قد اصبح في مثل احمرار اذنيه .

وكنت اهمّ بدفع الحاجز ، ولكن تعبير وجهه سمّرني : كان يخفض

عينيه ويقهقه نصف قهقهة ، بهيئة بليدة مسترخية . ولكنه كان في الوقت نفسه يحدّق في شيء امامه لم أكن استطيع رؤيته ، بنظرة قاسية جداً وكثيفة جداً ، حتى أنني التفتُّ فجأة .

كان ثمة شاهد ، فتاة صغيرة في حوالي العاشرة من عمرها . فاغرة فمها ، رافعة احدى قدميها ، كأنها مبهورة وهي تشدّ بعصبية على منديل عنقها وتمدّ وجهها الذئبيّ الى امام .

وكان الرجل يبتسم لنفسه ، كمن يوشك ان يقوم بعمل مازح . وفجأة نهض واضعاً يديه في جيبي ردائه الذي كان يصل حتى قدميه . وخطا خطوتين فانداحت عيناه . وحسبت انه سيسقط ، ولكنه ظلّ يبتسم بسمة متلاومة .

ونهضت فجأة : الرداء ! وكنت اود ان امنع ذلك . وكان حسبي ان اسعل ، او ان ادفع الحاجز . ولكني كنت مسحوراً ، بالعذري ، بوجه الطفلة الصغيرة ، كانت ملامحها متسمّرة بالخوف ، ولا بد ان قلبها كان يخفق خفقاً مريعاً : غير اني قرأت على مُحيّا هذه الفأرة شيئاً ما قريباً وشرّيراً . لم يكن ذلك فضولاً ، بل كان الاحرى نوعاً من الانتظار المطلق . وأحسستني حاجزاً . كنت في الخارج ، عند حافة الحديقة ، عند حافة بأساليبها الصغيرة ، ولكنهما هما ، كانا مشدودين احدهما الى الآخر بقوة رغائبهما الغامضة ، كانا يشكلان زوجاً . وامسكت انفاسي ، وكنت اريد ان ارى ما الذي سيرتسم على ذلك الوجه الذي بدأ يشيخ ، حين يصعد الرجل ، خلف ظهري ، الى ابعاد ذيول ردائه .

ولكن الصغيرة نفضت رأسها فجأة ، وأخذت تعدو ، متحرّرة . وكان الرجل ذو الرداء قد رآني : وكان هذا ما أوقفه . وقد ظلّ لحظة جامداً وسط الممر ، ثم مضى ، مستدير الظهر ، وكان رداؤه يصطفق برفقة ساقيه .

ودفعت الحاجز ، وأدركته بقفزة ، وصحت :

– إيه ! إسمع !

فأخذ يرتعش . وقلت له بتأدّب ، حين عرفت به !

– إن خطراً شديداً يحل على المدينة .

دخلت قاعة المطالعة ، وتناولت « لاشارتروز دوبارم » التي كانت موضوعة على طاولة . وكنت أحاول ان أستغرق في قراءتي ، وأن أجد ملجأ في ايطاليا المشرقة كما وصفها ستاندال . وكنت ابلغ ذلك بالتدريج ، وبلمسات قصيرة ، ثم كنت أسقط ثانية في ذلك النهار المهدِّد ، قبالة شيخ قصير كان يتنحنح ، وشاب كان يحلم وهو مستلقٍ على كرسيه .

وكانت الساعات تنقضي ، والواجهات تصبح سوداء . وكنا اربعة ، بالاضافة الى الكورسيكي الذي كان يسجّل على طاولته آخر مقتنيات المكتبة . كان هناك ذلك العجوز القصير ، والشاب الأشقر ، وامرأة شابة تعدّ شهادة الليسانس ، وأنا . وكان احدنا يرفع رأسه بين الفينة والفينة ، فيُلقي نظرة سريعة حذرة على الثلاثة الآخرين ، كما لو انه كان يخشاهم . وذات لحظة ، اخذ العجوز القصير يضحك . فرأيت المرأة الشابة ترتعش من رأسها الى قدميها ، ولكني كنت قد تهجّأت بالمقلوب عنوان كتاب كان يقرأه : إنه رواية مرحة .

الساعة السابعة الا عشر دقائق . وفكرت فجأة ان دار الكتب كانت تغلق ابوابها في الساعة السابعة . سيُلقى بي مرة اخرى في المدينة . فأين عساني اذهب ؟ وما الذي سأفعله ؟

وكان العجوز قد انجز روايته ، ولكنه لم يكن ليذهب . كان يضرب الطاولة بأصابعه ضربات منتظمة جافة . وقال الكورسيكي :

– أيها السادة ستغلق الأبواب عما قليل .

فانتفض الشاب ورماني بنظرة موجزة . وكانت المرأة الشابة قد التفتت الى الكورسيكي ، ثم اخذت كتابها من جديد ، وبدت وكأنها تغرق فيه .

وقال الكورسيكي ، بعد خمس دقائق :

– اننا نغلق .

فهزّ العجوز رأسه بهيئة مترددة . ودفعت المرأة الشابة كتابها ، ولكن من

غير ان تنهض ،

ومشى الكورسيكي . وقام بعدة خطوات مترددة ، ثم ادار مفتاحاً كهربائياً فانطفأت المصابيح على طاولات القاعة ، وظل المصباح المركزي وحده مضاء" . وسأل العجوز على مهل :

— ينبغي ان اذهب ؟

ونهض الشاب ضاحكاً ، على مضض . وقد انفق من الوقت اكثر من أي آخر ليرتدي معطفه . وحين خرجت ، كانت المرأة ما تزال جالسة ، وقد سقطت احدى يديها على كتابها .

وفي اسفل السلّم ، كان الباب ينفتح على الليل . واندفع الشاب ، وكان في الطليعة ، فهبط السلّم على بطء ، واجتاز الممرّ ، ووقف لحظة عند العتبة ، ثم ارتمى في الليل واختفى .

وحين بلغت اسفل السلم ، رفعت رأسي ، وبعد لحظة ، غادر العجوز الصغير قاعة المطالعة ، وهو يزرر معطفه . وحين هبط الدرجات الثلاث الاولى ، التفت عاطساً [illegible] .

وأحسستُ على وجهي بدمعة صغيرة رطبة . وكان ثمة في البعيد من يصفر .

ورفعت عيني : كانت السماء تمطر ، مطر عذب هادىء . وكانت الساحة مضاءة" ، بسكون ، بقناديلها الأربعة . ساحة ريفية تحت المطر . وكان الشاب يبتعد بخطى واسعة ، كان هو الذي يصفر : وأخذتني الرغبة الى ان اصيح بالآخرين الذين لم يكونوا قد عرفوا بعد ، أن بوسعهما ان يخرجا بلا خوف ، وان الخطر قد زال .

وظهر العجوز القصير على العتبة . فحك" ذقنه بهيئة مرتبكة ، ثم ابتسم ابتسامة عريضة ، وفتح مظلته .

صباح السبت

شمس فاتنة ، مع ضباب خفيف يَعِدُ بطقسٍ جميل ذلك النهار . وقد

تناولت فطوري في مقهى مالي .

وقد حدثتني السيدة فوزان ، ابنة الصندوق ، بسمة عذبة ، وصحت من طاولتي :

— هل يكون السيد فاسكيل مريضاً ؟

— نعم ، يا سيدتي ، انه ، كريب ، شديد ، وهو مضطر الى ملازمة فراشه بضعة ايام . ولقد وصلت لنا هذا الصباح من دنكرك . وستقيم هنا العناية به .

اني سعيد حقاً بأن ارى آني من جديد ، للمرة الاولى منذ تلقيت رسالتها . ما الذي فعلته منذ ستة اعوام ؟ اترانا متضايقين حين نلتقي من جديد ؟ ان آني لا تعرف ما هو الضيق . سوف تلقاني كما لو اني تركتها امس . المهم الا اتصرّف بحماقة ، الا ازعجها بادنى شيء . وان اتذكر الا امدّ لها يدي ، حين تصل : انها تحتقر ذلك .

كم يوماً سنبقى معاً ؟ ربما عدت الى بوفيل . يكفي ان نعيش معها بضع ساعات ، ان ننام ليلة في فندق بريتانيا . وبعد ذلك ، سيختلف الموقف . ولن اشعر بعد بالخوف .

بعد الظهر

حين كنت ، في العام الماضي ، في زيارتي الاولى لمتحف بوفيل ، استوقفتني صورة اوليفيه بلافيني . أبسبب خطأ في التنسيب ؟ أم في المنظور ؟ ما كنت لأستطيع ان اثبت ، لكن شيئاً ما كان يزعجني : ان هذا النائب لم يكن مستقرّ الهيئة على قاعدة لوحته .

وعدت بعد ذلك لأشاهده عدة مرات . ولكن ضيقي لم يكن يفارقني . لم اكن اريد الإقرار بأن بوردوران ، الحائز على جائزة روما وعلى ست مداليات اخرى ، قد ارتكب غلطة في الرسم .

ولكني لمست الحقيقة ، بعد ظهر هذا اليوم ، وانا اقلّب صفحات مجموعة قديمة لصحيفة « ساتيريك بوفيلوا » ، وهي صحيفة شانتاج اتهم صاحبها في

أوله الحزن بالهالة . وسرعان ما غادرت دار الكتب وقضيت اليوم بجولة في المتحف .

وعبرت ضمة الممر بسرعة . ولم تكن خطواتي لتحدث اية ضجة على البلاطات البيض والسود . وكان شعب "كامل" من الجص يلوي حولي اذرعه ، وقد لمحت عبر فتحتين كبيرتين اواني مشققة وصحوناً وقنداً يقضمي ابيض ، أزرق أصفر ، يقوم على قاعدة . كانت تلك قاعة « برنار باليسي » المخصصة للسيراميك والفنون الصغرى . ولكن السيراميك لا يضحكني . كان ثمة سيد وسيدة يرتديان ثياب الحداد ويتأملان هذه الاشياء المطبوخة باحترام .

وفوق مدخل القاعة الكبرى - او قاعة بوردوران - رونوداس كانوا قد علقوا ، منذ وقت بعيد بلا شك ، لوحة كبيرة لم اكن اعرفها . وكانت تحمل توقيع ريشار سيفيران ، وتدعى « موت العازب » . وكانت اللوحة هبة من الدولة .

كان العازب ممدداً على سرير مدعوك ، عارياً حتى النطاق ، وقد اخضر صدره قليلاً ، كما يجدر بالأموات . وكانت الأغطية والشراشف المدعوكة تنم عن احتضار طويل . وابتسمت وانا اذكر السيد فاسكيل . انه لم يكن وحده فابنته كانت تعتني به . وعلى اللوحة ، كانت الخادم ذات الملامح الشريرة ، قد فتحت درج خزانة وأخذت تعد الدراهم . وكان باب مفتوح يتيح ، في الظل ، رؤية رجل ذي قبعة كان ينتظر ، وقد التصقت سيكارة بشفته السفلى . وبالقرب من الجدار ، كانت قطة تلعق حليباً بلا اكتراث .

لم يكن هذا الرجل قد عاش الا لنفسه . وعقاباً صارماً وجديراً به ، لم يجيء احد ليغمض له عينيه ، وهو على سرير الموت . وكانت هذه اللوحة تعطيني انذاراً اخيراً : ان الأوان لم يفت بعد ، وقد كان بوسعي ان اعود على اعقابي . ولكني لأعرف جيداً هذا ، تجاهلت ذلك الانذار . اذ ثمة في القاعة الكبيرة التي سأدخلها اكثر من مئة وخمسين صورة معلقة على الجدران ، فاذا استثنينا بضعة شبان انتزعوا باكراً من أسرهم ، ومديرة مدرسة ، فليس في الذين

مثُلوا هنالك واحد قد مات اعزب، وليس فيهم من مات بلا اولاد او بلا وصية او بلا تناول الأسرار. ان هؤلاء الناس الذين كانوا على علاقة طيبة مع الرب ومع الناس، في ذلك اليوم كما في الايام الاخرى، قد دلفوا على مهل الى الموت، ليطالبوا بنصيب الحياة الابدية الذي كان يحق لهم.

ذلك انه كان يحق لهم كل شيء: الحياة والعمل والثروة والقيادة والاحترام واخيراً الخلود.

فرغتُ الى نفسي لحظة، ثم دخلت. وكان ثمة حارس ينام قرب النافذة. وكان نور اشقر يسقط من الواجهات فيخلّف لطخات على اللوحات. لم يكن ثمة ما هو حيّ في هذه القاعة الكبيرة المستطيلة، باستثناء قطة اخذها الخوف عند دخولي فهربت. ولكني احسست نظر مئة وخمسين زوجاً من العيون تحطّ عليّ.

ان جميع الذين كانوا ينتمون الى نخبة بوفيل بين ١٨٧٥ و ١٩١٠ كانوا هنا، رجالاً ونساء. وقد رسمهم رونودا وبوردوران برقة وعناية.

لقد بنى الرجال كنيسة سانت – سيسيل – دولامير. وأسسوا عام ١٨٨٢ اتحاد مجهّزي المراكب والتجار في «بوفيل» لكي «يجمعوا في حزمة قوية جميع ذوي الارادة الطيبة، ويسهموا في الانعاش القومي ويحبطوا محاولات الاحزاب التخريبية»... وقد جعلوا من بوفيل افضل مرفأ تجاري فرنسي مجهزاً لتفريغ الفحم والخشب. كان عملهم تمديد المحطات وتوسيعها. وقد اعطوا «المحطة البحرية» كل الاتساع المطلوب، وعمّقوا حتى ١٠,٧٠ امتار ماء الإرساء للجزر المنخفض، وذلك بواسطة عمليات متصلة لجرف الرمل. وفي عشرين عاماً، ارتفعت حمولة سفن الصيد التي كانت ٥٠٠٠ برميل في عام ١٨٦٩، الى ١٨٠٠٠ برميل، بفضل جهودهم. انهم لم يكونوا يتراجعون عن بذل اية تضحية لتسهيل نجاح افضل عناصر الطبقة العاملة، ولذلك انشأوا بمحض مبادرتهم مختلف مراكز التعليم التكنيكي والمهني التي ازدهرت تحت جناح رعايتهم. وهم قد حطموا اضراب عمال المرافئ الشهير عام

١٨٩٨ ووهبوا الوطن اولادهم عام ١٩١٤ .

أما النساء، رفيقات هؤلاء المناضلين الكريمات، فقد أنشأن معظم المؤسسات الخيرية وملاجىء الفقراء ومشاغل البنات . ولكنهن كنّ ، قبل كل شيء ، زوجات وأمهات . وقد ربّين اولاداً جميلين ، وعلّمنهم واجباتهم وحقوقهم والدين ، واحترام التقاليد التي صنعت فرنسا .

وكان طابع الصور العام يميل الى الأحمر القاتم . وقد كانت الالوان الفاقعة مُعتدلة ، بدافع من الاحتشام . ومع ذلك ، فان ثلج الشعر والسوالف في لوحات رولوما الذي كان يؤثر رسم الشيوخ ، كان يحسم الالوان على ارضيات سوداء، وكان يبدع في رسم الايدي . اما عند بورجورات الذي كانت طرائقه أفضل وضوحاً ، فان الايدي كانت مهملة بعض الشيء ، خلافاً للياقات المنشاة التي كانت تلمع كالمرمر الابيض .

كان الحر شديداً ، وكان الحارس يشخر على مهل . وألقيت نظرة دائرية على الجدران : فرأيت أيادي وعيوناً ؛ وهنا وهناك ، كانت لطخة ضوء تأكل وجهاً . وإذ كنت متجهاً نحو صورة اوليفيه بلاقيني ، استوقفني شيء ما : كان التاجر ، باكوم ، يُسقط عليّ من الرواق نظرة مشرقة .

كان واقفاً ، مميلاً رأسه بعض الشيء الى الخلف ، ممسكاً بيده قبعة عالية وقفازين بإزاء بنطلونه الرمادي . ولم أتمالك الا أكنّ له بعض اعجاب : فانني لم اكن أرى فيه شيئاً وسطاً ، شيئاً تمكّن النقد منه : إن له قدمين صغيرتين ، ويدين دقيقتين ، وكتفي مصارع عريضتين ، وأناقة خفية ، مع إثارة من جموح الهوى . وكان يحيي الزوّار ، في بشاشة ، نضاوة وجهه التي لا تجعّد فيه ؛ بل ان ظل إبتسامة كان يرفّ على شفتيه . غير ان عينيه لم تكونا تبتسمان . وكان يوحي انه في حوالي الخمسين : كان نضراً وفتياً كما لو أنه في الثلاثين . كان جميلاً .

وعدلت عن رأيي ان فيه خطأ . ولكنه ، هو ، لم يتركني . فقـد قرأت في عينيه حكماً هادئاً مصراً .

وفهمت آنذاك كل ما كان يفصلنا ، إن ما يمكن ان أفكره بصدده لم يكن ليدركه ، كان مجرد تحليل نفسي ، كذلك الذي يصنع في الروايات . ولكن حكمه كان يخترقني كالسيف ويضع حتى حقي في الحياة موضع التساؤل . وقد كان هذا صحيحاً ، وكنت دائماً أدركه : لم يكن لي حق الحياة . لقد ظهرت اتفاقاً ، وكنت موجوداً كحجر ، كنبتة ، كجرثومة . كانت حياتي تنمو سعيدة ، وفي كل اتجاه ، وكانت ترسل لي احياناً إشارات غامضة ، وأحياناً أخرى لم أكن أشعر إلا بطنين لا غاية له .

أما بالنسبة لهذا الرجل الجميل ، الخالي من النقائص ، الذي مات اليوم ، بالنسبة لجان باكوم ، ابن باكوم « الدفاع الوطني » ، فقد كان الأمر مختلفاً : إن خفقات قلبه وأصوات أعضائه كانت تجيء بشكل حقوق صغيرة نقية فجائية . ولقد استعمل ، طوال ستين عاماً ، بلا ضعف ولا هوادة ، حق الحياة . يا للعينين الرماديتين الرائعتين ! إنهما لم تعرفا أدنى شك . وكذلك باكوم ، إنه لم يخطئ قط .

لقد قام دائماً بواجبه ، بواجبه كله ، واجبه كابن وكزوج وكأب وكقائد ، وكان أيضاً قد طالب بحقوقه دون ما هوادة : حين كان صبياً ، طالب بحقه بأن يربى تربية جيدة ، في أسرة موحدة ، حق وارث لاسم غير ملطخ ، وارث لعمل مزدهر ؛ وكزوج ، طالب بحقه بأن يعنى به ويحاط بالحب العطوف ، وكأب ، طالب بحقه بأن يحترم ، وكقائد ، طالب بحقه بأن يطاع ، دون ما همس . ذلك ان الحق ليس إلا المظهر الآخر للواجب . ولا بد ان نجاحه الخارق (إن أسرة باكوم هي اليوم أغنى أسرة في بوفيل) لم يدهشه قط . إنه لم يقل لنفسه قط انه كان سعيداً ، وحين كان يحقق إحدى رغباته ، كان ينصرف إليها في اعتدال ، قائلاً « إني أستريح » . وهكذا كانت الرغبة تدخل هي أيضاً في صف الحق ، فتفقد تفاهتها الاعتدائية . وقد لاحظت انه كان الى يساره ، فوق شعره الرمادي المزرق ، كتب مصفوفة على رف . وكان تجليدها جميلاً ، لقد كانت بالتأكيد من أمهات الكتب الكلاسيكية ، ولا ريب

في ان باكوم كان يحبـــــ ، مساء ، قبل الانام ، قراءة بضع صفحات من كتب ، صديقه القديم مونتاني ، او انشودة هوراس في الاصل اللاتيني . ولابد انه كان يقرأ ، أحياناً أخرى ، مؤلفاً معاصراً ، على سبيل الاطلاع . وعلى هذا النحو ، عرف « باريس » و « [illegible] » . وكان يضع الكتاب بعد فترة ويشيح بنظره ، وقد فقد انتباهه ، شبه حالم . وكان يقول : « ما أبسط ان يؤدي المرء واجبه ، وما أصعب ذلك ! »

ولم يسبق له قط ان قام بارتداد آخر على نفسه : لقد كان قائداً .

وكان ثمة قواد آخرون معلقين على الجدران ، بل لم يكن ثمة غير ذلك . كان قائداً ، ذلك الشيخ الطويل المخضر اللون الجالس على أريكة . وكانت صدرته البيضاء تذكيراً لاحمساً بشعره الفضي (في هذه الصورة المرسومة خصوصاً لغايات التسليح الخلقي ، والتي كانت الدقة فيها تبلغ حد الوسواس ، لم يكن الهم الفني "غالباً") وكان يضع يده الطويلة الدقيقة على رأس صبي صغير . وكان كتاب مفتوح يتربع على ركبتيه اللتين كانتا مغطاتين بغطاء . ولكن نظره كان يتيه في البعيد . كان يرى جميع هذه الأشياء التي لا يراها الشبان . وكان اسمه قد كتب على معينة من الخشب المذهب ، تحت صورته : وكان المفروض ان يُسمى باكوم او باروش او شيير ... فانه لم يخطر لي ان أذهب فأرى : فبالنسبة لأقاربه ، ولهذا الصبي ، ولنفسه ، كان يكل ببساطة الجد ؛ فاذا كان الآن يحكم بأن الساعة قد حانت ليُطلع حفيده على مدى واجباته المقبلة ، فانه سيكلم عن نفسه بصيغة الغائب .

— عدني جدّك بأن تكون عاقلاً ، يا صغيري الحبيب ، وبأن تدرس جيداً في العام القادم . فربما غاب الجد ، في العام القادم .

لقد كان ، في مساء الحياة ، ينشر على كل انسان طيبة الرحمة . ولو كان يرقى الا بالفتات — ولكني شفاف إزاء نظراته — لوجدت في عينيه الرحمة ! سوف يفكر بأنه كان لي في الماضي حدود . ولم يكن يطلب شيئاً : إن المرء حين يبلغ هذه السن يفقد كل شهوته . لم يكن يطلب إلا ان يخفض الناس

صوتهم قليلاً حين يدخل ، وإلا ان تحصـــل السمات ، حين يمر ، ظلاً من حنان واحترام ، وإلا ان تقول بنت زوجته احياناً : « إن أبي هائل ، إنـه أقوى منا جميعاً » ، وإلا ان يكون وحده القادر على تهدئة غضب حفيده بأن يضع له يديه على رأسه وأن يستطيع ان يقول له بعد ذلك : « ان الحلم هو الذي يُمكن ان يواسي هذه الهموم الكبيرة » ، وإلا ان يأتي ابنه ، بضع مرات في العام ، ليطلب نصائحه حول القضايا الدقيقة ، وإلا ان يحس أخيراً أنه هادئ ، مطمئن ، عاقل الى ابعد حد . ولقد كانت يد السيد العجوز تلامس ملامسة خصلات شعر حفيده : كان ذلك شبه بركة . بمَ عساه كان يفكر ؟ بماضيه المشرّف الذي كان منحه حق التحدث بكل شيء ، وأن تكون له الكلمة الأخيرة في كل شيء . إني لم اكن ذلك اليوم بعيداً بما فيه الكفاية : لقد كانت التجربة اكثر من دفاع ضد الموت ، كانت حقاً : حق الشيوخ .

والجنرال اوبري ، المعلّق في الرواق ، بسيفه الكبير ، كان هو ايضاً قائداً . وكذلك الرئيس هيبر ، المثقف المرهف ، صديق امبتراز . كان وجهه طويلاً ومتناسباً ذا ذقن لا ينتهي ، تنقّطه خصلة زغب صغيرة تحت الشفة السفلى ; وكان يبرز ذقنه قليلاً ، بحيث تبدو عليه هيئة من يحرص على التميّز ، او على اصدار اعتراض مبدئي ، كجشأة خفيفة . كان يحلم . وكان يمسك بريشة أوزة : هو ايضاً كان ، لعمري ، يستريح ، وكان ذلك بقرض الشعر . ولكن كانت له عين القادة النسرية .

والجنود ؟ كنت في وسط القاعة ، قبلة أنظار جميع هذه العيون الجادّة . إني لم أكن جداً ، ولا أباً ، حتى ولا زوجاً ، ولم أكن أقترع ، وأكاد لا ادفع إلا بعض الضرائب : لم أكن استطيع ادعاء حقوق المكلّف ، ولا حقوق الناخب ، حتى ولا حق الشرف المتواضع الذي تضفيه عـــل المستخدم عشرون عاماً من الطاعة . وكانت حياتي قد بدأت تدهشني بصورة جادّة . لم أكن مجرد مظهر .

وقلت لنفسي فجأة : « هيه ! انني انا الجندي ! » وأضحكني ذلك ،

بلا حقد .

وردّ لي بسمة جميلة رجل خمسيني سمين . وكان رولودا قد رسمه في مجلة ، ولكنه لم يضف عليه لمسات بالغة الحسن بالنسبة للأذنين المنتصبتين الدقيقتين ، ولا لليدين خاصة ، الطويلتين العصبيتين بأصابعهما المفرجة : انهما يدا عالم او فنان حقيقيتان . وكان وجهه مجهولاً عندي : ولا بد أني غالباً ما مررت باللوحة من غير ان أنتبه اليه . واقتربت فقرأت : « ريمي باروتين ، مولود في بوفيل ، عام ١٨٤٩ ، أستاذ في مدرسة الطب بباريس » .

باروتين : لقد سبق للدكتور واكفيلد ان حدثني عنه :

« التقيت ذات مرة في حياتي رجلاً طويلاً . كان يدعى ريمي باروتين ، وقد تابعت محاضراته خلال شتاء ١٨٠٤ (وأنت تعرف أني قضيت سنتين في باريس لأدرس فن التوليد) وقد أفهمني ما هو القائد . وأقسم لك انه كان يملك تياراً يكهربنا حتى يصبح بإمكانه ان يقودنا طوعاً الى آخر الدنيا . وكان أي يملك المال قليلاً . كان يملك ثروة ضخمة يخصص قسماً كبيراً منها لمساعدة الطلاب الفقراء » .

هكذا أوحى لي أمير العلم هذا ، اذ حدث به للمرة الأولى ، ببعض المشاعر القوية . وها أنا الآن أمامه ، وهو يبتسم لي . وكم كان في بسمته من ذكاء وبشاشة ! وكان جسمه السمين يستريح باسترخاء في جوف اريكة جلدية كبيرة . لقد كان هذا العالم البعيد عن الغرور يوحي للناس فوراً بالاطمئنان والرضى . ولولا روحانية نظرته لمال الانسان الى اعتباره رجلاً أقرب الى السذاجة .

وليس المرء بحاجة الى وقت طويل ليدرك سر تفوقه : لقد كان عبقرياً لأنه كان يفهم كل شيء ، وكان بامكان المرء ان يقول له كل شيء . وبالاجمال كان يشبه رينان بعض الشبه ، مع مزيد من التبسّط . كان من هؤلاء الذين يقولون :

« الاشتراكيون ؟ الحقيقة اني ، انا ، أذهب أبعد مما يدعون ؟ » وحين

يتبعه المرء في هذا الدرب الخطر ، فانه لن يلبث طويلاً حتى يهجر ، وهو يرتعش ، الأسرة والوطن وحق التملك وأقدس القيم . بل إنه ليشك لحظة في النخبة البورجوازية في القيادة ، وخطوة أخرى ، واذا بكل شيء فجأة يعود الى نصابه ، قائماً على أسس صلبة ، بصورة مدهشة . فاذا التفت بعد ذلك، لمح خلفه الاشتراكيين ، وقد ابتعدوا ، وأصبحوا صغاراً ، وهم يلوّحون بمناديلهم صائحين : « إنتظرنا ! »

والحق اني كنت أعرف ، عن طريق واكتيلد ، أن « المعلم » كان يحب ، كما يقول هو نفسه مبتسماً ، أن « يولد الأرواح » . ولما كان قد بقي شاباً ، فانه كان يحب أن يحيط نفسه بالشباب : كان غالباً ما يستقبل شبان الأسر المرموقة الذين كانوا يتجهون الى قراءة الطب . وقد تعشاه واكتيلد غير مرة وتناول الطعام في منزله . وكان « المعلم » يختلف مع ضيوفه الى غرفة التدخين ، بعد الغداء ، فيعامل هؤلاء الطلاب معاملة الرجال ، بالرغم من انهم لا يكونون قد تجاوزوا بعدُ تدخين سيكاراتهم الاولى . فيقدم لهم السكاير . وكان يتمدد على ديوان ليتحدث طويلاً ، وعيناه نصف مغمضتين ، يحيط به جميع تلامذته العطاش . وكان يبعث ذكريات ، ويروي حكايات يستخرج منها عبراً عميقة ناقدة . واذا اتفق ان كان بين هؤلاء الشبان الذين ربّوا تربية صالحة ، شاب مشاكس معاند ، فان باروتين كان يوليه اهتماماً خاصاً . كان يدعوه للكلام ، ويستمع اليه باهتمام ، ويقدّم له أفكاراً وموضوعات للتأمل . وكان يأتي يومٌ بالضرورة ، يمتلئ فيه الشاب بالأفكار السمحة ، ويثور للمرارة التي يلقاها من ذويه ، ويتعب من كونه يفكر وحده وضد الجميع . فاذا هو يطلب من « المعلم » ان يستقبله على انفراد ، فيبوح له ، وهو يغص من فرط الخجل ، بأخفى أفكاره وآلامه وآماله . وكان باروتين يشدّه الى صدره ويقول له : « اني أفهمك . وقد فهمتك من اليوم الأول » ، وكانا يتحدثان ، ويمضي باروتين بعيداً ، ويمعن في البعد حتى يجد الشاب مشقة في متابعته . وبعد بضع

مقابلات على هذا النحو ، يمكن للمرء ان يلاحظ تقدماً محسوساً لدى الشاب المتمرد. إنه يبصر طريقه ، ويتعلم ان يعرف الصلات العميقة التي كانت تربطه بأسرته وعمله ، ويفهم أخيراً دور النخبة الرابع . وينتهي الأمر بالنعمة النازلة التي تبعث باروتين خطوة خطوة ، الى ان تحمله ، بسحر ساحر ، وقد عادت الى « الحظيرة » ، « واعية ، تائبة . لقد شفي من النفوس » يقول واكليله منهياً حديثه ، « أكثر مما شفيت من الاجسام » .

كان رجل باروتين يتسم لي بشاشة . وكان حائراً ، يسعى الى ان يفهم وضعي ليتعطف به على مهل ويعيدني الى الحظيرة . ولكني لم أكن أخافه : اني لم أكن نعجة . ونظرت الى جبينه الجميل الذي لا أثر فيه لتجعد ، وبطنه الصغير ، ويده المبسوطة على ركبته . وبادلته بسمته ثم تركته .

وكان جان باروتين ، اخوه ، رئيس جمعية S.A.R.B. يعتمد بكلتا يديه على حافة طاولة محملة بالأوراق ، وكان وضعه كله يخبر الزائر أن الجلسة كانت قد انتهت . كان نظره خارقاً ، كان كأنه مجرد . وكان يلمع بأحلى الصدق . وكانت عيناه الباهرتان تلتهمان وجهه كله . ووراء رأيت تحت هذا اللهب شفتين رقيقتين مشدودتين ، تلتهمان شفتي صوفي . وقلت لنفسي « عجباً ، إنه زنجي باروتين » . ولفتت لي « المعلم الكبير » : انني إذ أفحصه ، على ضوء هذا الشبه ، ارى صخامة على وجهه الغلاب ما لست أدريه من الجفاف والأسى « من خارج الأسرة » . ومضيت الى جان باروتين .

كان هذا الرجل بساطة الفكرة . ولم يكن باقياً منه سوى عظم ولحم ميت و « حق صاف » ، ومكرت . حالة تملك حقيقية . حين يستولي « الحق » على انسان ، فليس ثمة تعزيم يستطيع ان يطرده ؛ ولقد كرّس جان باروتين كل حياته للتفكير بـ « حقه » ، لا بشيء آخر . ولو كان بدلاً مني حين كنت أشعر بصداع خفيف كلما زرت منحطاً ، لشعر في صدغيه بالـ « ألم » في انه « حي » . وكان ينبغي الا يحمل أبداً على الإمعان في التفكير ، والا يلفت انتباهه الى وقائع غير سارة ، الى موته الممكن ، والى آلام الآخرين . ولا شك

في أنه قال لزوجته ، وهو على سرير الموت ، في تلك الساعة التي ترافع فيها الناس ، منذ سقراط ، على النطق ببعض الكلمات الرفيعة ، قال لزوجته ، كما قال أحد الجنرالات لزوجته التي كانت قد سهرت عليه اثنتي عشرة ليلة : « إني لا أشكرك الآن ، يا عزيزتي ، فأنت لم تقومي إلا بواجبك » . وحين يبلغ رجل هذا المبلغ ، فيجب ان ترفع القبعة احتراماً له .

كانت عيناه اللتان حدّقت فيهما بدهشة شديدة ، تومئان لي بالانصراف ، ولكني لم أنصرف ، وكنت بكل تأكيد قليل الحذر . ولكوني قد تأملت طويلاً في مكتبة الاسكوريال صورة لفيليب الثاني ، كنت أعلم أن المرء حين ينظر مواجهة الى وجه يحتضر بالحق ، فان هذا المحتضر ينقضي بعد لحظة ، ليخلف أثراً من رماد : وهذا الأثر هو الذي كان يهمني .

كان بارونين يَنمّ عن مقاومة جميلة . ولكن نظره انطفأ فجأة ، وأصبحت اللوحة شاحبة . ما الذي كان باقياً ؟ عينان عمياوان ، والفم الدقيق الشبيه بحية ميتة ، ووجنتان . وجنتا صبي شاحبتان مستديرتان : كانتا تتمددان على قماشة اللوحة . ولم يتسن لعمال جمعية S. A. B. ان لاحظوها قط : فانهم لم يكونوا يبقون في مكتب بارونين وقتاً كافياً لذلك . لقد كانوا ، اذ يدخلون ، يلتقون هذا النظر المريع كالجدار . وقد كان الخدان ، من الخلف ، في منجى ، أبيضين رخوين . ترى ، كم كان على زوجته ان تنفق من الوقت لتلاحظهما ؟ عامين ؟ خمسة أعوام ؟ أترى تصوّر انها ذات يوم ، اذ كان زوجها نائماً الى جانبها ، وشعاع من القمر يلامس أنفه ، أو حين كان يهضم في مشقة ، عند الظهر القائظ ، مستلقياً فوق أريكة ، وعيناه نصف مغمضتين ، وبقعة شمس على ذقنه ، جرؤت على أن تنظر اليه مواجهة : فاذا بهذا اللحم كله يبرز من غير حماية ، متورماً ، زائلاً ، فاجراً بغموض . ولا ريب في أن السيدة بارونين ، منذ ذلك اليوم ، قد تسلّمت القيادة .

خطوت بضع خطوات الى الخلف ، وشملت بنظرة واحدة جميع هذه الشخصيات الكبيرة : باكوم ، الرئيس هيبير ، الأخوين بارونين ، الجنرال

اوليري . كانوا قد اعتبروا جميعاً قيمات عالية ، وكانوا يلقون ، يوم الأحد ، في شارع اودنوبريه ، السيدة غراتيان ، زوجة المختار التي رأت القديسة سيسيل في نومها . فكانوا يوجهون لها تحيات احتفالية كبيرة ضاع سرّها .

كانوا قد رُسموا بدقة كبيرة ، ومع ذلك ، فان وجوههم كانت ، تحت الريشة ، قد جرّدت الضعف الخفي لوجوه الرجال . كانت ملامحهم واضحة كالخزف ، حتى اشدّها ضعفاً : عبثاً كنت ألتمس فيها قرابة ما مع الشجر والحيوان ، مع افكار الأرض او الماء . كنت اعتقد جيداً انهم لم يحسّوا بهذه الضرورة ، وهم على قيد الحياة . ولكنهم حين انتقلوا الى الخلود ، عهدوا بأنفسهم الى رسّام مشهور لكي تُحدث على وجوههم ، بصورة خفية ، تلك العمليات من الجرف والثقب والسقي التي غيّروا بها البحر والسهول حول مدينة بوفيل . وهكذا استعبدوا ، بمساعدة « رونودا وبوردوران » ، الطبيعة كلها : خارج نفوسهم وداخلها . ان ما كانت هذه اللوحات المعتمة تبديه لأنظاري ، انما كان هو الانسان ، مفكَّراً به ثانيةً من قبل الانسان ، مع اجمل فتح حققه الانسان ، كزينة وحيدة : باقة ، حقوق الانسان والمواطن ، اني معجب بحكم الانسان وسلطته ، من غير فكرة مبيّتة .

وكان سيد وسيدة قد دخلا . وكانا يرتديان السواد ويحاولان ان يتضاءلا . وقد توقفا مأخوذَين ، على عتبة الباب ، وحسر الرجل رأسه بآلية . فقالت المرأة منفعلة جداً :

— آه ، حسناً !

واستعاد الرجل برودته بأسرع منها ، وقال بلهجة احترام :

— انه عهد برمّته .

فقالت المرأة : — نعم ، انه عهد جدّتي .

وخطوا بضع خطوات ، فالتقيا بنظر جان باروتين . ولبثت السيدة فاغرة الفم . اما السيد ، فلم يكن مغتراً : كان يبدو بهيئة متواضعة ، ولا بدّ انه كان يعرف جيداً النظرات التي تبعث على الرهبة والجلسات المقتضبة . وقد جذب

زوجته من ذراعها على مهل وقال :

— انظري الى هذا :

كانت بسمة رتمي بارونين تعود دائماً بالراحة والرضى على المتواضعين ، واقتربت المرأة فقرأت في اجتهاد :

«صورة رتمي بارونين ، المولود في بوفيل ، عام ١٨٤٩ ، استاذ في مدرسة الطب بباريس ، بريشة روتوفا .»

قال زوجها : «بارونين ، من اكاديميا العلوم ، بريشة روتوفا عن «الانستيتو» . انه هنا من «التاريخ» ! »

فهزّت السيدة رأسها ثم نظرت الى «العالم الكبير» ، وقالت :

— كم هو جميل ، وكم يبدو ذكياً !

فأتى الزوج حركةً واسعة ، وقال ببساطة :

— ان هؤلاء جميعاً هم الذين صنعوا بوفيل .

فقالت السيدة بلهجة تعاطف :

— لقد احسنوا صنعاً بوضعهم جميعاً معاً ، هنا .

كنا ثلاثة جنود نقوم بعملية مناورة في هذه القاعة الواسعة . وكاد الزوج يضحك احتراماً ، في صمت ، ثم رماني بنظرة قلقة وكفّ فجأة عن الضحك . وقد استدرت وذهبت الزوج تجاه صورة اوليفيه بلافين . وغمرتني متعة طرية : الواقع اني كنت على حق . كان ذلك عجيباً حقاً !

وكانت المرأة قد اقتربت مني ، فقالت ، وقد تشجعت فجأة :

— — غاستون ، تعال !

فأقبل الزوج نحونا ، وتابعت المرأة :

— ان هناك شارعاً باسم هذا الرجل : اوليفيه بلافين . انعرفه ؟ ذلك الشارع الصغير الذي يتسلق «الراية الخضراء» ، قبل ان نصل الى جوكستابوفيل .

وأضافت بعد لحظة :

— انه لم يكن دمث الأخلاق .

— نعم ، ولا بد انه كان يعد كثيراً من المتحمسين الشرسين .

كانت العبارة موجهة اليّ . وقد نظر اليّ الرجل من زاوية عينه وأخذ يضحك في شيء من الصخب ، هذه المرة ، بهيئة متغطرسة متعمّدة ، كما لو انه كان هو نفسه اوليفيه بلافيني .

لم يكن اوليفيه بلافيني يضحك . كان يصوّب نحونا فكّه المتقلص ، وكان حلقومه بارزاً .

وحدثت لحظة صمت وانتشاء ، ثم قالت السيدة :

— لكأني به يهمّ بأن يتحرك .

فأوضح الزوج مراعاة :

— كان تاجراً كبيراً للفحم . ثم تعاطى السياسة ، وكان نائباً .

وكنت اعرف هذا . فقد سبق ان استشرت بشأنه « القاموس الصغير لرجال بوفيل الكبار » من وضع الأب موريليه . وقد نسخت المقال .

« بلافيني اوليفيه — مارسيال ، ابن السابق ، ولد ومات في بوفيل (١٨٤٩— ١٩٠٨) درس الحقوق في باريس وحصل على درجة الليسانس عام ١٨٧٢ ، وقد تأثر جداً بفتنة « الكومون » التي أجبرته ، ككثير من الباريسيين ، على اللجوء الى فرساي تحت حماية المجلس الوطني ، فأقسم ، وهو ما يزال في السنّ التي لا نحلم فيها الا بالملذات ، ان يكرّس حياته لإعادة النظام ، وقد اوفى بعهده : فمنذ عودته الى مدينتنا ، أسّس « نادي النظام » الشهير الذي كان يجمع كل مساء ، لمدة سنوات طويلة ، اهم تجار بوفيل ومجهّزيها ، وهو النادي الأرستوقراطي الذي قيل عنه ، على سبيل الفكاهة ، انه كان اكثر انغلاقاً من « الجوكي » ، احدث حتى عام ١٩٠٨ تأثيراً مفيداً على مقدرات مرفئنا التجاري الكبير ، وقد تزوج اوليفيه بلافيني ، عام ١٨٨٠ ، ماري — لويز باكوم ، صغرى بنات التاجر شارل باكوم (أنظر هذا الاسم) وأسّس ، عند موت هذا الأخير ، « دار باكوم — بلافيني واولادهما » وبعد ذلك بقليل ،

الفت الى السياسة الفعالة ورشح نفسه للنيابة .

« وقد قال في خطاب له مشهور ، ان البلاد تعاني اخطر مرض : وهو ان الطبقة الوسطى لا تريد ان تقود بعد ، فمن التي ستقود ، ايها السادة ، اذا كان اولئك الذين جعلتهم ثرواتهم وتربيتهم وتجربتهم أجدر الناس بممارسة السلطة ينصرفون عنها بداعي التخلي او التعب ؟ لقد سبق ان قلت غير مرة : ان القيادة ليست حقاً للنخبة ، بل هي واجبها الرئيسي ، اني اتضرع اليكم ايها السادة : لنعدْ مبدأ السلطة الى نصابه ! »

وقد انتخب في الدورة الاولى يوم ٤ تشرين الاول ١٨٨٥ ، واعيد انتخابه باستمرار منذ ذلك التاريخ . وقد ألقى بضعة خطب لامعة تميّز فيها بفصاحة قوية صلبة . وكان في باريس عام ١٨٩٨ حين انفجر الاضطراب الرهيب ، فانتقل بسرعة الى بوفيل حيث اصبح محرك المقاومة ، واتخذ مبادرة التفاوض مع المضربين . ولكن هذه المفاوضات التي أملتها روح مصالحة عريضة ، قُطعت بسبب وقيعة جوكنتاوفيل . ومعلوم ان تدخلاً سرياً قام به الجيش قد اعاد الهدوء الى النفوس .

وكان موت ابنه اوكتاف الذي دخل مدرسة البوليتكنيك وهو بعد فتيّ ، وكان يريد ان يجعل منه قائداً ، ضربة هائلة أصابت اوليفيه بلافيي في الصميم ، ولم ينهض بعد هذه الضربة ، فمات بعد ذلك بعامين في شباط ١٩٠٨ .

مطبوعات خطب : « القوى المعنوية » (١٨٩٤ ، نافد) ، « واجب الشباب » (١٩٠٠ . ألقيت جميع خطب هذه المجموعة بصدد قضية دريفوس ، نافد) « الارادة » (١٩٠٢ ، نافد) وقد جُمعت بعد موته خطبه الأخيرة مع بعض رسائل لأعضائه تحت عنوان Labor Improbus (دار بلون ١٩١٠) في علم الصور : ان له صورة ممتازة بريشة بوردورال في متحف بوفيل .

صحيح انها صورة ممتازة . وقد كان اوليفيه بلافيي يحمل شارباً صغيراً اسود . وكان وجهه الريفولي يشبه قليلاً وجه موريس باريس . ولا شك ان الرجلين قد تعارفا ، فقد كانا يجلسان على مقعد واحد . ولكن النائب بوفيل لم

يكن يملك لامبالاة رئيس «جامعة الوطنيين». كان عملاقاً كالغراوة، وكان ينبع من اللوحة كما ينبع شيطان من علبة. وكانت عيناه تقدحان شرراً: كان الوجه أسود والقرنية محمرّة. وكان يفرض شفتيه الصغيرتين الريانتين ويشدّ يده اليمنى على صدره.

لكم أقلقتني هذه الصورة! لقد كان بلافيي يبدو لي أحياناً مفرط الطول، وكان أحياناً أخرى يبدو لي مفرط القصر. أما اليوم، فإني أعرف ما كان أمامي.

كنت قد علمت الحقيقة وأنا أقلب جريدة «ساتيريك بوفيلوا». وكان عدد يوم ٦ تشرين الثاني ١٩٠٥ مخصصاً برمته لبلافيي. وقد صوّره على الغلاف صغيراً، معلقاً بطرف الأب كومب، مع هذه النكتة: «ظل الأسد». وكان كل شيء يتضح منذ الصفحة الأولى: كان طول أوليفيه بلافيي متراً وثلاثة وخمسين. وكانوا يهزأون بقامته القصيرة وصوته الضفدعي الذي جعل مجلس النواب، أكثر من مرة، ينفجر ضاحكاً. وكانوا يتهمونه بأنه يضع أكعاباً من الكاوتشوك لنعليه وبالمقابل، كانت السيدة بلافيي، وهي من أسرة باكوم، حصاناً. ويضيف المؤرخ قوله: «وهذا يعني أن ضعفه يساوي نصفها».

متر وثلاثة وخمسون! نعم، إن بوردو كان، بعناية فائقة، قد أحاطه بتلك الأشياء التي لا تعرّضه للصغر: مقعد منخفض محشوّ، أريكة واطئة، رفّ، طاولة فارسية صغيرة. على أنه منح القامة نفسها التي كان يملكها جاره جان باروان، وكانت للوحتين الأبعاد نفسها. وكان يتضح من ذلك أن الطاولة الفارسية الصغيرة المرسومة في اللوحة الأولى، كانت في مثل كبر الطاولة الثالثة المرسومة في الأخرى، وأن المقعد المنخفض المحشو كان بمحاذاة كتف باروان. وكانت العين تقوم بالمقابلة بصورة غريزية: وكان هذا مصدر انزعاجي.

أما الآن، فإن بي رغبة للضحك: متر وثلاثة وخمسون! لو أردت أن أتحدث إلى بلافيي، لوجب عليّ أن أنحني أو أنطوي على ركبتيّ. ولم أكن

لأدهش بعدُ أن يرفع الله في الهواء بمثل هذا التحدّي : ان قدّر الرجال الذين يملكون هذه القامة بِقَرار دائم على بعد بضع بوصات فوق رؤوسهم .

يا لقوة الفنّ المعجبة ! لن يفقد شيء من هذا الرجل القصير ذي الصوت الثاقب ، الا وجه مهدّد ، وحركة رائعة وعينان داميتان تشبهان عيني الثور . الطالب الاخير بسبب « الكوموتا » ، النائب القصير القادر : هذا ما اخذه الموت . ولكن الذي خلد ، بفضل بورديورات ، هو رئيس « نادي النظام » وخطيب « القوى الحيوية » .

— اوه ! يا « ليبم » الصغير المسكين !

كانت السيدة قد اطلقت صرخة مخنوقة : فقد كانت تحت صورة اوكتاف بلافيي ، « ابن السابق » ، عبارةٌ قصيرة خطّتها يدٌ تقيّة :

« مات في مدرسة البوليتكنيك عام ١٩٠٤ »

— لقد مات ! شأنه في ذلك شأن الابن اروندل . كان له مظهر الذكاء ، وكم شقّ ذلك على امه ، دون ريب ! والحقّ أنهم يرهقونهم جداً في تلك المدارس الكبيرة . ان العقل يعمل ، حتى في اثناء النوم . اما انا ، فأحب كثيراً هذه القبعات ذات القرنين ، انها توحي بالاناقة . هل هي تسمى « الكاسوار » ؟

— لا . ان قبعات « الكاسوار » يلبسها سكان سان – سير .

وتأمّلت بصورة طالب البوليتكنيك الذي مات صغيراً . والحق ان بشرته الشمسية وشاربه المفكّر يكفيان لإيقاف فكرة موت قريب . والواقع انه كان قد تنبأ بمصيره : فان نوعاً من الاستسلام يبدو في عينيه المشرقتين اللتين كانتا تتفقدان الى البعيد . ولكنه في الوقت نفسه ، كان يرفع رأسه عالياً ، وكان بهذا الثوب العسكري يمثل « الجيش الفرنسي » .

وردة مقطوعة . طالب في البوليتكنيك قد مات : اي شيء ادعى الى الحزن ؟

وسرت على مهل في الرواق الطويل ، محيّياً من غير ان اقف الوجوه النبيلة التي كانت تخرج من الظلّ : السيد بوسوار ، رئيس المحكمة التجارية ، السيد

فابي رئيس مجلس ادارة مرفأ بوفيل المستقل ، السيد بولانج ، التاجر مع اسرته ، السيد رانوكان ، عمدة بوفيل ، السيد غرنوسيان ، المولود في بوفيل ، سفير فرنسا في الولايات المتحدة وشاعر ، مجهول في ثياب المحافظ ، الام سانت ماري – لويز ، مديرة الميتم الكبير ، السيد والسيدة تيريزون ، السيد ثيوست – غورون ، المدير العام لمجلس الحكماء ، السيد بوبو المدير الرئيسي « للتسجيل البحري » ، السادة بروت ، ميينت ، غرولو ، لوفيفر ، الدكتور بان وزوجته ، بوردوران نفسه ، مرسوماً بريشة ابنه بيار بوردوران . نظرات خشّافة باردة ، ملامح دقيقة ، افواه رقيقة ، السيد بولانج كان ضخماً وصابراً ، الام سانت – ماري – لويز ذات تقى بارع ، السيد ثيوست – غورون كان قاسياً على نفسه قسوته على الآخرين . اما السيدة تيريزون فقد كانت تقاوم مرضاً خبيثاً من غير ان تتهين . وكان فمها المتعب الى ابعد حدّ يعبّر عن عللها تعبيراً كافياً ، ولكن هذه المرأة التقية لم تقل قط « اني متألمة » . وكانت تقاوم وتنتصر – كانت تشكّل جداول طعام وترأس جمعيات خيرية . وكانت احياناً ، وهي في وسط عبارة من العبارات ، تسبل جفنيها على مهل ، فتغادر الحياة وجهها . ولم يكن هذا الاسترخاء يدوم اكثر من لحظة ، فقد كانت السيدة تيريزون سرعان ما تفتح عينيها وتستأنف عبارتها . وكانوا يهمسون في الشغل : « مسكينة السيدة تيريزون ! انها لا تشكو ابداً » .

كنت قد عبرت صالة بوردوران – رونودا بكل طولها . والتفتت ، وداعاً ايتها الزنبقات الناعمة في معابدك المرسومة ، وداعاً ايتها الزنبقات الجميلة ، موضع فخرنا وسبب وجودنا ، وداعاً ايها « القذرون » .

الاثنين

انقطعت عن تأليف كتابي عن رولبون ، انتهى الأمر ، اني لا استطيع بعدُ ان اكتبه . فما الذي سأصنعه بحياتي ؟

كانت الساعة الثالثة . وكنت جالساً على طاولتي ، وكنت قد وضعت على

حيالي رزمة الرسائل التي سرقتها في موسكو ، وكنت اكتب :

« اهتمّ البعض بنشر عدد من الاشاعات المؤذية . ولا بد ان السيد دورولبون قد وقع في هذه المناورة ما دام قد كتب لحفيده ، بتاريخ ١٣ أيلول ، انه قد كتب وصيته » .

كان المركيز حاضراً : وبانتظار ان انجزه نهائياً في الوجود التاريخي ، كنت اعيره حياتي . وكنت أحسّ به حرارة" خفيفة في جوف معدتي .

وخطر لي فجأة اعتراض" لن يقصّر الناس في توجيهه اليّ : كان دورولبون بعيداً عن ان يصارح بالحقيقة حفيده الذي كان يريد ان يستعمله ، اذا فشلت قضيته ، كشاهد على بالقرب من بول الاول . فقد كان ممكناً جداً ان يكون قد اخترع قصة الوصية ليظهر بمظهر الساذج .

ولكن هذا اعتراض" تافه لا يثبت شيئاً . غير انه يكفي مع ذلك لإغراقي في حلم شرس . لقد تمثلت فجأة الخادم السمينة التي تعمل في مطعم « شي كميي » ، ورأس السيد اشيل الشارد ، والقاعة التي احسستني فيها منسياً ، متروكاً في الحاضر . وقلت لنفسي في ضجر :

« كيف استطيع ، انا الذي لم تكن لي قدرة حفظ ماضي" بالذات ، ان آمل امكان انقاذ ماضي رجل آخر ؟ »

واخذت ريشتي وحاولت ان اعود الى العمل ، وكان لديّ" ركام" كبير من هذه التأملات حول الماضي والحاضر والعالم . ولم اكن اطلب الا شيئاً واحداً : ان يتركوني أنهي كتابي بهدوء .

ولكن حين وقع بصري على دفتر الورق الأبيض ، أدهشني مظهره ، فبقيت ، وريشتي في الهواء ، أتأمل هذا الورق الباهر : كم كان قاسياً ولامعاً ، كم كان حاضراً ! لم يكن فيه شيء الا من الحاضر . ولم تكن الأحرف التي خططتها عليه قد جفّت بعد ، ومع ذلك فقد كفّت عن ان تخصّني .

« اهتمّ البعض بنشر الاشاعات المؤذية » ...

كنت قد فكّرت بهذه العبارة وتأملتها ، وقد كانت اولاً" بعض نفسي ،

إلا الآن . فقد حضرت في الورق ، فهي تقف كتلة ضدي . وأنا لا أعرفها بعد ، بل لم يكن بوسعي ان افكر بها ثانية . كانت هنا ، قبالتي . وعبثاً ما ألتمس فيها اشارة للمصدر الأصلي . إن بوسع كل انسان آخر ان يكتبها . ولكني ، أنا ، لم أكن متأكداً أني كتبتها . والأحرف الآن ، لم تكن بعد لتلمع ، بل كانت جافة . كان هذا أيضاً قد انقضى : لم يكن باقياً بعد شيء من التماعها الموقت .

وألقيت نظرة قلقة فيما حولي : حاضر ، ولا شيء غير الحاضر . أثاث خفيف وصلب ، ملبّد بحاضرها ، طاولة ، سرير ، خزانة ذات مرآة — وأنا نفسي . كانت طبيعة الحاضر الحقيقية تكشف عن نفسها : لقد كانت ما هو كائن ، وكل ما لم يكن حاضراً ، غير كائن . إن الماضي لم يكن كائناً . على الاطلاق . لا في الأشياء ، حتى ولا في فكري . صحيح أني ، منذ وقت طويل ، كنت قد فهمت ان ماضيّ قد فاتني . ولكني أظن ، حتى ذلك الحين ، انه انسحب بكل بساطة ، خارج متناولي . إن الماضي في نظري لم يكن إلا وضعاً في التقاعد : كان طريقة أخرى للوجود ، حالة من العطلة والاهمال ، إن كل حدث ، حين ينتهي دوره ، يدلف من تلقاء نفسه الى علبة ويصبح حدثاً شرفياً : فما أشق ان يتخيّل المرء العدم ! أما الآن ، فقد كنت اعرف : إن الأشياء هي برمتها ما تبدو عليه — و « خلفها » ... لا شيء .

واستغرقتني هذه الفكرة بضع دقائق أخرى ، ثم قمت بحركة كتفين عنيفة لأتحرر وجذبت نحوي دفتر الورق .

« ... انه قد كتب وصيته ! » .

وفجأة هزّني اهتزاز هائل ، وسقطت الريشة من يدي وهي تبصق حبراً . ما الذي حدث ؟ هل كنت أحس « الغثيان » ؟ لا ، لم يكن الأمر كذلك ، فقد كان للغرفة هيئتها الحانية اليومية . وكانت الطاولة تكاد تبدو لي أثقل فقط ، وأمتن ، وقلم حبري أكثف . كل ما في الأمر ان السيد دورولبون قد مات للمرة الثانية .

لقد كان الساعة هنا ، فيّ ، هادئاً وحاراً ، وكنت أحسّه ، بين الفينة والفينة ، يتحرك. لقد كان حياً جداً، أكثر حياة في نظري من « العصامي » أو من صاحبة ملهى « رانديفو دي شامينو » . لا شك في انه كانت له أهواؤه، وكان يمكن ان يبقى بضعة ايام من غير ان يظهر ، ولكنه كان غالباً ، في اوقات جميلة خفية، يخرج أنفه، كالكيوشي المختص بعلم قياس الرطوبة الجوية، فكنت ألمح وجهه الكامد وخدّيه الأزرقين . وحتى حين لم يكن يظهر ، كان يثقل على قلبي ، وكنت أحسني ممتلئاً .

أما الآن ، فانه لم يكن باقياً منه شيء . كما لم يكن باقياً على هذه الآثار من الحبر الجاف ، أكثر من ذكرى التماعها القريب . كانت تلك غلطتي : إن الكلمات الوحيدة التي كان ينبغي ألا تقال ، نطقتُ بها : أنت قلت إن الماضي لم يكن موجوداً . ودفعة واحدة ، في غير صخب ، عاد السيد دورولبون الى عدمه .

وتناولت رسائله في يديّ ، وحسستها في نوع من اليأس ، وقلت لنفسي : « انه هو ، انه مع ذلك هو الذي رسم هذه العلامات ، واحدة واحدة ، لقد استند الى هذا الورق ، ووضع إصبعه على الصفحات ليمنعها من ان تنقلب تحت ريشته » .

بعد فوات الأوان : هذه الكلمات لم يكن لها من معنى بعد . لم يكن ثمة ما هو موجود غير رزمة ورق اصفر كنت أشدّه بين يديّ . صحيح انه كان ثمة تلك القصة المعقدة : حفيد دورولبون الذي اغتاله عام ١٨١٠ شرطة القيصر ، وأوراقه المصادرة والمنقولة الى مركز « الاضبارات » السرية ، والمنقولة بعد مئة وعشر سنوات من قبل السوفييتات الذين استولوا على الحكم ، الى مكتبة الدولة حيث سرقتها عام ١٩٢٣ . ولكن ذلك لم يكن يبدو حقيقياً ، ولم أكن أحتفظ بأية ذكرى حقيقية من هذه السرقة التي ارتكبتها انا بالذات . ولتعليل وجود هذه الاوراق في غرفتي ، لم يكن صعباً العثور على مئة قصة أخرى أجدر بالتصديق ، إنما كلها ، تجاه هذه الأوراق الميتة ، ستبدو جوفاء خفيفة

كالفقاقيع. فبدلاً من ان أعتمد عليها ليتم الاتصال بيني وبين رولبون، سيكون من الافضل من الفور ان آخذ الى الطاولات الدائرة. ان رولبون لم يكن موجوداً بعد – على الاطلاق. ولئن كان قد بقي منه بعض العظام، فهذه تكون موجودة لذاتها، مستقلة كل الاستقلال، وهي ليست بعدُ إلا قليلاً من الفوسفات وكربونات الكلس مع أملاح وماء.

وقمت بمحاولة أخيرة، فردّدت كلمات مدام دوجانلي التي كنت أتذكر بها المركيز عادة: «وجهه الصغير المجعّد، النظيف النقي، المنقط بالجدري، كان ينبض بخبث فريد يقفز الى العينين مهما بذل من جهد لإخفائه».

وظهر لي وجهه بوداعة، وأنفه المقرّن، وخدّاه الأزرقان، وبسمته. وكنت استطيع بيسر ان أرسم ملامحه، وربما بسهولة أكثر من الماضي. غير ان ذلك لم يكن بعدُ إلا صورة فيّ، تخيلاً. وتنهدت، وتداعيت للانقلاب الى وراء، على مسند كرسيي، يراودني شعور خيبة لا يُحتمل.

دقّت الساعة الرابعة. ها قد مرّت ساعة على وجودي هنا، متدلي الذراعين فوق كرسيي. لقد بدأ الظلام يهبط. وباستثناء ذلك لم يتغيّر شيء في هذه الغرفة: إن الورق الابيض ما زال على الطاولة، قرب قلم الحبر والمحبرة... ولكني لم اكتب بعدُ ابداً على الورقة المدونة. ولن أقصد بعدُ أبداً دار الكتب، سالكاً شارع «المرتوليه» وجادة «لاروودوت»، لأطالع فيها الاخبارات.

إن بي رغبة لأن أقفز على قدميّ وأخرج، وأن أعمل أي شيء، لأتشاغل ولكني اذا رفعت اصبعاً، اذا لم أبق هادئاً كل الهدوء، فأنا أعرف جيداً ما سيحدث لي. إني لا أريد ان يحدث لي بعد. إن ذلك سيأتي دائماً قبل الأوان. إني لا أتحرك، وأنا أقرأ بآلية، على ورقة الدفتر، المقطع الذي تركته غير تام:

«لقد اهتم البعض بنشر الإشاعات المؤلمة. ولا بد ان السيد دوروول قد وقع

في هذه المناورة ، ما دام قد كتب حقيبته ، بتاريخ ١٣ أيلول ، أنه قد كتب وصيته » .

لقد انتهت قضية روليون الكبرى ، كما تنتهي عاطفة كبرى مهووسة ، فيبقى الجاد شيء آخر . حين كنت في شانغهاي ، منذ بضعة أعوام ، خرجت ذات مرة فجأة من حلم ، وكنت في مكتب مرسيه ، فاستيقظت . ثم حلمت حلماً آخر ، كنت فيه أعيش في بلاط القياصرة ، في قصور يقع من بروجها أن رواسب من الثلج كانت تتشكل في الشتاء ، فوق الأبواب . وأنا اليوم أستيقظ تجاه دفتر من الورق الأبيض . إن المشاعل ، والأعياد المثلجة ، والزيارات الرحبة ، والأكتاف الجميلة الراعشة ، قد اختفت كلها . وقد بقي بدلاً عنها «شيء» ما في الغرفة الثالثة ، شيء لا أريد أن أراه .

كان السيد دوروليون شريكي : كان بحاجة إليّ ليكون . وكنت بحاجة إليه حتى لا أحسّ بكينونتي . كنت أنا أقدّم المادة الخام ، هذه المادة التي كان عليّ أن أعيد بيعها ، والتي لم أكن أدري ماذا أصنع بها : الوجود «وجودي» . كانت مهمته هو أن يمثل . كان يقف قبالتي ، وكان قد استولى على حياتي لكي «يمثل» لي حياته . ولم أكن ألاحظ بعدُ أني كنت موجوداً ، لم أكن موجوداً بعدُ في "أنا" ، بل فيه ، كنت آكل ، وله كنت أتنفّس ، وكان لكل حركة من حركاتي معناها في الخارج ، هناك ، قبالتي تماماً ، فيه ، لم أكن أرى بعدُ يدي التي كانت ترسم الحروف على الورق حتى ولا الجملة التي كنت قد كتبتها — ولكن ، خلف ، فيما وراء الورقة ، كنت أرى المركيز الذي كان قد طالب بهذه الحركة التي كانت تمدّد الوجود وتثبّته . إني لم أكن إلا وسيلة لجعله يعيش . لقد كان سبب وجودي ، وكان قد حررني من نفسي . فما الذي سأعمله الآن ؟

المهمّ ألا أتحرك ، ألا أتحرك ... آه !

إن حركة الكتفين هذه ، لم أستطع أن أمسكها ...

إن الشيء الذي كان ينتظر ، قد تنبّه ، فانقضّ عليّ ، وذاب فيّ ، فأنا

فتلوثه به . انه يتحرك . انها ملامسات في كل مكان للجيوب وللتلقي . بعذوبة كبيرة . إن في فمي ماءً مزبداً ، وأنا أبتلعه فيسيل في حلقي ، ويداعبني — وها هوذا يولد من جديد في فمي . إن في فمي دائماً وأبداً بركة صغيرة من الماء المبيض — الخفي — يلامس لساني . وهذه البركة هي ايضاً أنا . وكذلك اللسان . والحلق هو أنا .

إني أرى يدي التي تنفتح على الطاولة . إنها تعيش — وهي انا . إنها تنفتح ، وتبسط الأصابع وترمي . انها مقلوبة على ظهرها . وهي تريني بطنها السمين . إنها تشبه حيواناً مقلوباً ، أصابعها هي أرجله . وأنا أتسلى بتحريكها ، بسرعة كبيرة ، كأرجل سرطان وقع على ظهره . السرطان ميت : والارجل تتكوّم وترتد الى بطن اليد . وانا أرى الأظافر — الشيء الوحيد الذي لا يحيا فيّ . ومرة اخرى ، تتقلب يدي ، وتنبسط على بطنها ، فهي توليني الآن ظهرها ، ظهر فضّي ، ملتمع بعض الشيء ... فكأنه سمكة ، لولا الزغب الاحمر عند منابت الاصابع . إني أحسّ بيديّ . انهما هذان الحيوانان اللذان يتحركان في نهاية ذراعيّ . وتحكّ يدي احدى هاتين الرجلين ، بظفر رجل أخرى ؛ وأحسّ ثقلها على الطاولة التي ليست إيّاي . انه طويل ، طويل ، هذا الشعور بالثقل ، وهو لا ينقضي . وليس ثمة سبب لكي ينقضي . انه ، لطول وقته ، يُحتمل . وأسحب يدي ، وأضعها في جيبي . ولكني أحسّ فوراً ، عبر القماش ، حرارة فخذي . وسرعان ما أسلّ يدي من جيبي . وأدعها تتدلى على مسند الكرسي . وها أنا الآن أحس ثقلها في طرف ذراعي . انها تثقل قليلاً ، مسترخية . انها كائنة . ولا ألحّ : اني حيثما وضعتها ، فانها ستستمر في الكينونة ، وسأستمر في الاحساس بأنها كائنة ، اني لا استطيع ان احذفها ، ولا ان أحذف بقية جسمي ، الحرارة الرطبة التي تلوّث قميصي ، ولا هذا الشحم الحار الذي يدور بكسل ، كما لو أنه يحرّك بالملعقة ، ولا جميع هذه الأحاسيس التي تتنزّه هنا في الداخل ، تروح وتجيء ، وتصعد من خاصرتي الى إبطي او تأسن ببطء ، من الصباح حتى المساء ، في ركنها المعتاد .

وأنهض منتفضاً : ليتني كنت استطيع الكف عن التفكير ، اذن لكان ذلك أفضل . ان الافكار هي أتفه شيء في الدنيا . أتفه من لحم الجسد . إنها تتمطى بلا انتهاء وتخلّف مذاقاً عجيباً . ثم ان هناك الكلمات ، داخل الافكار ، الكلمات غير الناجزة ، الرسوم الاجمالية للعبارة التي تعـــود دائماً وأبداً : « يجب ان انتهـ ... مات ... السيد دو رول ميت ... انا لست ... اني ... » تكفي ، تكفي ، وذلك لا ينتهي ابداً . وهذا أسوأ من الباقي لأنني أحسّني مسؤولاً ومتواطئاً . مثلاً ، هذا النوع من الاجترار المؤلم : « انني كائن » ، انا أنا الذي أغذّيه . انا . إن الجسم شيء يعيش وحـــده بمجرد ان يبدأ . أما الفكرة ، فأنا ، انا الذي يكملها ، يشرحها : اني كائن . وانا افكر بأني كائن . اوه ، يا للأنبوب الحلزوني ، هذا الإحساس بالكينونة ـ أدحرجه ، بكل تمهل ... ليتني أستطيع الامتناع عن التفكير ! وأحاول ، فأنجح : ويخيّل إليّ ان رأسي يمتلىء دخاناً ... وها ان الأمر يعود من جديد : « دخان ... عدم التفكير ... لا أريد ان افكر ... افكر بأنني لا أريد ان افكر . يجب ألا افكر بأني لا أريد ان افكر ، فهذا ايضاً تفكير » . أترانا لن ننتهي أبداً ؟

إن فكرتي هي « أنا » : من اجل هذا لا أستطيع ان اتوقف . انني كائن لأني افكر ... ولا استطيع الامتناع عن التفكير . في هذه اللحظة بالذات ـ وهذا فظيع ـ اذا كنت كائناً ، فذلك « لأني » أستفظع ان أكون . انا ، انا الذي أسحب نفسي من العدم الذي أنشده : فالكراهية ، والنفور من ان اوجـــد ، هما طريقتان لأن « أوجد » نفسي ، لأن اغرق في الكينونة . إن الافكار تولد من خلفي كالدوار ، وانا أحسّها تولد خلف رأسي ... فاذا استسلمت ، فانها ستأتي الى قدّام ، بين عيني ـ وانا أستسلم دائمـــاً ، فتكبر الفكرة وتكبر ، وها هي ذي هائلة تملأني برمتي وتجدّد كينونتي .

إن لعابي سكّر ، وجسمي دافىء ، اني أحسّني تفهاً . وهـــذه مديتي موضوعة على الطاولة . فلأفتحها . ولِمَ لا ؟ إنّ في هذا تغييراً ، على أي حال . وأضع يدي على دفتر الورق وأطعن راحتي بالمدية طعنة جيدة . ولقد كانت

الحركة مفرطة العصبية ، ولذلك انزلقت الشفرة ، فكان الجرح سطحياً. ونزف الدم . وبعد ذلك ؟ ما الذي تغيّر ؟ ومع ذلك ، فأنا أنظر برضى ، على الورقة البيضاء ، عبر سطور كتبتها الساعة ، الى هذه البركة الصغيرة من الدم التي كفّت أخيراً عن ان تكون انا . اربعة اسطر على ورقة بيضاء ، لطخة دم ، إن هذا هو ما يشكل ذكرى جميلة . وينبغي ان اكتب تحتها : «هذا اليوم ، عدلت عن تأليف كتابي عن المركيز دو رولبون» .

هل تراني سأعنى بتضميد يدي ؟ إنني أتردد . وأنظر الى مسيل الدم الرتيب . هوذا يتجمّد. لقد انتهى الأمر. إن بشرتي تبدو صدئة حول الجرح. وتحت الجلد ، لا يبقى إلا إحساس صغير كالأحاسيس الاخرى ، وربما كان أتفه منها .

هذه هي الساعة تدق النصف بعد الرابعة . وأنهض ، فيلتصق قميصي البارد بلحمي . وأخرج . لماذا ؟ الحق اني افعل ذلك لأنه ليس ثمة من الاسباب ما يدعو الى عدم فعله. حتى ولو بقيت، حتى ولو قبعت صامتاً في إحدى الزوايا، فانني لن أنسى نفسي . سأكون هناك ، وسأثقل على الارض الخشبية . اني كائن .

وأبتاع صحيفة في هذه الاثناء. خبر هام. لقد عُثر على جسم لوسيان الصغيرة! رائحة حبر ، والورق يندعك بين أصابعي . لقد لاذ المجرم القذر بالفرار . والطفلة قد هُتكت . وقد عُثر على جسمها ، وأصابعها متشنجة في الوحل . وأكوّم الجريدة بشكل كرة ، اصابعي متشنجة على الجريدة ، رائحة حبر ، يا إلهي ، إن الاشياء كائنة اليوم بشكل قوي . لقد هُتكت الصغيرة لوسيان. وخنقت . ما زال جسمها كائناً ، ولحمها مثخناً . « انها » غير كائنة بعد . يداها . انها غير كائنة بعد . البيوت . اني أمشي بين البيوت ، اني بين البيوت ، منتصباً على الارض المبلطة ، البلاط تحت قدميّ كائن ، والبيوت تنطبق عليّ ، كما ينطبق الماء عليّ ، اني كائن . اني كائن ، موجود ، أفكر فانا اذن موجود ، اني كائن لأني أفكر ، لماذا تراني أفكر ؟ اني لا أريد أن

أفكر بعد ؛ اني كائن لأني أفكر بأني لا اريد ان اكون، افكر بأني ... لأني... آلف ! وأهرب ، لقد هرب القدر ، جسمها المهتوك . لقد أحسّت بذلك النعم الآخر الذي كان يتزلق في لحمها ، اني ... عوقاً ... مهتوكة . إن رغبة هتك طبقة دامية تأخذني من الخلف ، عنيفة جداً ، خلف أذني" ، والأفتان تهربان خلفي ، والشعر الاحمر ، انه امر حل رأسي ، عشب" مبلل ، عشب احمر ، أهلا انا بعد ؟ وهذه الجريدة ، أعني أنا بعد ؟ الإمساك بالجريدة كينونة ضد كينونة ، الاشياء تكون بعضها ضد بعض ، وأترك هـــذه الجريدة ، وينتش البيت ، انه كائن ، وأسير امامي ، بمحاذاة الجدار ، بمحاذاة الجدار الطويل انا كائن ، امام الجدار ، خطوة ، الجدار كائن أمامي ، واحد اثنان ، واليزة اصبع تحك" في سروالي تحك ، تحك ويسحب اصبع المصفرة الملوّث بالوحل ، الوحل على إصبعي يخرج من المجرى الموحل ويسقط على مهل ، على مهل ، يبح ، تحك" بأضعف مما تحك" أصابع الصغيرة التي كانت تحتك ، المجرم القذر ، كانت تحك" الوحل ، الارض بأضعف ، الاصبع يتزلق على مهل ، الرأس يسقط اولاً" ويتداعب متدحرجاً حار" ؟ يراه مخدتي ، ان الكينونة رخوة تتدحرج وتهتز ، انا أهتز بين البيوت . انا كائن ، موجود ، افكر فانا اذن اهتز ، انا كائن ، الوجود سقطة ، لا يسقط ، يسقط ، الإصبع يحك الشبك ، الوجود شيء ناقص ، غير كامل . السيد ، السيد الجميل كائن . السيد يشعر بأنه كائن . كلا ، ان السيد الجميل الذي عبر ، مزهواً رقيقاً كاللبلاب الارجواني ، لا يشعر بأنه كائن ، تتفتح ، إذ يدي المجروحة تؤلمني ، كائنة ، كائنة ، كائنة ، إن السيد الجميل كائن وسام جوقة الشرف ، كائن شاربين ، هذا كل شيء . لا بد ان المرء سعيد جداً بألا يكون إلا وسام جوقــة الشرف ، ولا شاربين ، والباقي لا يراه احد ، انه يرى طرفي شاربيه المقرّنين من جهتي الأنف كليهما ، اني لا أفكر ، فانا اذن شاربان . انــه لا يرى جسمه الهزيل ، ولا قدميه الكبيرتين ، ولن يبحث في جوف البنطلون يجد حتماً زوجاً من الحاصي الرمادية الصغيرة ، انه يحمل وسام جوقة الشرف ، إن الشاربين يحق لهم ان

يكونوا : « اني كافٍ لأن هذا حقي وحقٌ لي ان اكون ، وان حقٌ لي الا افكر ؛ ويرتفع الإصبع . اتراني سوف ... ؟ أذاهب في تفتيح الاغطية البيضاء اللحم الابيض المتفتح للذي يعود فيرخي بجلدية ، والمس رطوبات الإبطين المزدهرة ، إكسير اللحم وسائله وإشراقه ، وأدخل كينونة الآخر ، الحلمات الحمراء ، رائحة الكينونة العلية ، وأحسّني كأنما بين الشفاه الرقيقة المبللة ، الشفاه الحمراء بالدم الأسفر ، الشفاه النابضة التي تتثاءب مبللة بالكينونة ، مبللة بصديد فاتح ، بين الشفاه المبللة المسكّرة التي تدمع كالعيون ؟ جسمي اللحمي الذي يجيش ، اللحم الذي يتعلى ويحمض على مهل سوائل ، حمضٌ قشدة ، اللحم الذي يحمض ، حمضٌ ، حمضٌ ، ماء حمي العذب المسكّر ، دمٌ يلتمس ، اني اتوجّع وجعاً عذباً في لحمي المتحن الذي معي ، أمشي ، اقرّ ، اني انسان قذر ذو لحم متجن ، اللحن كينونة لهذه الجدران . اشعر بالبرد ، اخطو خطوة ، اشعر بالبرد ، خطوة ، انعطف الى اليسار ، ينعطف الى اليسار ، يفكر أنه ينعطف الى اليسار ، مجنون هل انا مجنون يقول انه ينبغي الا يكون مجنوناً ، الكينونة ، هل ترغب ايها الصغير في الكينونة ، يتوقف ، الجسم يتوقف ، يفكر انه يتوقف ، من اين هو قادم ؟ ما الذي يفعله ؟ وتعقبني من جديد ، حالماً ، حالماً جداً ، انسان قذر ، الشهوة كالضباب ، الشهوة ، الاشمئزاز ، يقول انه مشمئز من ان يكون ، ايكون مشمئزاً ؟ متعبٌ من اشمئزازه من ان يكون . ويعدو . ما الذي يملؤه ؟ يعدو هارباً . أيلقي بنفسه في الحوض ؟ انه يعدو ، والقلب ، القلب الذي يخفق عيد . القلب كائن ، والساقان كائنتان ، والتنفّس كائن ، انها كائنة وهي تعدو ، وتلهث ، وتخفق بعذوبة ، تلهث وتبهرني ، يقول انه يلهث ، ان الكينونة تأخذ افكاري من الخلف ، وعلى مهل تفتحها « من الخلف » ، اني لأوخذ من الخلف ، وأُقسر من الخلف على التفكير . اذن علي ان اكون شيئاً ما يلهث خلفي فقاقيع كينونة خفيفة ، انه فقاعة ضباب شهوة ، انه شاحب امام المرآة كالميت ، ان رولبون ميت ، وانطوان روكانتان ليس ميتاً ، ليتني يُغمى علي : يقول انه يود لو

يمي عليه ، ويصحو ، يعدو الفضولي (من الخلف) من الخلف ، من الخلف ، لومي الصغيرة التي هوجمت من الخلف ، وهُتكت بالكينونة من الخلف ، انه يطلب الرحمة ، يخجل من طلب الرحمة ، الشفقة ، النجدة ، النجدة انني انا كائن ، ويدخل في حالة المارين ، . المرايا الصغيرة في الماخور الصغير ، انه ممتقع الوجه في المرايا الصغيرة بالماخور الصغير الرجل الطويل الأحمر الشعر الذي يتداعى للسقوط على المقعد الصغير ، الفوتوغراف يغنّي ، يكون ، كل شيء يدور ، الفوتوغراف كائن ، القلب يخفق : دوري ، دوري يا سوائل الحياة ، دوري عاشقة ، سوائل حبي ، عذوبات ... الفوتوغراف .

When the low moon begins to beam
Every night I dream a little dream

ان الصوت يظهر فجأة ، غضاً أبحّ ، ويملأني العالم ، عالم الكينونات . ان هذا الصوت هو لامرأة من لحم ، لقد غنّت امام اسطوانة ، وهي في اجمل زينتها ، وكانوا يسجلون صوتها . المرأة : كانت كائنة مثلي ، مثل رولبون ، ليست لدي "رغبة" في معرفتها . ولكن هناك هذا . ان المرء لا يستطيع ان يقول بأن تلك كائن . ان الاسطوانة التي تدور كائنة ، والنغم الذي يضربه الصوت ، فيرتعش ، كائن ، وقد كان الصوت الذي أثّر في الاسطوانة . وانا الذي أسمع ، كائن . كل شيء ممتلىء ، الكينونة في كل مكان ، كثيفة وثقيلة وحلوة . ولكن فيما وراء هذه العذوبة ، التي لا تُدرك ، القريبة كل القرب ، البعيدة مع الأسف ، الفتية القاسية الهادئة ، كانت ثمة .. تلك الصرامة .

الثلاثاء

لا شيء . كائن .

الأربعاء

هناك دائرة شمس على الخوان الورقي . وفي الدائرة ذبابة تجر" نفسها ،

عذرة ، وكنعاً وتحك رجليها الأماميتين احداهما بالأخرى . سأؤدي لها خدمة ان استحقتها . انها لا ترى هذا الإصبع العملاق الذي يلمع رجليه في الشمس . لا تراه يتجسس . وصاح العصامي :

– لا تقتلها ، يا سيدي !

وتنفجر ، وتخرج امعاؤها الصغيرة البيضاء من بطنها ، لقد خلّصتها من الحياة . وأقول للعصامي عندئذ :

– كانت هذه خدمة تؤدّى لها .

ماذا تراني هنا ؟ — ولماذا لا اكون هنا ؟ انه الظهر ، وانا انتظر ساعة النوم . (من حسن الحظ ان النوم لا يهرب مني) . سأرى آني من جديد ، بعد اربعة ايام . وهذا هو ، في هذه اللحظة ، المبرر الوحيد لحياتي . وبعد ذلك ؟ حين تتركني آني ؟ انني اعلم جيداً ما اؤمّله ، خفية : اؤمّل الا تتركني بعد ابداً . على انه ينبغي لي ان اعرف جيداً ان آني لن ترضى ابداً بأن تشيخ امامي . انني ضعيف ووحيد ، وانا بحاجة اليها . وقد كنت اودّ لو اراها في قوتي : فإن آني قاسية على ما هو حطام .

– هل انت بخير يا سيدي ؟ هل تحسّ انك بخير ؟

وينظر العصامي اليّ بطرف ضاحك . انه يلهث قليلاً ، فاغر الفم ، ككلب فاقد انفاسه . واعترف : اني كنت هذا الصباح سعيداً برؤيته ثانية ، فقد كنت محتاجاً الى ان اتكلم .

وقال : — كم انا سعيد بأن تكون على طاولتي . اذا كنت تشكو البرد ، فان بوسعنا ان نجلس قرب المدفأة . ان هذين السيدين على وشك ان يذهبا ، فقد طلبا حسابهما .

ان احداً يهتمّ بي ، ويتساءل عما اذا كنت اشكو البرد ، وانا اتحدث الى رجل آخر : ان ذلك لم يحدث لي منذ سنوات .

– لقد نهضا ، فهل تريد ان نغيّر مجلسنا ؟

واشعل السيدان لفافتين ، وخرجا ، هاهما في الهواء النقيّ ، في الشمس ،

إنهما يحاذيان الواجهات الكبيرة وهما يتسكعان بطيئين . إنهما يضحكان ، ويلمع الهواء معطفيهما . لا ، لا أريد أن أغيّر مجلسي . ما جدوى ذلك ؟ ثم إنني أرى ، عبر الزجاج ، بين سقوف الحمامات البيضاء ، البحر الأخضر الكثيف .

وأخرج العصامي من محفظته مستطيلين من الورق المقوى البنفسجي . إنه سيعطيهما الساعة إلى الصندوق . وأقرأ على قفا أحدهما :

« دار بوتانيه ، مطبخ بورجوازي .
« الغداء بسعر محدّد : ٨ فرنكات .
« مقبّلات حسب الطلب .
« لحم مع خضار .
« جبن أو حلوى .
« ١٤٠ فرنكاً ثمن الـ ٢٠ قرصاً »

هذا الرجل الذي يأكل على الطاولة الصغيرة ، قرب الباب ، إنني أتذكّره الآن : إنه غالباً ما يهبط إلى فندق بريتانيا ، وهو تاجر رحّالة . إنه يضع عليّ ، بين الفينة والفينة ، نظره المنتبه الباسم ، ولكنه لا يراني ، فهو شديد الاستغراق في مراقبة ما يأكل . وفي الجانب الآخر من الشرب ، أرى رجلين آخرين قصيرين يتذوّقان الصدف وهما يشربان خمراً أبيض . وأصغرهما ، وهو ذو شارب دقيق أصفر ، يروي قصة يتسلّى بها هو نفسه . ويتوقف مبطئاً ويضحك ، كاشفاً عن أسنان ناصعة . أما الآخر ، فلا يضحك ، إن عينيه قاسيتان . ولكنه غالباً ما يومىء برأسه « نعم » . وبالقرب من النافذة ، رجلٌ هزيل أسمر ، ذو ملامح متميّزة ، وشعر جميل أبيض مسرّح إلى خلف ، يقرأ جريدته بتفكّر . وقد وضع على المقعد الخشبي ، إلى جانبه ، محفظة جلدية . وهو يشرب ماء فيشي . إن هؤلاء الأشخاص سيخرجون جميعاً بعد لحظة ، وسيكونون مثقلين بالطعام ، يداعبهم النسيم ، ومعاطفهم مفتوحة ، ورؤوسهم حارّة بعض الشيء ، صاخبة بعض الشيء ، فيما هم يسيرون

بمحاذاة الدرابزون وهم ينظرون الى الاطفال عند الشاطىء والى السفن في البحر ، سيذهبون الى المطاعم . اما انا ، فلن اذهب الى اي مكان ، لأني لا عمل لي .

ويضحك العصامي ببراءة ، وتداعب الشمس شعره القليل :

– أتريد ان تختار طعامك ؟

ومدّ لي لائحة الطعام : انّ لي الحق بصحن مقبلات حسب الطلب : فاما خمس قطع صغيرة من النقانق ، او بعض الفجل ، او بعض السرطان الرمادي او صحيفة كرفس حامض ، اما بزّاق « بورغوني » فهو إضافي .

وقلت للخادم : – أعطني صحن نقانق .

فانتزع اللائحة من يديّ قائلاً :

– أليس هناك ما هو أفضل ؟ هنا بزّاق بورغوني .

– الواقع اني لا احب البزّاق كثيراً .

– خذ إذن محاراً .

قال الخادم : – إن ثمنه يزيد اربعة فرنكات .

– أعطنا اذن محاراً ، يا آنسة ، ولي انا صحيفة فجل .

وشرح لي وقد احمرّ وجهه :

– اني احب الفجل كثيراً .

وأنا ايضاً .

وسأل : – وبعد ذلك ؟

فاستعرضت لائحة اللحوم . ان لحم البقر المطبوخ جدير به ان يغريني ، ولكني اعلم سلفاً انه سيقدم لي صحن فراخ ، فذلك هو اللحم الاضافي الوحيد . قال : – يا آنسة ، اعطي السيد صحن فراخ . اما انا ، فصحن لحم بقر مطبوخ .

وقلب اللائحة : كانت الخمور على القفا ، وقد قال بلهجة احتفالية :

– سنأخذ قدحي خمر .

قالت الخادم : — اراك تغيّر عادتك ! فانت لا تشرب الخمر قط .

— ولكني استطيع ان احتمل قدح خمر بالمناسبة . فهل تريدين يا آنسة ان تعطينا قنينة من خمر اخر ؟

ووضع العصامي اللائحة ، وقطع رغيفه قطعاً صغيرة وفرك صحنه فنشفه . ورمى نظرة الى الرجل ذي الشعر الأبيض الذي يقرأ جريدته ثم ابتسم لي :

— اني اجيء الى هنا بصحبة كتاب ، على الرغم من ان طبيباً قد نصحني بألاّ أفعل : فان المرء في هذه الحالة يأكل بسرعة مفرطة ولا يمضغ . ولكن لي معدة نعامة ، واستطيع ان ألتهم أيّ شيء . في شتاء ١٩١٧ ، حين كنت اسيراً ، كان الطعام من الرداءة بحيث سقط الجميع مرضى . وبالطبع تظاهرت بأني مريض كالآخرين ، ولكني لم اكن اشكو شيئاً .

لقد كان أسير حرب . انها المرة الاولى التي يحدّثني فيها عن ذلك : وأكاد لا اصدّق . فانا لا استطيع ان اتصوّره إلاّ عصامياً .

— اين كنت اسيراً ؟

لم يجب . وقد وضع شوكته وجعل ينظر اليّ بكثافة عجيبة . انه على أهبة ان يحدّثني عن همومه ، وأتذكّر الآن ان شيئاً ما كان غير طبيعي في دار الكتب . وأرهفت سمعي : انني لا أطلب إلاّ ان اشفق على هموم الآخرين ، فان ذلك سيغيّرني . ليس لي هموم ، وانا املك المال كأصحاب الايرادات ، لا رئيس لي ، ولا امرأة ولا اولاد : كل ما هنالك اني كائن . وهذا لهمّ مبهم جداً ، ميتافيزيقي جداً ، حتى اني اشعر منه بالخجل .

لم يكن يبدو على العصامي انه يريد ان يتكلم . وأية نظرة فضولية يرميني بها : ليست هي نظرة الرؤية ، وانما هي تواصل الارواح . لقد صعدت روح العصامي حتى عينيه الرائعتين ، عينَي الأعمى ، التي كانت تحملها بمستوى واحد . فتفعل روحي مثل ذلك ، انأت فتلصق أنفها بالزجاج : انهما كلتيهما ستبادلان عبارات اللياقة والتأدّب .

اني لا اريد تواصل ارواح . فلم انحدر الى هذا المستوى . اني اتقهقر .

ولكن العصامي يقدّم صدره فوق الطاولة ، من غير ان ينزع عني بصره . ويحمل له الخادم صحن الفجل ، من حسن الحظ ، فيتداعى من جديد على كرسيّه ، ويخفي وجهه من عينيه ، ويأخذ يأكل بوداعة .

– هل صفّيت همومك ؟

فانتفض وقال بلهجة مذعورة :

– اية هموم ، يا سيدي ؟

– تلك التي حدثتني عنها في ذلك اليوم ، كما تعرف .

فاحمرّ احمراراً شديداً ، ثم قال بصوت جاف :

– ها ! نعم ، ها ! ذلك اليوم . اجل ، ان ذلك الكورسيكي يا سيدي ، كورسيكي دار الكتب .

وتردّد مرة اخرى ، وعليه هيئة نعجة عنيدة .

– ان هذه يا سيدي ثرثرات لا اريد ان ازعجك بها .

ولم ألحّ . كان يأكل بسرعة عجيبة ، من غير ان يبدو عليه ذلك ، وكان قد انهى فعلاً حين جاءني بالمحار . ولم يبق الا في صحنه لا كومة من اطراف خضر وقليل من ملح مبلل...

وفي الخارج ، توقّف شخصان شابّان امام لائحة الطعام التي كان طبّاخ كرتوني يقدّمها لهما بيده اليسرى (وكان يمسك في اليمنى موقداً لقلي) وتردّدا . كانت المرأة تشعر بالبرد ، وقد ادخلت ذقنها في ياقتها الفروية . ثم يكون الشاب اول من يقرّر ، فيفتح الباب ويتنحّى ليترك لرفيقته ان تمر .

وتدخل . وتنظر لما حولها ، بهيئة لطيفة وهي ترتعش قليلاً ، ثم تقول بصوت خشن :

– ان الطقس حارّ .

ويغلق الشاب الباب خلفه وهو يقول :

– انها الساقة والسيقانات .

فيلتفت العصامي ويقول بلطف :

— ايها السادة والسيدات .

فلا يجيب الزبائن الآخرون ، ولكن السيد الأنيق يخفض جريدته قليلاً ويرقب القادمَيْن الجديدين بنظرة عميقة .

— شكراً ، لا يحتاج الأمر هذا الجهد .

وقبل ان تتمكن الخادم ، وقد اقبلت لمساعدة الشاب ، من ان تأتي ايما حركة ، نزع مشمّعه . كان يرتدي ، بدلاً من السترة ، صدرة من جلد ذات سحاب . والتفتت الخادم نحو المرأة الشابة ، وقد أصيبت ببعض الخيبة ، ولكنه اقدمها وساعد رفيقه ، بحركات لطيفة دقيقة ، على خلع معطفها . وجلسا بقربنا ، احدهما لصق الآخر ، ولم يكن يبدو عليهما انهما متعارفان منذ وقت طويل . وكان للمرأة الشابة وجه متعب نقيّ ، مقطّب ببعض الشيء ، ورفعت فجأة فمها ونفضت شعرها الأسود وهي تبتسم .

وتأمّلها العصامي طويلاً ، في خيبة ، ثم استدار اليّ وغمزني بحزم عطوفاً ، كما لو انه كان يريد ان يقول : «وما اجملها !»

انهما غير قبيحين . وهما يلتزمان الصمت ، سعيدين ان يكونا معاً ، سعيدين ان يراهما الناس معاً . حين كنا ، انا وآني ، ندخل احياناً مطعماً في بيكاديلي ، كنا نُحسّ انفسنا موضوع تأمّلات عطوف . كانت آني تنزعج من ذلك ، اما انا فاعترف بأني كنت محبوراً بعض الشيء بذلك . كنت مخصوصاً مندهشاً ، انه لم يسبق لي قط ان ظهرت بمظهر النظافة الذي يناسب هذا الشاب كل المناسبة ، بل لا يمكن القول بأن قبحي كان مثيراً . غير اننا كنا شابّين : اما اليوم، فانا في سن اعطف على شباب الآخرين، ولكني لم أعطف. كان للمرأة عينان عاتمتان معتمتان ، وكان للشاب بشرة برتقالية ، محببة بعض الشيء ، وذقن صغيرة الحادة . صحيح انهما يؤثران في نفسي ، ولكنهما ايضاً يثيران اشمئزازي قليلاً . اني احسّهما جدّ بعيدين عني : الحرارة تفتّرهما ، وهما يتابعان في قلبيهما حلماً واحداً ، ما اعذبه وما اضعفه ! انهما راضيان ، ينظران بثقة الى الجدران الصفر ، والى الناس، ويجدان أن العالم جيد كما هو،

كما هو تماماً ، وكل منهما ، في الظاهر ، يستمد معنى حياته من حياة الآخر . انهما كلاهما لن يلبثا ان يصنعا حياة واحدة حياة بطيئة دافئة لن يكون لها بعدُ أي معنى — ولكنهما لن يلحظا ذلك .

يبدو عليهما ان احدهما يرهب الآخر . وأخيراً أخذ الشاب ، بيد مرتبكة وعازمة ، يد رفيقته بأطراف أصابعه . انها تتنفس بقوة . وظلا مائلاً معاً فوق لائحة الطعام . أجل ، انهما سعيدان . ثم ، ماذا ؟

وكسا العصامي وجهه بسيماء الانشراح والتسلية الغامضة بعض الغموض .

— لقد رأيتك امس الاول .

— أين ؟

فقال محاولاً ان يكلمني باحترام :

— ها ! ها !

وجعلني انتظر لحظة ، ثم :

— كنتُ خارجاً من المتحف .

فقلت : — آه ، ليس أمس الاول ، بل السبت .

فلا شك في اني لم اكن امس الاول أملك الجرأة على زيارة المتحف .

— هل رأيت تلك اللوحة من الخشب المحفور التي تمثل محاولة اغتيال اورسيني ؟

— اني لا أعرفها .

— أهذا ممكن ؟ انها في قاعة صغيرة الى اليمين ، وأنت داخل . انها عملُ متمرد من « الكومونه » ، عاش في بوفيل حتى العفو العام ، مختبئاً في مخزن للحبوب . وكان قد أراد ان يبحر الى اميركا ، ولكن شرطة المرفأ هنا شديدة اليقظة . انه رجل يثير الاعجاب . وقد استعمل اوقات فراغه الاجبارية على نحت لوح كبير من السنديان ، ولم يكن لديه وسائل غير مديته ومبرد أظافر . وكان يصنع القطع الدقيقة بالمبرد : اليدين ، العينين . وكان طول اللوح متراً وخمسين وعرضه متراً . واللوحة كلها قطعة واحدة ، وفيها سبعون شخصاً ،

كل منهم بحجم بشري ، بالإضافة الى الحصانين اللذين يجرّان مركبة الامبراطور. والوجوه ، يا سيدي ، هذه الوجوه المنحوتة بالمرمر ، تحطك كلهـا سهاماً ، وهي ذات هيئة بشرية . اذا سمحت لنفسي ، يا سيدي ، لقلت لك ان هذا أثرٌ جديرٌ بأنْ يُرى .

ولم أرد أن ألتزم :

— كنت أريد بكل بساطة ان أرى لوحات بوزدوران من جديد .

فاغتمّ العصامي فجأة ، وقال في بسمة راعشة :

— تلك اللوحات المعلقة في القاعة الكبيرة ؟ اني يا سيدي لا افقه شيئاً من الرسم . صحيح انه لا يفوتني ان بورزدوران رسام كبير ، وأنا أرى جيداً أنه صاحب ملمس وحذق ، كما يقولون . ولكن المتعة ، المتعة الجمالية مجهولة عندي .

قلت له في ودّ :

— وأنا كذلك ، بالنسبة للنحت .

— آه ، يا سيدي ! انا ايضاً ، مع الأسف ، وبالنسبة للموسيقى ، وبالنسبة للرقص . غير أني لا أخلو من بعض المعلومات . والحق انه شيء غير معقول : قد رأيت شباناً لم يكونوا يعرفون نصف ما اعرف ، ولكنهم اذا وقفوا أمام لوحة ، يبدون وهم يُحسّون متعة .

قلت له بلهجة مشجعة :

— لا بد أنهم يتظاهرون .

— ربما ...

وحلم العصامي قليلاً :

— إنما يحزنني ، ليس هو حقاً أن أكون محروماً من نوع من المتعة ، بقدر ما يحزنني ان أكون غريباً عن فرع برمته من النشاط الانساني ... ومع ذلك فأنا انسان ، و « بشرٌ » هم الذين صنعوا هذه اللوحات ...

واستطرد فجأة وقد تغيّر صوته :

— لقد خاطرت مرة ياسيدي في التفكير بأن الجمال ليس إلا قضية ذوق . أليس هناك قواعد مختلفة لكل عصر ؟ هل تسمح لي ، يا سيدي ؟

ورأيته ، وأنا مندهش ، يسحب من جيبه دفتراً صغيراً من الجلد الأسود . فيقلب صفحاته لحظة : صفحات كثيرة بيضاء ، ومن بعيد لبعيد ، بضعة أسطر مكتوبة بالحبر الاحمر . وقد أصبح كله مصفراً . وقد وضع الدفتر على الخوان ، ووضع يده الكبيرة على الصفحة المفتوحة ، وعلل لي ارتباكه :

— تخطر على بالي احياناً ، لا أجرؤ ان أقول افكار ، وذلك غريب جداً : اني هنا أقرأ ، وفجأة ، ولا أدري مصدر ذلك ، أحسّني ملهماً . ولم أكن أهتم لذلك بادىء ذي بدء ، ثم صحّ عزمي على ان أبتاع دفتراً .

وتوقف ينظر إليّ : إنه ينتظر .

قلت : — آه ! آه !

— هذه الحكم ، يا سيدي ، هي طبعاً مؤقتة : فان ثقافتي لم تكتمل .

وأخذ الدفتر بيديه المرتجفتين فبدا شديد الانفعال :

— هذه بعض أشياء عن الرسم بالذات ، وسأكون سعيداً اذا سمحت لي بأن أتلوها عليك .

قلت : — بكل رضى .

يقـــرأ :

— لم يبق ثمة من يؤمن بما كان القرن الثامن عشر يعتقده صحيحاً . فلماذا يُراد لنا ان نظل نستمتع بالآثار التي كان يعتبرها جميلة ؟

ونظر إليّ نظرة ابتهال :

— ما رأيك بذلك يا سيدي ؟ ربما كان ذلك متناقضاً بعض الشيء ؟ ذلك اني ظننتني مستطيعاً ان أضفي على فكرتي شكل فكاهة .

— الحق ... اني اجد ذلك مثيراً جداً للاهتمام .

— هل سبق لك ان قرأته في مكان ما ؟

— لا ، بكل تأكيد .

— حقاً ، لم تقرأه في أي مكان قط ؟

ثم أضاف وقد عاد اليه الغم :

— إن هذا يا سيدي غير صحيح إذن . فلو كان صحيحاً ، لسبقني غيري الى التفكير به .

فقلت له : — انتظر قليلاً ريثما أفكر فيه . أعتقد اني قرأت شيئاً كهذا .

فالتمعت عيناه ، وسحب قلمه ، وسألني بلهجة واضحة :

— عند أي مؤلف ؟

— عند ... عند رينان .

فاستطار فرحاً ، وقال وهو يمص رأس قلمه :

— هل تتلطف فتذكر لي المقطع تماماً ؟

— لقد قرأت ذلك منذ وقت طويل جداً .

— أوه ، لا بأس ، لا بأس .

وكتب اسم رينان على دفتره ، تحت الحكمة . وقال موضحاً بلهجة مأخوذة :

— لقد التقيت برينان ! وقد كتب الاسم بالقلم الرصاصي ، ولكني سأسطره هذا المساء بالحبر الأحمر .

ونظر الى دفتره لحظة في نشوة ، وانتظرت ان يقرأ لي حكمة أخرى ، ولكنه أغلقه في حذر ودسّه في جيبه . لا شك في انه حكم بأن ما أصابه من سعادة ، في مرة واحدة ، كان حسبه . وقال بلهجة حميمة :

— كم يلذّ المرء ان يستطيع احياناً ان يتحدث على هذا النحو ، باستسلام وبحق هذا الحادث ، كما يمكن للانسان ان يتصور ، محادثتنا المسرّحة ، وتبع ذلك صمت طويل .

كان جوّ المطعم قد تغير ، منذ وصول الشابة والشاب . فقد صمت الرجلان الاحمران ، وجعلا يحدقان ، من خلف الزجاج ، في محاسن المرأة الشابة . ووضع السيد الأنيق جريدته وأخذ ينظر اليهما في انبساط ، بل في شبه تواطؤ . إنه يفكر بأن الشيخوخة عاقلة ، والشباب جميل ، وهو يهز رأسه ببعض الغم

هو يعلم جيداً انه ما يزال جميلاً ، وانه محافظ على كل قواه ، وانه ما يزال يستطيع بسحره ورقة حسه ان يسحر . وهو يتحمل دور الإشعار بالأبوة . أما أحاسيس الخادم فتبدو أبسط : لقد انزرعت امام الشاب والشابة تتأملهما فاغرة الفم .

انهما يتحدثان بصوت منخفض . لقد قدمت لهما المقبلات ، ولكنهما لم تمساها . وبوسعي ، إذا أرهفت أذني ، ان التقط أطرافاً من أحاديثهما . وأنا أفهم فهماً أفضل ما تقوله المرأة ، بصوتها الغني والمحبب .

ـ لا ، يا جان ، لا .

فتمتم الشاب في حيرة مهووسة :

ـ ولِمَ لا ؟

ـ لقد قلت لك الجواب .

ـ ليس ذلك سبباً .

هنالك كلمات تفوتني ، ثم تقوم المرأة الشابة بحركة تعبير ساحرة :

ـ لقد حاولتُ أكثر مما ينبغي . لقد اجتزت السن التي يستطيع فيها المرء ان يبدأ حياته من جديد . انت تعلم أنني قد شخت .

فضحك الشاب بتهكم . واستطردت هي :

ـ إنني لن أستطيع ان أتحمّل ... خيبة .

قال الشاب : ـ يجب ان تتذرعي بالثقة . فانك هنا ، لن تعيشي كما انت الآن .

فتنهدت : ـ أعرف ذلك .

ـ تذكري حياتك .

قالت في تكشيرة : ـ نعم .

ـ الحق اني انا أجد جميلاً جداً ، ما فعلته . لقد كانت جريئة .

فقالت المرأة الشابة :

ـ انت تعرف انها بالأحرى قد وثبت على المناسبة ، وسأقول لك اني لو

شئت لحصلت على متعة مناسبة من هذا النوع ، ولكني فضلت أن انتظر .

قال برقة : — ولقد كنتِ على حق . كنتِ على حق بأن تنتظريني .

وضحكت بدورها وقالت :

— كم هو مغرور ! إنني لم أقل هذا .

وكففت عن الاصغاء إليهما : انهما يزعجانني . انهما سينامان معاً . وهما يعرفان ذلك . وكل منهما يعرف ان الآخر يعرف ذلك . ولكن لكونهما شابين ، طاهرين ، ومحتشمين ، ولكون كل منهما يريد ان يحتفظ باحترامه واحترام الآخر ، ولما كان الحب شيئاً شعرياً عظيماً ينبغي ألا يعجّل ، فانهما يقصدان عدة مرات في الاسبوع المراقص والمطاعم ليقدّما مشهد رقصاتهما الطقوسية الصغيرة والآلية ...

يجب في آخر المطاف قتل الوقت . انهما شابان ذوا بنية جميلة ، ولا يزال أمامهما ثلاثون عاماً . فهما لذلك لا يستعجلان ، بل هما يبطئان ، وليسا في ذلك مخطئين . وبعد ان يناما معاً ، يجب ان يجدا شيئاً آخر ليحجبا عبثية كينونتهما الهائلة . ومع ذلك ... أمن الضروري حقاً أن يكذب أحدهما على الآخر ؟

وأجيل عيني في القاعة . انها لنكتة ! ان جميع هؤلاء الاشخاص يأكلون بهيئة رصينة ، يأكلون . لا ، انهم لا يأكلون : وانما هم يعددون قواهم لينجزوا المهمة الملقاة على عاتقهم . إن لكل منهم عمله الشخصي الصغير الذي يمنعه من ان يلاحظ انه كائن ، ليس فيهم من لا يحسب نفسه ضرورياً لانسان او لشيء . أليس العصامي هو الذي قال لي ذات مرة : « لم يكن ثمة من هو أكفأ من « نوسابيه » للقيام بهذا العمل التأليفي الواسع ! » إن كلاً منهم يعمل شيئاً صغيراً ، وليس ثمة من هو أكفأ منه للقيام بهذا العمل . ليس ثمة من هو أكفأ من ذلك الوكيل التجاري الرحّالة ، هنالك ، للترويج لمعجون الاسنان « سوان » . وليس ثمة من هو أكفأ من هذا الشاب الظريف الفضولي لكي يدسّ يده تحت تنورة جارته . وأنا أجلس بينهم ، فاذا نظروا إليّ ، فلا بدّ من

ان يفكروا بأنه ليس ثمة من [illegible] للقيام بما أقوم به ، ولكني أنا « أعرف » انه لا يبدو عليّ شيء ، ولكني اعرف اني كائن ، وانهم كالموتى ولو كنت أقل في الاقناع ، للعبت أجلس قرب السيد ذي الشعر الأبيض ولشرحت له ما هو الوجود . واني لأنفجر بالضحك وأنا أتصوّر الهيئة التي سيحتلها وجهه . إن « العصامي » ينظر إليّ في اندهاش . كم أتمنى أن أتمكن ، ولكني لا أستطيع : اني أضحك حتى تسيل مني الدموع .

وقال لي العصامي بهيئة تحفظ :

ــ أراك مرحاً يا سيدي ...

فقلت له ضاحكاً : ــ انا أفكر بأننا نقضي وقتنا هنا نأكل ونشرب لنحافظ على وجودنا الثمين ، وانه ليس ثمة اي تبرير للوجود على الاطلاق .

فاتخذ العصامي مظهر الجد ، وبذل جهداً ليفهمني . لقد ضحكت بصوت مرتفع اكثر مما ينبغي : فقد رأيت عدة رؤوس تستدير إليّ . ثم اني نادم على اني تفوهت بهذا كله . غير ان ذلك ، لا يعني في آخر الأمر أحداً .

ورد على مهل :

ــ ليس ثمة اي تبرير للوجود ... لا شك في انك تعني يا سيدي ان الحياة لا غاية لها ؟ أليس هذا ما يُدعى بالتشاؤم ؟

وفكر لحظة أخرى ، ثم قال في عذوبة :

ــ قرأت منذ بضعة أعوام كتاباً لمؤلف امريكي كان عنوانه : « هل تستحق الحياة ان تُعاش ؟ » . أليس هذا هو السؤال الذي تطرحه على نفسك ؟

بالطبع لا . ليس هذا هو السؤال الذي أطرحه على نفسي . ولكني لا أريد ان اشرح شيئاً . وقال لي العصامي بلهجة معزّية :

ــ ولقد انتهى المؤلف الى صالح التفاؤل الارادي . إن للحياة معنى إذا اراد المرء ان يعطيها معنى . يجب عليه اولاً ان يعمل ، ان يرتمي في عمل . فاذا فكر بعد ذلك ، يكون قد التزم . ولست أدري رأيك في ذلك يا سيدي .

قلت : ــ لا رأي لي .

او أن رأيي في الحق أن هذا هو بالذات نوع الكذب الذي يتبادله الوكيل التجاري والشابة والشاب والسيد ذو الشعر الأبيض .

وابتسم العصامي في شيء من الخبث وكثير من الزهو :

– وليس ذلك رأيي أيضاً . فأنا اعتقد انه لا ينبغي لنا ان نبحث عن معنى حياتنا في مثل هذا البعد .

– هكذا إذن ؟

إن هناك هدفاً يا سيدي ، هناك هدف ... إن هناك البشر .

هذا صحيح : فقد نسيت انه مفكر إنساني" . وقد ظـل لحظة صامتاً ، الوقت الذي التهم فيه نصف قطعة اللحم المطبوخ وقطعة كبيرة من الخبز . « إن هناك البشر » . لقد رسم نفسه برمّته – هذا الرقيق العطوف – أجل ، ولكنه لا يحسن التعبير عن ذلك . إن روحه تملأ عينيه ، هذا لا جدال فيه ، ولكن الروح لا تكفي . لقد سبق لي ان عاشرت مفكرين انسانيين من باريس ، وقد سمعتهم مئة مرة يقولون « إن هناك البشر » ولكن ذلك كان شيئاً آخر ! كان « فيرغان » لا يُضاهى . كان ينزع نظارتيه ، كما لو أنه يريد ان يظهر عارياً بجسمه البشري ، وكان يحدق فيّ بعينيه المؤثرتين ، بنظرة ثقيلة متعبة . كان يخيل إليّ أنها تعريني لتلتقط جوهري البشري ، ثم كان يتمتم بلهجة منغمة : « إن هناك البشر ، يا عزيزي ، هناك البشر » ، مضيفاً على « هناك » نوعاً من القوة ، كما لو أن حبه للبشر ، المتجدد والمدهش أبداً ، كان يتعثّر في جناحيه العملاقين .

أما حركات العصامي الايمائية ، فانها لم تكتسب هذه المخملة ، إن حبه للبشر ساذج وبربري : انه انساني" ريفي .

وقلت له : – البشر ... البشر ... على كل حال ، لا يبدو عليك انك تهتم بهم كثيراً : انت دائماً وحيد ، وأنفك دائماً في كتاب .

فصفق العصامي بيديه وأخذ يضحك بخبث :

– انت على خطأ . آه ، يا سيدي ، اسمح لي ان أقول لك : أيّ خطأ هذا!!

وحدث لحظة لينجح في تحفظ ابتلاع لقمته . وكان وجهه مشرقاً كالفجر . وحلقه . انفجرت المرأة الشابة بضحكة خفيفة . وكان رفيقها قد مال عليها يهمس في أذنها .

وقال العصامي : — إن ضحكك طبيعي جداً . وقد كان حريّ أن أقول لك ، منذ زمن طويل . — ولكني جدّ خجول ، يا سيدتي : وكنت ألتمس مناسبة ، قلت له بتأدب : — وها انت تجدها .

— أعتقد ذلك انا ايضاً . إن ما سأقوله لك ...

وتوقف وقد احمرّ وجهه :

— ولكن ربما كنت أضايقك ؟

فطمأنته ، فأطلق تنهّدة سعيدة .

— إن المرء يا سيدتي لا يلتقي برجال مثلك كل يوم ، تقترن سعة النظر لديهم بنفاذ البصيرة . لقد انقضت أشهر وانا اود ان أحدثك ، ان اشرح لك ما الذي كنته ، وماذا أصبحته ...

وكان صحنه فارغاً نقياً ، كما لو انه حل لـه الساعة . واكتشفت فجأة ، بالقرب من صحني ، صينية قصدير صغيرة كانت تسبح فيها قطعة دجاج في مرق اسمر . يجب ان آكل هذا .

— كنت أحدثك منذ حين عن أسري في ألمانيا . هناك ابتدأ كل شيء . كنت وحيداً قبل الحرب ، ولم أكن اشعر بذلك . كنت أعيش مع اهلي الذين كانوا أناساً طيبين ، ولكني لم أكن أتفاهم معهم . اني حين أفكر بتلك السنوات ... ولكن كيف استطعت ان أعيش على ذلك النحو ؟ كنت ميتاً يا سيدي ، ولم أكن أحس بذلك ، وكنت املك مجموعة من طوابع البريد .

ونظر إليّ ثم أضاف :

— يا سيدي ، انت متعب ، ويبدو عليك التعب ، اني لا أضايقك ، هـل الآن ؟

— بل انت تثير اهتمامي كثيراً .

— وأتت الحرب فتطوعت من غير ان ادري لماذا . وقد بقيت عامين من غير ان افهم ، لأن حياة الجبهة كانت لا تدع إلا وقتاً يسيراً للتفكير ، ثم إنّ الجنود كانوا مفرطين في الوحشية . وفي نهاية عام ١٩١٧ أسرت . وقيل لي منذ تلك اللحظة ان كثيراً من الجنود قد استردوا ، في الأسر ، الإيمان الذي كان ملأ طفولتهم .

واستطرد العصامي وهو يُرخي جفنيه على حدقتيه الملتهبتين :

— اني يا سيدي لا اؤمن بالله ، فان العلم ينكر وجوده . ولكني في معسكر الاعتقال ، تعلمت ان اؤمن بالانسان .

— الأنهم كانوا يتحملون مصيرهم بشجاعة ؟

فقال بهيئة غامضة :

— نعم ، كان هذا عنصراً آخر . والحق اننا كنا نعامل معاملة طيبة . ولكني كنت أقصد شيئاً آخر : ففي شهور الحرب الاخيرة ، كفوا عن ان يعطونا عملاً . وحين كانت السماء تمطر ، كانوا يدخلوننا في سقيفة كبيرة للألواح الخشبية كنا نقف فيها مئتين تقريباً ، متلاصقين . وكانوا يغلقون الباب ، ويتركوننا هناك ، متلاصقين فيما بيننا ، في ظلام شبه تام .

وتردد لحظة ، ثم أضاف :

— لن استطيع ان اشرح لك يا سيدي . كان جميع اولئك الرجال هناك ، لا يكاد المرء يراهم ، ولكنه كان يحسهم ملتصقين به ، وكان يسمع صوت تنفسهم . وفي احدى المرات الأولى التي حبسونا فيها في تلك السقيفة ، كان الضغط شديداً جداً حتى حسبت اول الامر اني سأختنق ، ثم ارتفع فيّ فجأة فرح قوي حتى كدت أنهار : وإذ ذاك أحسست أني أحب هؤلاء الرجال كأنهم إخوة ، ووددت لو أقبلهم جميعاً . وبعد ذلك ، كنت أحس الفرح نفسه كلما دخلت السقيفة .

يجب ان آكل قطعة الدجاج التي لا بد ان تكون قد بردت . فلقد انتهى العصامي منذ وقت طويل ، والخادم تنتظر تغيير الصحون .

— كانت هذه السقيفة قد اكتست في نظري طابعاً مقدساً ، وقد نجحت أحياناً في التحرر من مراقبة حراسنا ، فذهبت الى السقيفة وحيداً ، وهناك ، في الظلام ، في ذكرى الفرحة التي عرفتها فيها ، كنت أسقط في نوع من النشوة . وكانت الساعات تمر ، ولكني لم أكن أنتبه اليها . وقد حدث لي ان بكيت

لا بد أني مريض : فليس ثمة طريقة أخرى لشرح هذا الغضب الشديد الذي هزّني ، أجل ، غضبٌ مريض : كانت يداي ترتجفان ، وقد صعد الدم الى وجهي ، وانتهى الأمر بشفتي فأخذتا ترتعشان كل هـــذا ، لأن الدجاجة كانت ببساطة ، باردة . وأنا أيضاً كنت في الواقع بارداً . وكان هذا أشق ما في الأمر . أقصد ان أحوالي قد ظلت كما كانت منذ ست وثلاثين ساعة ، باردة جداً ، مثلجة . لقد اخترقني الغضب وهو يدوّم ، وكان ذلك شبيهاً برعشة ، بجهد يبذله وعيي ليقوم برد الفعل ، ليقاوم سقوط الحرارة . هذا جهد عابث : فلا ريب في اني كنت جديراً ، لأكثر الأسباب ، ان أنقضّ على العصامي او القادم لأوسعهما ضرباً وأرهقهما شتماً . ولكني لن أكون قد دخلت بكليّتي في اللعبة لو فعلت . لقد كان غضبي يرتج على السطح ، وقد أحسست ذات لحظة إحساساً شاقاً بأني كتلة من الثلج محاطة بالنار . وتلاشى هذا الاضطراب السطحي ، وسمعت العصامي يقول :

— كنت كل يوم احد ، أذهب الى القداس . والله يا سيدي لم اكن يوماً مؤمناً . ولكن ألا تستطيع ان تقول ان سر القداس الحقيقي انما هو التواصل بين الناس ؟ كان ثمة كاهن فرنسي ، لم يبق له إلا ذراع واحدة ، يقيم القداس الاحتفالي . وكان لدينا أرغن ، وكنا نستمع وقوفاً ، عاري الرؤوس . وبينما كانت أنغام الأرغن تحملني ، كنت أحسني أشكل كلاً واحداً مــع جميع الناس الذين كانوا يحيطون بي . آه ! لكم استطعت ان احب تلك القداديس يا سيدي . وما زلت حتى الآن ، احياءً لذكراها ، أقصد الكنيسة أحيــاناً ، صباح الأحد . ولدينا في كنيسة سانت سيسيل عازف أرغن ماهر .

— لا بد انك قد انتظمت غالباً الى تلك الحياة ؟

— نعم يا سيدي، سنة ١٩١٩، انها سنة تحريري. لقد قضيت شهوراً شاقة جداً. لم أكن أدري ماذا افعل، تحت أثقالي. وكنت جبناً وجدت بشراً متحمسين ألمس بينهم.

وأضاف وهو يبتسم :

— وقد حدث أني مشيت في جنازة رجل مجهول، وذات يوم، قذفت، من فرط اليأس، بصورة طوابعي في النار... ولكني وجدت عرسي..

— حقاً ؟

— لقد نصحني أحدهم... أعرف يا سيدي أني استطيع ان اعتمد على تكتمك. انني — ربما لم تكن هذه افكارك، ولكن لك فكراً واسعاً جداً — اشتراكي.

وخفض عينيه فخفقت جفونه الطويلة :

— منذ شهر أيلول ١٩٢١، تسجلت في «الحزب الاشتراكي». هذا ما كنت أود ان أطلعك عليه.

وكان يشع افتخاراً. وجعل ينظر إليّ، ورأسه مرتد الى خلف، وعيناه نصف مغمضتين، وفمه مشقوق، فكأنه شهيد.

قلت : — حسناً جداً.

— كنت اعرف يا سيدي انك ستقرّني. وأنّى للمرء ان يوبخ من يأتي فيقول له : لقد تصرفت بحياتي على هذا النحو وهذا النحو، وهأنذا الآن سعيد جداً ؟

وفتح ذراعيه وقدّم لي راحتيه، وأصابعهما موجهة نحو الارض، كما لو انه يوشك ان يتلقى الجروح. كانت عيناه زجاجيتين، وقد رأيت في فمه كتلة وردية معتمة تتدحرج. فقلت :

— آه، ما دمت سعيداً...

— سعيد ؟

إن المرء يبحث عن القليل ، وقد رفع حاجبيه وحدّق فيّ تحديقاً قاسياً :

— مباح لك يا سيدي ان تحكم في الامر . كنت أحسبني ، قبل ان اتخذ هذا القرار ، في وحدة فظيعة جداً حتى اني فكرت بالانتحار . غير ان ما أمسكني عن التفكير بأن احداً على الاطلاق لن يتأثر لموتي ، وسأكون في الموت أشد وحدة مما كنت في الحياة .

واستقام وقد انتفخ خداه :

— اني لست بعدُ وحيداً يا سيدي . لن أكون بعدُ وحيداً أبداً .

قلت : — آه ، انك تعرف كثيراً من الناس ؟

فابتسم ، وسرعان ما أدركت سذاجتي :

— أقصد ان اقول إني لا ، أحسبني ، بعدُ وحيداً . ولكن بالطبع يا سيدي ليس من الضروري ان اكون مع احد .

قلت : — ومع ذلك ، في الحزب الاشتراكي ...

— آه ، اني اعرف الجميع هناك . ولكن معظمهم ، انما اعرفهم اسماً فقط

وأضاف في دعة :

— هل يكون المرء مجبراً ياسيدي على ان يختار رفاقه على هذا النحو الضيق ؟ إن اصدقائي هم البشر جميعاً . حين انهض للكتب في الصباح ، فان أمامي وورائي رجالاً آخرين يذهبون الى أعمالهم . إني أراهم ، ولو كنت اعرق لبست لهم ، انا افكر بأني اشتراكي ، وانهم جميعاً غاية حياتي ، وجهودي ، وانهم لا يعرفون ذلك بعد . إن هذا عيدٌ لي ، يا سيدي .

وسألني بعينيه ، فوافقت وأنا أهزّ برأسي ، ولكني شعرت انه غاضب بعض الخيبة ، وانه يود مزيداً من الحماسة . ماذا استطيع ان اصنع ؟ أيكون خطأي ان ألمس ، في كل ما يقوله لي ، التكلف والاستشهاد ؟ وأن أرى ، فيما هو يكلم ، جميع الاشتراكيين الذين عرفتهم يظهرون ؟ لقد عرفت كثيراً منهم مع الاسف ! إن الاشتراكي الراديكالي بصورة خاصة صديق الموظفين ، والاشتراكي

الذي يوصف بـ « اليساري » ، هذا الرئيسي الحفاظ على القيم الانسانية ؛ إنه لا ينتمي الى اي حزب ، لأنه لا يريد ان يخون ما هو انساني ، ولكن عاطفته تتجه الى الوضعاء ؛ وهو يكرس للوضعاء ثقافته الكلاسيكية الجميلة . انه بالاجمال أرملٌ ذو عين جميلة مندّاة بالدمع دائماً ؛ وهو يبكي في اعياد الميلاد ، ويحب ايضاً القطة والكلب وجميع الضرعيات العليا . امـــا الكاتب الشيوعي فيحب الناس منذ أعلن المشروع الثاني لسنوات الخمس ، وهو يُعاقب لأنه يحب ؛ وهو لاحتشامه ، شأن جميع الأقوياء ، يُحسن إخفاء عواطفه ، ولكنه يُحسن كذلك ، بنظرة ، او بنبرة من صوته ، ان يُشعرنا ، فيما وراء كلماتـــه الفظة للعدل ، بعاطفته المهمومة الرقيقة لأخوته . وأما الانساني الكاثوليكي ، المتأخر الوصول ، الابنُ الأعز ، فانه يتحدث عن البشر بلهجة إعجاب شديد . إنـــه يقول : ما اجملها قصة جنٍ ، قصة تلك الحياة المتواضعة التي يعيشها عـــامل مرفأ لندني ، او مطرّزة احذية ! لقد اختار انسانية الملائكة ، وهو يكتب ، في سبيل بناء الملائكة ، روايات طويلة حزينة وجميلة ، غالباً ما تحرز جائزة « فيمينا » .

هذه هي الأدوار الكبيرة الأولى ، ولكن هناك أدواراً أخرى . ثمة من الادوار الاخرى : الفيلسوف الانساني الذي يحني على إخوته كأخٍ اكبر والذي يملك حس مسؤولياته ، « والانساني الذي يحب البشر كما هم ، والانساني الذي يحبهم كما ينبغي ان يكونوا ، ذلك الذي يريد ان يخلق اساطير جديدة ، والذي يكتفي بالقديمة ، والذي يحب في الانسان موته ، والذي يحب في الانسان حياته ، والانساني الفرح الذي يملك دائماً الكلمة الضاحكة ، والانساني المظلم الذي نلتقي به خصوصاً في الأماسي المأتمية . انهم جميعاً يتبادلون الكراهية كأفراد طبعاً ، لا كبشر . ولكن العصامي يجهل ذلك : فقد حبسهم في نفسه كما تُحبس قططٌ في كيس جلدي ، وهم يتنازعون ويجرح بعضهم بعضاً ، من غير ان يشعر هو بذلك .

وكان قد بدأ ينظر إليّ بثقة أقل :

ـ ألا تشعر بالأمر ، كما أشعر به يا سيدي ؟

ـ الحقيقة ...

وإزاء هيئته القلقة التي لا تخلو من حقد ، أحس بعض الندم لأني قد جنيت عليه . ولكنه استطرد يقول :

ـ أعرف أن لك إحالاتك وتحقيقاتك وكتبك ، فأنت تحسم القضية نفسها على طريقتك .

تحقيقاتي ، يا للأبله ! إنه لا يستطيع أن يرتكب خطأً أفدح من هذا .

ـ إنني لا أكتب من أجل هذا .

وعلى الفور تغيرت ملامح العصامي : فكأنما هو قد شم رائحة العدو ، ولم يسبق لي قط أن رأيت مثل هذا التعبير على وجهه . لقد مات شيء ما بيننا .

وسأل وهو يتظاهر بالدهشة :

ـ ولكن ... لماذا تكتب إذاً يا سيدي ، واغفر لي هذه الصراحة ؟

ـ الحقيقة ... إنني لا أدري . أكتب هكذا ، لكي أكتب .

فابتسم بزهو ، لقد اعتقد أنه أربكني :

ـ هل تكتب في جزيرة مقفرة ؟ ألا يكتب الإنسان دائماً لكي يُقرأ ؟

إنما أعطى عبارته صيغة التساؤل بدافع العادة . فالواقع أنه يؤكد . لقد انقشر طلاء عذوبته وخجله ، فبت أُنكره . وقد نمّت ملامحه عن عناد ثقيل ، فهذا جدار من الرضى والاكتفاء . ولم تكن دهشتي قد انقضت حين استطرد يقول :

ـ إذا قيل لي : إنما أكتب من أجل فئة اجتماعية ، من أجل فريق من الأصدقاء . فإني أفهم ذلك . وربما كنت تكتب للأجيال القادمة ... ولكنك يا سيدي ، بالرغم منك ، تكتب من أجل أحد .

وانتظر جواباً ، فلما تأخر ، ابتسم ابتسامة خفيفة :

ـ ربما كنت متشائماً ؟

وأعرف ما كان يخفيه هذا المهد الخادع للمصالحة . إنه بالاحيان يطلب مني شيئاً يسيراً : ان أقبل ببساطة صفقة او طابعاً . ولكن ذلك كان شركاً : فاذا وافقت ، انتصر العصامي ، ولن ألبث ان أُهزم ويمسك بي وأُطوَّق ، لأن النزعة الانسانية تسترد جميع المسالك الانسانية وتذيبها معاً . إن من يعارضها مواجهةً يساق للعبتها ، فهي تعيش من معاكساتها . إنها جنسٌ من الأشخاص العنيدين المحدودين ، جنس من قطاع الطرق ، يخسرون دائماً معها : فهي تهضم كل ألوان عنفهم ، وأسوأ تجاوزاتهم ، فتجعل منها لمفاً بيضاء مزبدة . لقد هضمت النزعة المناهضة للفكرية ، وهضمت المانوية ، والصوفية ، ونزعة بغض البشر ، والفوضوية والأنانية : فليست هذه بعد الا مراحل ، افكاراً غير ناجزة لا تجد تبريرها الا بها . ونزعة بغض البشر تتخذ محلها ايضاً في هذه الحفلة الموسيقية : فليست هي الا تنافراً ضرورياً لتناغم الكل . إن مبغض البشر إنسان : فيجب اذن ان يكون الانساني مبغضاً للبشر على نحو ما . ولكنه مبغض للبشر علمي ، عرف ان يعيّن مقدار بغضه ، وهو لا يبغض البشر اولاً الا ليكون في ما بعد أقدر على ان يحبهم .

اني لا أريد ان أُدمج ، ولا ان يذهب دمي الجميل الاحمر ليُسمن ذلك الوحش اللمفاوي : اني لن ارتكب حماقة ان اصف نفسي بـ « مناهض للانسانية » . كل ما هنالك ، اني « لست » انسانياً .

وقلت للعصامي :

— أرى ان المرء لا يستطيع ان يكره البشر اكثر مما يحبهم .

فنظر إليّ العصامي نظرة حامية بعيدة . وتمتم ، كما لو انه غير منتبه لكلماته :

— يجب ان نحبهم ، يجب ان نحبهم ...

— من هم الذين يجب ان نحبهم ؟ الأشخاص الذين هم هنا ؟

— والذين هم هنالك ايضاً . الجميع .

واستدار نحو الشابة والشاب المشرقَي الفتوّة : ذلك ما ينبغي ان يُحب

وتأمل لحظة السيد ذا الشعر الأبيض ، ثم ردّ بصره إليّ ، فقرأت على وجهه سؤال استفهام أخرس . وأومأت برأسي «لا» . فبدا على وجهه أنه يشفق عليّ .

وقلت له متوجعاً : — ألك أنت أيضاً لا تفهمهم .

— حقاً يا سيدي ؟ هل تسمح لأن يكون لي رأي مختلف ؟

واستعاد مظهر الوقار حتى أطراف أظافره ، ولكن نظرة كأن لها التهكم الذي يعد منّة كبيرة ، قد عقد عليّ . ولقد أخطأت حين عطفت على هذا الأخرس . وسألته بغروري :

— قل لي ، هل تحب هذين الشخصين الشابين ، ورائك ؟

فتطلّع اليها مرة أخرى ، وفكّر ، ثم قال مرتاباً :

— ألك تريدني أن أقول أني أحبهما من غير أن أعرفهما . الحق يا سيدي إني لا أعرفهما ، وأقرّ بذلك ...

ثم أضاف بضحكة مزهوّة :

— إلا إذا يكون الحبّ بالذات هو المعرفة الحقيقية !

— ولكن ماذا تحب ؟

— أرى أنهما شابّان ، فأنا أحب فيهما الشباب ، بين أشياء أخرى ، يا سيدي . وكفّ ، مرهفاً أذنه :

— هل تفهم ماذا يقولان ؟

يسألني هذا إن كنت أفهم ؟! كلا الشاب ، وقد جرّأه الودّ الذي يحيط به ، يروي بصوت عالٍ ، مباراة في كرة القدم ربحها فريقه في العام الماضي ضد نادٍ من الظاهر .

وقلت للعصامي : — إنه يروي لها قصته .

— آه ! إني لا أسمع جيداً . ولكني أسمع الصوتين ، الصوت الناعم ، والصوت الخشن : إنهما يتناوبان . آه ... ما ألطف هذا !

— أما أنا ، فأسمع ما يقولانه ، مع الأسف .

— ماذا يقولان ؟

— الحق انهما يمثلان .

فسأل بتهكم :

— حقاً ؟ ربما كانا يمثلان مسرحية الشباب ؟ اسمح لي يا سيدي بأن اجدها مفيدة جداً . هل يكفي المرء ان يقلدها ليعود الى مثل عمرها ؟

فتجاهلت تهكمه ، واستطردت :

— انك توليها ظهرك ، وما يقولانه يفوتك ... ما هو لون شعر المرأة الشابة ؟

فاضطرب ، ثم وجّه نظرة نحوها فاسترد طمأنينته وقال :

— انه أسود .

— انك ترى ذلك .

— ماذا تعني ؟

— انت ترى جيداً انك لا تحبهما ، مثير الاشفاق . انك لن تستطيع ان تعرفهما ثانية اذا لقيتهما في الشارع . فما هما في نظرك الا رمزين . انت لا تراهما ، هما بالذات ، وانما ترى : « شباب الانسان » ، « حب الرجل والمرأة » ، « الصوت الانساني » .

— وانت ؟ أليس هذا موجوداً ؟

— بالتأكيد لا ، هذا ليس موجوداً ! لا « الشباب » ، ولا « الكهولة » ، ولا « الشيخوخة » ، ولا « الموت » ...

فبدا وجه العصامي الممتقع القاسي كأنه سفرجلة ، متحجّراً في تكشيرة الكاره . بيد اني تابعت :

— هذا اذن ذلك السيد الذي خلفك الذي يشرب ماء فيشي . فأنا افترض انك انما تحب فيه « الانسان الناضج » ، الانسان الناضج الذي يسير بشجاعة نحو منحدره والذي يُعنى بمظهره لأنه لا يريد ان يستسلم ؟

فقال لي في تحدٍّ : — تماماً .

– ومع ذلك ، ألا ترى انه قذر جداً ؟

فضحك ، انه يجدني مخطئاً ، وقد رمى بنظرة موجزة الى الوجه الجميل المؤطر بالشعر الأبيض .

– ولكن المرض يا سيدي انه يهدم كما ذكرت ، فكيف تستطيع ان تحكم على هذا الرجل من صحته ؟ ان الوجه يا سيدي لا يعبّر عن شيء حين يكون في حالة الراحة .

يا للالتباس المحض ! ان هذا الوجه هو جدّ « معبّر » ، جدّ واضح – ولكن روحهم الرقيقة المجرّدة لم تتأثر قط بأي وجه .

قال العصامي : – كيف تستطيع ان « تقرّر » انساناً ، ان تقول « انه » هكذا او كذا ؟ من يستطيع ان يستنفد انساناً ؟ من يستطيع ان يعرف ينابيع انسان ؟

يستنفد انسان ! اني أحيّي ، بالمناسبة ، النزعة الانسانية الكاثوليكية التي استعار منها العصامي ، من غير ان يدري ، هذه الصيغة .

وقلت له : – اعرف ، اعرف ان جميع البشر رائعون . انك رائع . انا رائع . بصفتنا مخلوقات الرب ، طبعاً .

فنظر اليّ من غير ان يفهم ، ثم قال ببسمة هزيلة :

– لا شك في انك تمزح يا سيدي ، ولكنه امرٌ صحيح ان جميع البشر يستحقون اعجابنا . انه صعب ، يا سيدي ، صعب جداً ان يكون المرء انساناً .

ها هو يترك من غير ان يلاحظ ، حبّ البشر في المسيح ، انه يهزّ رأسه ، فاذا هو شبيه بذلك المسكين « غيهينو » ، عن طريق ظاهرة إيمائية غريبة .

وقلت له : – المعذرة ، ولكن هذا يعني اني لست متأكداً حقاً من اني انسان : فأنا لم اجد ذلك صعباً قط . كان يخيّل اليّ انه لم يكن على المرء الا ان يستسلم .

فضحك العصامي بطلاقة ، ولكن عينيه ظلّتا سيئتين :

– انك مفرط التواضع يا سيدي . فلكي تتحمل وضعك ، وضعك البشري ،

فانك تحاجة، كسائر الناس، الى كثير من الشجاعة. ان اللحظة التي تأتي ياسيدي يمكن ان تكون لحظة موتك، انت تعرف ذلك، وبوسعك ان تتقدم: أليس هذا رائعاً ومدعاة للإعجاب ؟

وأضاف في مرارة :

— انّ في ذلك اعطاك قدراً هائلاً من البطولة .

قال الخادم : — وما الذي تأكله في النهاية يا سيدي ؟

وكان العصابي ابئس كل اليأس، وجفناه منطبقان نصف انطباق على عينين حمراوين. وقام بحركة ضعيفة من يده، كما لو انه يدعوني للاختيار. فقلت في بطولة :

— قطعة جبن .

— والنبيذ ؟

فانتفض :

— ماذا ؟ آه نعم ! لن آخذ شيئاً. لقد انتهيت .

— لوبز !

ودفع الرجلان السمينان وخرجا. وكان احدهما يعرج. وقادتهما صاحبة المطعم الى الباب : انهما زبونان هامّان، فقد قدّمت لهما زجاجة خمر في دلو الثلج .

ورحت اتأمّل العصابي في شيء من الندم : لقد تمتّع طوال الاسبوع في تخيّل هذا العشاء الذي سيمكّنه من ان يُطلع انساناً آخر على محنته كناس. ان الفرص التي تتيح له ان يتكلم نادرة جداً. وهأنذا أفسد عليه متعته. انه في حقيقته على مثال توحّدي، فليس ثمّة من يهتمّ به. غير انه لا يشعر بوحدته. اجل. ولكن لم يكن عليّ الا ان افتح عينيه. وأحسبني منزعجاً: صحيح انني غاضب، ولكن لا عليه، بل على امثال فيرغات والآخرين، جميع الذين حشروا هذا العقل المسكين. ولو كان بوسعي ان أوقفهم هنا، امامي، لكان لديّ شيء كثير اقوله لهم. اما العصابي، فلن أقول له شيئاً، فانا لا اكنّ له

غير الود" : انه شخص من نوع السيد أشيل ، من نوعي انا ، وقد خان بدافع من جهل ، بدافع من ارادة حسنة !

وانتشلني من احلامي الضجرة ضحكة" اطلقها العصامي :

— اعذرني يا سيدي ، فاني حين افكر بعمل محبي البشر ، وبقوة الاندفاعات التي تحملني اليهم ، ثم ارانا هنا نأكل ونمرح ... فان ذلك يعطيني الرغبة في الضحك .

فصمتّ ، وابتسمت بسمة مقسرة . ووضعت الخادم امامي صحناً فيه قطعة من جبن الكاماميبر . وأجلت بصري في القاعة فغمرني شعور نفور عنيف . ما الذي افعله هنا ؟ ما شأني والخطابة عن النزعة الانسانية ؟ ولماذا يكون هؤلاء الأشخاص هنا ، لماذا يأكلون ؟ صحيح انهم ، هم ، لا يعرفون انهم كائنون . اني راغب في الذهاب ، في الرحيل الى جهة اكون فيها حقاً ، في مكاني ، انطبق فيها ... ولكن مكاني ليس في اية جهة ، انني زائد عن اللزوم .

رقّت ملامح العصامي . كان قد خشي من قبل مقاومة اشد ، وهو يود حقاً ان يمر بالإسفنجة على كل ما قلت . وقد مال عليّ بهيئة مسارٍّ :

— انك في الحقيقة تحبهم يا سيدي ، تحبهم مثلي : وانما تفصل بيننا كلمات .

لا استطيع بعدُ ان اتكلم ، واني احني رأسي . كان وجه العصامي بازاء وجهي تماماً . وقد ابتسم بسمة مزهوة ، بازاء وجهي تماماً ، كما يحدث في الكوابيس . وأمضغ بمشقة قطعة خبز لا اقرر ان ابتلعها . البشر . يجب ان نحب البشر . ان البشر رائعون معجبون . إنما بي رغبة التقيؤ — وفجأة تم الأمر : « الغثيان » .

نوبة جميلة : تهزّني من فوق الى تحت . منذ ساعة وانا اراها قادمة ، غير اني لم اكن اريد ان اعترف بها . طعم هذا الجبن في فمي ... العصامي يثرثر وصوته يطن بعذوبة في اذني . ولكني لا اعلم بعدُ على الاطلاق عن اي شيء يتكلم . وانا اقرّه آلياً برأسي . يدي متشنجة على مقبض المدية ، وانا احسّ

هذا المقبض الخشبي الأسود . ان يدي هي التي تمسكه . يدي . لو خُيِّرت شخصاً ، لآثرت ان اترك هذه الذبابة وشأنها ! فما جدوى ان يلمس المرء دائماً شيئاً ما ؟ ان الأشياء لم تُصنع لتُلمَس . فمن الأفضل ان يندسّ المرء بينها ، متحاشياً اياها ما وسعه ذلك . انه يأخذ احدها احياناً بيده ، فيضطر الى تركه بأسرع ما يمكن . وتسقط المدية على الصحن . فينتفض لصوتها السيد ذو الشعر الأبيض وينظر اليّ . وآخذ المدية ثانية ، فأسند شفرتها على الطاولة وألويها .

هذا إذن هو « الغثيان » : هذه البديهة التي تُعمي ؟ لقد حفرت رأسي ! لقد كتبت عنها ! وها انا الآن أعلم : كائن — العالم كائن — وأعلم ان العالم كائن . هذا كل شيء . ولكن الأمر لديّ سواء . وغريب ان يكون كل شيء لديّ سواء : هذا يذعرني . لقد حدث هذا منذ ذلك اليوم العظيم الذي اردت فيه ان ألقي بالحصى في البحر بحيث يمسّ سطح الماء . كنت اوشك ان اقذف تلك الحصاة ، فنظرت اليها ، وآنذاك بدأ كل شيء . لقد احسست بأنها كانت « كائنة » . وبعد ذلك ، حدثت « غثيانات » كثيرة ، ان الاشياء لتأخذ بين الفينة والفينة في ان « تكون » في يدك . حدث غثيان مقهى « رانديفو دي شيمينو » ، وغثيان آخر ، قبل ذلك ، ليلة كنت انظر من النافذة ، وغثيان ثالث في الحديقة العامة ، في يوم احد ، وغثيانات اخرى بعد ذلك ، ولكن لم تكن قط قوية كما هو غثيان اليوم .

— ... من روما القديمة ، يا سيدي ؟

أظنّ ان العصامي يسألني . وألتفت اليه فابتسم له . ما به ؟ لماذا تراه يتكوّم على كرسيّه ؟ أتراني اثير الخوف الآن ؟ لا بدّ ان ينتهي الأمر هكذا . والحق ان الأمر عندي سواء . انهم غير مخطئين تماماً في ان يخافوا : فانا احسّ جيداً اني بوسعي ان افعل ايّ شيء . ان اغرز مثلاً هذه المدية التي تستعمل لقطع الجبن في عين العصامي . وبعد ذلك سيدوسني جميع هؤلاء الأشخاص ، وسيحطّمون اسناني بضربات احذيتهم . ولكن ذلك ليس هو ما يوقفني : فلا

سائق حي في بدلاً من سائق الجن هنا . لا يشكل فرقاً . غير أنه لا بدّ من القيام بحركة . علي حدثٌ لا طائل فيه . فستكون الضجة في طلقها العصابي زائدة عن اللزوم – وكذلك الدم الذي يسيل على عنه والتفات جميع هؤلاء الأشخاص . ان هذا ما في الكفاية من الأشياء التي توجد على هذا النحو .

الجميع ينظرون الي ، وقد قطع مثلاً الشاب حديثها العاطف . كان في المرأة فاغراً كانت ضاحكة . لا بدّ أنهم كانوا يرونني ، مع ذلك ، أني غير قابل للإيذاء .

وأنهض ، وكل شيء من حولي يدور . وعدنك العصابي في جيبه الكرتين اللتين لن أقطعهما . وتمتم :

– هل أنت ذاهب ؟

– اني متعب قليلاً . وأنت لطيف جداً أنك دعوتني . الى اللقاء .

ولاحظت ، وأنا ذاهب ، أني احتفظت في يدي اليسرى بعلبة آخر الطعام ، فألقيتها على صحني الذي لما يفرغ . واجتزت القاعة وسط الصمت . لقد كفوا عن الطعام : أنهم ينظرون الي . وقد التقطت قابليهم . لو أني تقدمت نحو المرأة الشابة وقلت لها : نعم ، فستأخذ في الصراخ ، بلا شك . لا فائدة من ذلك .

ومع هذا ، فقد التفت قبل أن أخرج وأريتهم وجهي ليستطيعوا أن يحفظوه في ذاكرتهم .

– الى اللقاء ، سادتي سيداتي .

لم يجيبوا . ومضيت . ان خدودهم مستترة الآن ألوانا ، وسيأخذون في الثرثرة .

لا أدري أين أذهب . فأنا مروح الى جانب الطباخ الكهربائي . ولا حاجة بي الى الالتفات لأعرف أنهم ينظرون الي عبر زجاج النافذة : أنهم ينظرون الى ظهري في دهشة واشمئزاز ، كانوا يعتقدون اني كنت مثلهم ، اني كنت

ابتسمتُ؟ واني خدعتهم ، وفجأة ، فقدت مظهري الانساني ، فرأوا سرطاناً يفرّ القهقرى من هذه القاعة الانسانية . وها هو الدخيل الذي نزع قناعه يفرّ : وتستمرّ الجلسة . انه يزعجني ان أحسّ في ظهري كلّ هذا التحرّك والاضطراب للعيون والافكار المذعورة . وأجتاز الطريق الى الرصيف الآخر الذي يحاذي الشاطئ ، وغرف الحمامات .

هناك اشخاص كثيرون يتنزّهون على شاطئ البحر ، ويُديرون نحو البحر وجوهاً ربيعية ، شاعرية ; ان ذلك بسبب الشمس ، فهم في عيد . هناك نساء يرتدين ثياباً خفيفة سبق ان ارتدينها في الربيع الماضي ، وهنّ يمررن طويلات بيضاوات كقفازات جلدية مسنّة ; وهناك ايضاً صبية كبار يقصدون الليسيه او مدرسة التجارة ، وشيوخ يتحلّون بأوسمتهم . انهم ، لا يعرف بعضهم بعضاً ، ولكنهم يتبادلون النظر في هيئة تواطؤ ، لأن الطقس جميل جداً ، ولأنهم بشر . ان البشر يتعانقون من غير ان يتعارفوا ، في ايام اعلان الحرب ، وهم يتبادلون البسمات عند حلول كل ربيع . ويتقدّم كاهن بطيء" الخطوة وهو يقرأ كتاب فرض الكهنة . وهو بين الفينة والفينة يرفع رأسه وينظر الى البحر نظرة موافقة : فالبحر ايضاً كتاب فرض للكهنة ، انه يتحدث عن الرب . ألوان خفيفة ، عطور" خفيفة ، أرواح ربيعية . « الطقس جميل ، البحر أخضر ، أفضّل هذا البرد الجاف" على الرطوبة » . يا للشعراء ! لو اخذت احدهم من ذيل معطفه ، وقلت له « تعال الى مساعدتي » ، فسوف يفكر « وما هذا السرطان ؟ » وسيهرب تاركاً معطفه بين يديّ .

وأوليهم ظهري ، واستند بكلتا يديّ الى الدرابزون . ان البحر الحقيقي بارد وأسود ، زاخر" بالوحوش ، انه يزحف تحت هذه القشرة الرقيقة الخضراء التي صُنعت لتخدع الناس . وان الجنّ" الذين يحيطون بي قد انخدعوا بها : فهم لا يرون الا القشرة الرقيقة ، وهي التي تبرهن عن وجود الله . اما انا ، فأرى التحت ! ان الطلاء يذوب ، والجلود الصغيرة المخملية اللامعة تتمزق في كلّ مكان تحت بصري ، انها تشقّ بعضها بعضاً . هوذا ترام سانت - اليمير ،

وأستدير من جديد: صور الأشياء معي، صفراء وحمراء كأنها قواقع الصدف، غير مجدٍ، غير مجدٍ أن أقفز إلى داخلها، ما دمت لا أريد أن أذهب إلى أي مكان.

وخلف الواجهات، تتخطف الأشياء الزرقاء، في موجات، صلبة قابلة للكسر، أناس، وجدران. ويعرض علي أحد البيوت، عبر نوافذه المفتوحة، قلبه الأسود، ويصفّر زجاج النوافذ كل ما هو أسود، ويزرقه، يزرّق هذا المسكن الكبير ذا القرميد الأصفر الذي يتقدم متردداً، وهو يرتعش، ثم يتوقف فجأة، وهو يحز بأنفه. ويصعد سيد فيجلس قبالتي. ويستأنف المسكن الأصفر سيره، فينزلق بقفزة إزاء الواجهات الزجاجية، ويصبح قريباً جداً حتى لا يُرى منه بعدُ إلا جزء، وقد أظلم واسودّ. وترتجف الواجهات. ويرتفع ساحقاً، أعلى من أن تمكن رؤيته، مع مئات من النوافذ المفتوحة على قلوب سوداء، وينزلق بإزاء العلبة فيلامسها، لقد حل الليل بين الواجهات التي ترتجف. إنه ينزلق بلا انقطاع، أصفر كالوحل، والزجاج في زرقة السماء. ويختفي فجأة، فيبقى في الخلف، ويغمر العلبة ضوء رمادي حي ينتشر في كل مكان بعدل لا هوادة فيه: إنها السماء، وعبر زجاج النوافذ، أرى بعدُ كثافات وكثافات من السماء، لأن المرء يصعد شاطئ «اليفار»، ولأنه يرى رؤية واضحة من كلا الجانبين، يميناً حتى البحر، ويساراً حتى حلبة الطيران. التدخين ممنوع حتى في بوهيمية.

وأعتمد بيدي على المقعد الخشبي الصغير، ولكني لا ألبث أن أسحبها على عجل: إنه كائن. هذا الشيء، الذي أنا جالس عليه، والذي كنت أسند إليه يدي، يسمى مقعداً صغيراً. لقد صنعوه خصيصاً ليمكن المرء أن يجلس عليه، وقد أخذوا جلداً، ولوالب، وقماشاً، فانهمكوا في العمل، وفي نيتهم أن يصنعوا مقعداً، وحين فرغوا، كان هذا هو ما صنعوه. وقد حملوه إلى هنا، إلى هذه العلبة، وها هي العلبة الآن تتدحرج وترتج، بزجاجها المرتجف، وهي تحمل في جوانبها هذا الشيء الأحمر. وأتمتم: إنه

مقعد صغير ، كأنما هو تعزيم . ولكن الكلمة تبقى على شفتيّ : إنها ترفض أن تذهب فتحط على الشيء . إنها تقول ما هي ، بقطيفتها الحمراء ، آلاف من الأرجل الصغيرة الحمراء ، في الهواء ، متصلبة كلها ، أرجل صغيرة جداً . إن هذا البطن الهائل المتجه الى الهواء ، دامياً ، منتفخاً ، ملطخاً بكل أرجله الميتة ، يظل يحوم في هذه العلبة ، في هذه السماء الزجاجية ، ليس هو مقعداً . من الممكن أيضاً أن يكون حماراً ميتاً ، منتفخاً ، ملطخاً بالدم ، وهو يحوم بالأشداق ، وبطنه في الهواء وسط نهر رمادي كبير ، نهر فيضان ، وأكون أنا جالساً على بطن الحمار ، وقدماي تبتلان في الماء الشفاف . لقد تحررت الأشياء من أسمائها . فهي هنا وحشية ، عنيدة ، عملاقة ، ومن السخف تسميتها مقاعد أو التحدث عنها بأي شيء : إنني وسط « الأشياء » التي هي غير قابلة للتسمية . إنها تحيط بي وحيداً ، بلا كلام ولا حماية ، تحتي ، وخلفي ، وفوقي . إنها لا تطلب شيئاً ، ولا تفرض نفسها ، إنها هنا . وهناك تحت وسادة المقعد ، إزاء الجدار الخشبي ، خط ظل صغير ، خط صغير أسود يجري موازياً للمقعد جرياً سرياً ذكياً ، فكأنه بسمة . أنا أعلم جيداً أنه ليس بسمة ، ومع ذلك فهو كائن ، يعدو تحت الزجاج الأبيض ، تحت ارتجاج الزجاج ، وهو يعاند ، تحت الصورة الزرقاء التي تتخلف خلف الزجاج وتتوقف ، ثم تمضي ، إنه يعاند كالذكرى مهزوزة ليلاً ، ككلمة نسيت نصف نسيان ولم يعد يذكر منها الا المقطع الاول . وأفضل ما يمكن المرء أن يعمله هو أن يصرف عينيه ويفكر في شيء آخر ، في هذا الرجل المضطجع على المقعد الصغير ، قبالتي ، هناك . وفي رأسه الفخاري ذي العينين الزرقاوين . إن القسم الأيمن من جسمه قد تراخى ، والتصقت الذراع اليمنى بالجسم ، والجنب الأيمن يكاد لا يعيش ، يعيش في بخل ، كما لو أنه كان مشلولاً . ولكن هناك كينونة طفيلية صغيرة تتكاثر على الجنب الأيسر كله ، قرحة : لقد اهتزت الذراع لترتجف ، ثم نهضت ، فكانت اليد متصلبة في آخرها . ثم أخذت اليد أيضاً ترتجف ، وحين بلغت مستوى الرأس ، امتد اصبع وأخذ يحك بظفره جلدة الرأس . وأقبل

نوعٌ من الكهربة الشهوانية يسكن الجانب الأيمن من الفم ، فظل الجانب الأيسر ميتاً . الزجاج يرتج ، والذراع ترتجف ، والظفر يحك ، يحك ، والفم يبسم تحت العينين الميتتين ، وحمل الرجل ، من غير أن يشعر ، هذه الكينونة الصغيرة التي تنتفخ جنبه الأيمن ، التي استعارت ذراعه اليمنى وخدَّه الأيمن ليتحقق . وسد فاهي للتذاكر الطريق إلي

ـ انظر الوقت .

ولكني دفعته وقفزت خارج الترام . كان قد نفد صبري . لم أكن أستطيع تحمل أن تكون هذه الأشياء قريبة هذا القرب . ووقفت حائراً ، ولاحت ، فقفزت كينونات خشبية قذرة واحدة وتعلقت بالقرى . إني الآن أجد نفسي وأعرف أين أنا : إني في الحديقة العامة ، وأتعاطى لسقوط جسمي مقعد بين الجذوع الكبيرة السوداء ، بين الأيدي المعقدة السوداء التي تمتد نحو السماء وتلك شجرة الأرض تحت قدمي بظفر أسود . كم أود لو استسلمت لو أنسى نفسي ، لو أنام ، ولكني لا أستطيع ، إني أختنق : إن الوجود يخترقني من كل مكان ، من العينين ، من الأنف ، من الفم ...

وفجأة ، يتمزق الحجاب ، لقد فهمت ، لقد رأيت .

الساعة السادسة مساء

لا أستطيع القول بأني أحسُّني خفيفاً ولا مسروراً ، بل إنه على العكس ، يسحقني . غير أن غايتي قد أدركت : إني أعرف ما كنت أود أن أعرفه . لقد فهمت كل ما حدث لي منذ كانون الثاني . إن الغثيان لم يتركني ، ولا أحسب أنه سيتركني بهذه السرعة ، ولكني لا أكابده بعد ، فهو لم يعد مرضاً ولا نوبة عارضة . إنه أنا .

وإذن فقد كنت الساعة في الحديقة العامة . وكان جذر شجرة الكستنا يغرز في الأرض ، تحت مقعدي تماماً . ولم أكن أذكر بعد أنه كان جذراً . فقد غارت الكلمات ، وغار معها معنى الأشياء ، وطرق استعمالها ، والمعالم

الصفيحة التي وضعها البشر على سطحها . كنت جالساً ، مقوّساً بعض الشيء ، منخفض الرأس ، وحيداً قبالة هذه الكتلة المعقّدة السوداء ، الخام كلياً ، التي تثير خوفي . ثم حدث لي ذلك الاشراق .

وقد قطع ذلك نفَسي . اني لم استشعر قط ، قبل هذه الايام الاخيرة ، ما كانت تعنيه كلمة « وُجد » . كنت كالآخرين ، كأولئك الذين يتنزهون على شاطىء البحر بثيابهم الربيعية . وكنت أقول مثلهم « ان البحر « هو » أخضر ؛ وتلك النقطة البيضاء ، هنالك عالياً ، « هي » عصفور الزمّج » ، ولكني لم اكن أحس بأن ذلك كان كائناً ، أن الزمّج كان « زمّجاً ــ كائناً » ؛ ان الكينونة تختبىء عادة . إنها هنالك ، حولنا ، فينا ، انها « نحن » ، ولا يمكن قول كلمتين من غير التحدث عنها ، وهي في النهاية لا تُلمس . وحين كنت اظن اني افكّر فيها ، فيجب الاعتقاد باني لم اكن افكر في شيء ، بـل كان رأسي فارغاً ، او كان في رأسي كلمة واحدة لا غـير ، كلمة « الكون » . او انني كنت افكر ... كيف اعبّر ؟ كنت افكر « بالانتماء » ، كنت اقـول لنفسي إن البحر كان ينتمي لطبقة الأشياء الخضراء ، او ان الخضرة كانت صفـة من صفات البحر . وحتى حين كنت انظر الاشياء ، كنت بعيداً عن التفكير بأنها كانت كائنة : فقد كانت تبدو لي كديكور . وكنت آخذها بيـديّ ، وكنت أبصرها آلات ، وكنت أتنبأ بمقاومتها . ولكن ذلك كله كان يحدث على السطح ، ولو كنت سُئلت عما عساها تكون الكينونة ، لكنت أجبت بكل صدق بأنها ليست شيئاً ، وإنها على الاكثر شكل فارغ يأتي فيضاف الى الاشياء من الخارج ، من غير ان يبدل شيئاً في طبيعتها . ثم فجأة ، كانت هنالك ، واضحة كالنهار : لقد كشفت الكينونة فجأة عن نفسها . كانت قد فقدت صفتها كفئة مجردة : كانت عجين الاشياء بالذات ، ذلك الجذر كان معجوناً في الكينونة . او على الاصح ، كان الجذر ، وحواجز الحديقة ، والمقعد ، والعشب النادر ، كان كل ذلك قد غار وتلاشى ؛ لم يكن تنوّع الاشياء وفرديتها إلا مظهراً ، طلاء . وهذا الطلاء كان قد ذاب ، فبقيت كتل ، مسيخة رخوة

في عمق الظلام — عارية عرياً فظيعاً داعراً .

كنت أحرص على ألا آتي أدنى حركة ، ولكن لم تكن بي حاجة الى التحرك لأرى ، خلف الأشجار ، الأعمدة الزرقاء ومصباح كشك الموسيقى ، والفيلادا ، وسط غابة كثيفة من شجر الغار . جميع هذه الأشياء ... كيف أعبّر ؟ كانت تزعجني ، كنت أتمنى لو انها كائنة بشكل أضعف ، بطريقة أكثر جفافاً ، أكثر تجريداً ، وتزيد من التواضع . كانت شجرة الكستناء تضغط على عيني . وكان صدأ أخضر يغطيها حتى منتصفها ، وكانت القشرة المتورمة السوداء تبدو وكأنها من الجلد المغلي . وكان خرير مياه نبع «مسكوتن» يسيل في أذني ويقيم له فيهما عشاً ، ويملأهما بالتنهدات ، وكان منخراي يفيضان برائحة خضراء عفنة . كانت جميع الأشياء تستسلم للكينونة ، بلطف ورقة ، على غرار هاتيك النساء المتعبات اللواتي يستسلمن للضحك ويقلن : «ما ألذ الضحك» ، بصوت مبتل ؛ كن يتمددن ، بعضهن تجاه بعض ، ويتبادلن المباراة الكريهة عن كينونتهن . وأدركت انه لم يكن ثمة وسط بين اللاكينونة وهذا الخصب الجذلان . فاذا كان المرء كائناً ، فينبغي ان يكون كائناً حتى هذا الحد ، حتى العفن ، حتى التورم ، حتى الدعارة . ان الدوائر وأنغام الموسيقى ، في عالم آخر ، لتحتفظ بخطوطها النقية الصلبة . ولكن الكينونة التواء . فالأشجار والأعمدة الزرقة بالليل ، وهديل نبع سعيد ، والروائح الحية ، والضباب الحراري الخفيف الذي يحوم في الهواء البارد ، ورجل أحمر يهضم وهو جالس على مقعد : جميع هذه الألوان من الاغفاء والهضم تكشف ، حين تؤخذ معاً ، عن مظهر هزلي . هزلي ... كلا : لم يكن الأمر يبلغ ذلك الحد ، فليس لما هو كائن ما يمكن ان يكون هزلياً ، وانما كان ذلك شبيهاً غائماً ، يكاد يكون غير قابل للالتقاط ، مع بعض مواقف الفودفيل . لقد كنا كومة من الكائنين المتضجرين ، المرتبكين بأنفسنا ، ولم تكن هنالك اي سبب لنكون هنا ، لا نحن ولا الآخرون ، وكان كل كائن قلق مضطرب يحس نفسه زائداً على اللزوم بالنسبة للآخرين . «الزيادة على اللزوم» : تلك كانت

الصلة الوحيدة التي استطيع ان اقيمها بين هذه الأشجار ، هذه الحواجز ، هذا الحصى . وعبثاً كنت احاول « عدّ » اشجار الكستناء ، « ومَوْضَعتها » بالنسبة للفيلادا ، ومقارنة ارتفاعها بارتفاع اشجار الدلب : فقد كان كل منها يُفلت من الصلات التي كنت أحاول ان احبسه فيها ، وينعزل ، ويفيض . هذه العلاقات (التي كنت أصرّ على إبقائها لأؤخر انهيار العالم الانساني ، والمقاييس ، والكميات ، والاتجاهات) كنت أحسّ اعتباطيتها ، انها لم تكن تعض بعدُ على الاشياء . « زائدة عن اللزوم » شجرة الكستناء ، القائمة هناك قبالتي الى اليسار . « زائدة على اللزوم » الفيلادا ...

و « أنا » — المسترخي ، الداعر ، المهتز ، الدافق بأفكار كامدة — « انا ايضاً كنت زائداً على اللزوم » . ومن حسن الحظ اني لم اكن اشعر بذلك ، كنت افهمه خاصة ، ولكني كنت مزعجاً لأني كنت أخشى أن أحسه (وما زلت انا الآن خائفاً من ذلك — اني اخشى ان يأخذني هذا من وراء رأسي ويرفعني كموجة عالية) كنت أحلم بغموض في ان أنتحر لكي أعدم على الأقل احدى هذه الكينونات الزائدة . ولكن موتي نفسه كان يكون زائداً على اللزوم . زائدة على اللزوم جثتي ، ودمي على هذا الحصى ، بين هذه النباتات واعلى هذه الحديقة الباسمة . واللحم المتفسخ كان يكون زائداً على اللزوم في الارض التي تكون قد تلقته ، وعظامي أخيراً ، بعد ان تكون قد نُظّفت ونُزع عنها اللحم ، فأصبحت نقية وصحيحة كالاسنان ، كانت تكون هي ايضاً زائدة على اللزوم : كنت زائداً على اللزوم بالنسبة للخلود .

إن كلمة « العبثية » تولد الآن تحت قلمي ، صحيح اني لم اجدها حين كنت منذ حين في الحديقة ، ولكني لم أكن مع ذلك ابحث عنها ، فلم تكن لي حاجة اليها : كنت افكر بلا كلام ، « عن » الاشياء ، « مع » الاشياء . لم تكن العبثية فكرة في رأسي ، ولا نفثة صوت ، وانما كانت هذه الحية الطويلة الميتة عند قدمي ، هذه الحية الخشبية . حية او ظفر او جذر او مخلب نسر ،

كل هذا سواء. ولقد كنت افهم، من غير ان أكوّن صيغة واضحة، اني وجدت مفتاح «الكينونة»، مفتاح «غثياناتي»، مفتاح حياتي نفسها. والواقع ان كل ما استطعت ان التقطه فيما بعد يتلخص في هذه العبثية الاساسية. عبثية: كلمة أخرى؛ اني أتخبط تجاه الكلمات؛ اما هنا، فقد كنت ألمس الشيء. غير اني أود ان أثبت هنا الطابع المطلق لهذه العبثية. إن حركة او حدثاً في عالم البشر الملوّن الصغير ليس هو عبثياً إلا بشكل نسبي: بالنسبة للظروف التي ترافقه. فان خُطَب مجنون مثلاً هي عبثية بالنسبة لما هو فيه من موقف، لا بالنسبة لهذيانه. ولكني أنا قمت منذ حين بتجربة المطلق: المطلق او العبثي. فذلك الجذر، لم يكن ثمة ما يجعله عبثياً بالنسبة له. اوه! أنّى لي ان أثبت ذلك بالكلمات؟ عبثي: بالنسبة للحصى، وللأعشاب الصفراء، وللوحل الجاف، وللشجر، وللسماء، وللمقاعد الخضراء. عبثي، غير ممكن التقليص؛ لا شيء يمكنه ان يشرحه — حتى ولا جنون لطبيعة عميق وخفي. طبعاً، لم أكن اعرف كل شيء، لم أكن قد رأيت الحبة تنبت ولا الشجرة تترعرع. ولكن امام هذه الرجل الضخمة الخشنة لم يكن للجهل ولا للمعرفة أهمية: إن عالم الشروح والتعليلات ليس هو عالم الكينونة. الدائرة ليست شيئاً عبثياً، فهي تُشرح جيداً بأنها دوران خط مستقيم حول احد طرفيه. ولكن الدائرة ايضاً غير كائنة. اما هذا الجذر، فقد كان على العكس كائناً بشكل قدر عجزي عن شرحه. كان بعقده وجموده وانعدام الاسم له يسحرني ويملأ عيني، ويعيدني بلا انقطاع الى كينونته الذاتية. وقد حاولت كثيراً ان أردد: «انه جذر» ولكن ذلك كفّ عن ان ينجح. كنت أرى جيداً ان المرء كان عاجزاً عن الانتقال من وظيفته كجذر، كمضخة جاذبة، «الى هذا»، «الى هذه القشرة القاسية الكثيفة، الشبيهة بظهر الفُقمة، الى هذا المظهر الزيتي، الكابي، العنيد. لم تكن الوظيفة تشرح شيئاً: وانما كانت تسمح للمرء أن يفهم فهماً إجمالياً ما عساه يكون الجذر، لا ما «هو» على الاطلاق. إن هذا الجذر، بلونه، وشكله وحركته المتحجرة، كان... تحت كل شرح. كان كل من

صفاته يفلت منه قليلاً ، يسيل خارجاً عنه ، يتجمد نصف تجمد ، ويصبح شيئاً ما تقريباً ، كانت كل صفة ، زائدة عـن اللزوم في « الجذر » ، وكانت الأرومة كلها تعطيني الآن الشعور بأنها تتدحرج قليلاً خارج نفسها ، بأنها تنكر نفسها ، بأنها تضيع في تطرّف غريب . وحككتُ عقبي بهـذا الظفر الأسود : لقد وددت لو أجرحه بعض الشيء . لا لغاية ، بل تحدياً ، ولكي أظهر على الجلد المدبوغ اللون الوردي الذي يظهر على الخدشة : « لألعب » مع عبثية العالم . ولكني حين سحبت قدمي ، رأيت ان القشرة قد بقيت سوداء .

سوداء ؟ إن الجذر « لم يكن » أسود ، ولم يكن سواداً هذا الذي على قطعة الخشب — وإنما كان . . . شيئاً آخر : ان السواد ، شأنه في ذلك شأن الدائرة ، لم يكن كائناً . وكنت أنظر الى الجذر : أكان « أكثر من أسود » ام كان أسود « تقريباً » ؟ ولكني ما لبثت أن كففت عن التساؤل ، لأني كنت أحسّ أني في ميدان أعرفه . أجل ، لقد سبق لي ان ترصدت ، بهذا القلق ، أشياء غير قابلة للتسمية ، وكنت قد حاولت — عبثاً — ان افكر بشيء ، عنها ، وكنت قد أحسست بصفاتها ، الباردة الساكنة ، تفلت وتنزلق بين أصابعي . مثلاً رافعة بنطلون أدولف ، في ذلك المساء ، في مقهى « رانديفو دي شامينو » ، لم « تكن » بنفسجية . وعُدت أرى اللطختين اللتين لم يكن ممكناً تعريفهما ، على القميص . والحصاة ، تلك الحصاة الشهيرة ، مصدر هذه القصة كلها : انها لم تكن . . . لم أكن أذكر جيداً على الضبط ما كانت ترفض ان تكونه . ولكني لم أكن قد نسيت صمودها السلبي . ويد العصامي ؛ كنت قد أخذتُها وصافحتها ، ذات يوم ، في دار الكتب ، ثم أخذني الاحساس بأنها لم تكن تماماً يداً . كنت قد فكرت بدودة كبيرة بيضاء ، ولكنها لم تكن تلك أيضاً . وشفافيـة قدح البيرة الملتبسة ، في مقهى مابلي . ملتبسة : هكذا كانت الأصوات والعطور والمذاقات فهي حين تنسل بسرعة تحت الانف كأنها أرانب مطرودة ، فلا تولها اهتماماً كبيراً ، فأنت تستطيع ان تظنها بسيطة ومطمْئنة ، وتستطيع ان تعتقد انه كان في الدنيا زرقة حقيقية او حمرة حقيقية ، او رائحة حقيقية ، او رائحة بنفسج

حقيقية. ولكن يكفي ان تمسكها لحظة، حتى يحلّ محلّ هذا الشعور بالرضى والأمن انزعاج عميق: ان الألوان والمذاقات والروائح لم تكن قط حقيقية، ولم تكن قط هي نفسها ولا شيء سواها. ان الصفة الأبسط والأشدّ امتناعاً على التحليل كان فيها شيء زائد على اللزوم بالنسبة لنفسها، في قلبها. فالسواد القائم هنا، بإزاء قدمي، لم يكن يبدو سواداً، وانما كان بالأحرى جهداً غامضاً لتصوّر السواد يبذله شخص لم يسبق له ان رأى سواداً ولم يعرف ان يتوقف، شخص تصوّر كائناً ملتبساً، فيما وراء الألوان. كان ذلك «يشبه» لوناً، ولكنه يشبه كذلك رُضوضاً، او افرازاً، او مُصالة — وشيئاً آخر، رائحة مثلاً: كان ذلك يذوب رائحة أرض مبتلّة، او رائحة خشب دافىء مبتلّ، يذوب رائحةً سوداء ممدّدة كأنها الطلاء على هذا الخشب العصبي، ومذاقاً لعرق ممضوغ، مسكّر. لم أكن «أراه» ببساطة، هذا السواد: فالرؤية اختراع مجرّد، فكرة منظّفة، مبسّطة، فكرة من أفكار الإنسان. كان ذلك السواد، الذي هو حضور مسرّح غير متشكّل، يتجاوز من بعيد الرؤية والشمّ والمذاق. ولكن هذا الغنى كان يتحوّل الى التشوّش، وينتهي به الأمر ألّا يكون شيئاً، لأنه كان زائداً على اللزوم.

كانت تلك لحظة عجيبة. كنت هنا جامداً مثلجاً، غارقاً في نشوة فظيعة. ولكن في وسط هذه النشوة بالذات، كان شيء جديد يظهر، كنت أفهم «الغثيان»، وأمتلكه. والحق يُقال اني لم أكن أصوغ اكتشافاتي في صيغ. ولكني أعتقد انه سيكون يسيراً عليّ الآن ان أضعها في كلمات. الشيء الجوهري هو عدم لزوم الوجود. أقصد ان الوجود، بالتعريف، ليس هو اللزوم والضرورة. فأن يوجد المرء، هو ببساطة ان «يكون هنا»، ان الموجودين يظهرون، ويَدَعون انفسهم «يلاقَون»، ولكننا لا نستطيع ابداً ان «نستنتجهم». وأحسب ان هنالك أشخاصاً قد فهموا ذلك. غير انهم حاولوا ان يتغلبوا على عدم لزوم الوجود هذا بأن يخترعوا كائناً ضرورياً وسبباً لنفسه. والحق ان اي كائن ضروري لا يستطيع ان يشرح الوجود: ان عدم لزوم

الوجود ليس وهماً ، ليس مظهراً يمكن تبديده ، انه المطلق ، وبالتالي المجانية الكاملة . كل شيء مجاني ، هذه الحديقة ، وهذه المدينة ، وانا نفسي . واذا اتفق لك ان ادركت هذا ، غار قلبك واخذ كل شيء يعوم ، كما حدث ذلك المساء ، في مقهى « رانديفو دي شامينو » : ذلك هو الغثيان ؛ وهذا ما يحاول « القذرون » — سكان « التل الأخضر » وسواهم — ان يخفوه عن انفسهم متذرّعين بفكرتهم عن الحق . ولكن اية كذبة مسكينة هذه ! ليس ثمة من احد له الحق ، انهم مجانيّون كليّة ، كسائر الناس ، وهم يخفقون في ألّا يحسّوا انفسهم زائدين عن اللزوم . وهم في انفسهم ، بصورة خفيّة ، « زائدون عن اللزوم » ، اي غير متشكّلين ، ملتبسون ، حزانى .

كم استغرق هذا السحر من وقت ؟ لقد « كنتُ » جذر شجرة الكستناء ، او على الأصح كنت برمّتي وعياً لكينونتها . وكنت ما أزال منفصلاً عنها — ما دمت أعيها — ومع ذلك كنت ضائعاً فيها ، ولا شيء إلا "ها" . وعيٌ متزعزع ، ولكنه كان مع ذلك يسقط بكل وزنه ، بلا سند ، على هذه القطعة الخشبية الجامدة . كان الزمن قد توقف : بركة صغيرة سوداء عند قدمي ، وكان مستحيلاً ان يأتي شيء ما « بعد » تلك اللحظة . وقد وددت لو انزع نفسي من هذه المتعة الفظة ، ولكني لم اكن اتصور ان ذلك ممكن ، كنت في الداخل ، وكانت الارومة السوداء « لا تمرّ » ، كانت باقية هنا ، في عيني كما تبقى قطعة مفرطة الحجم في حلق الساذج بأكل . ولم اكن استطيع ان اقبلها ولا ان ارفضها . بثمن اي جهد استطعت ان ارفع عيني ؟ بل هل ترى اني قد رفعتها ؟ ألم ألاشِ نفسي ، على الأصح ، منذ لحظة ، لكي أولد في اللحظة التالية مقلوب الرأس ، متجه العينين الى أعلى ؟ والواقع اني لم اشعر بأنه كانت ثمّة مرور او انتقال . ولكن اصبح مستحيلاً عليّ ، بصورة مفاجئة ، ان افكر بوجود الجذر . كان قد امّحى ، وقد رددت كثيراً : « انه كائن ، وهو ما يزال هنا ، تحت المقعد ، بإزاء قدمي اليمنى » ، ولكن ذلك لم يكن يعني شيئاً بعد . ان الوجود ليس شيئاً يُفكّر به من بعيد : بل ان ذلك يجب ان يغمرك فجأة ، ان يتوقف عليك ،

وان يَبْرُدَ قليلاً حتى قلبك ، كحيوان ضخم نائم – وإلا فليس ثمة شيء بعد على الإطلاق .

ولم يكن ثمة شيء بعدُ على الإطلاق ، كانت عيناي فارغتين ، وكنت مسحوراً بتحرّري . ثم فجأة ، جعل شيء ما يتحرّك امام عينيّ ، حركات خفيفة غير واثقة : كانت الريح تهزّ قمة الشجرة .

لم يكن يسوءني ان ارى شيئاً يتحرّك ، على العكس كان يسليني جميع تلك الكينونات الساكنة التي كانت تنظر اليّ كأنها عيون ثابتة . وكنت اقول لنفسي ، وانا اتابع تأرجح الغصون : ان الحركات لا توجد ابداً ، منعزلة ، وانما هي انتقالات ، مراحل بين كينونتين ، اوقات ضعيفة . وكنت اتأهّب لكي اراها تخرج من العدم ، وتنضج تدريجياً ، وتتفتّح : سيتاح لي اخيراً ان افاجيء كينونات في حالة الولادة .

ولكني لم احتج الى اكثر من ثلاث ثوان لتخيب جميع آمالي . فعلى تلك الغصون المتردّدة التي كانت تتلمّس ما حولها كالعميان ، لم افلح في التقاط « انتقال » ما الى الكينونة . وإذن ، ففكرة الانتقال هذه هي ايضاً من اختراع البشر . انها فكرة مفرطة الوضوح . لقد كانت جميع هذه الحركات الدقيقة تنعزل ، وتقف لتتفرّج على نفسها . كانت تتجاوز ، من كل جهة ، الاغصان والفروع . وكانت تدوّم حول هذه الأيدي الجافة ، وتغمرها بالأعاصير الصغيرة . ان الحركة هي ، بكل تأكيد ، شيء مختلف عن الشجرة ولكنها كانت مع ذلك مطلقاً شيئاً . ولم تكن عيناي تلتقيان قط الا ما هو امتلاء . كانت اطراف الأغصان تزخر بالكينونات ، كينونات تتجدّد بلا انقطاع ولا تولد ابداً . وكانت الريح الكائنة تأتي فتحطّ على الشجرة كذبابة ضخمة ، وكانت الشجرة ترتعش . ولكن الرعشة لم تكن صفةً مولودة ، انتقالاً من القوة الى الفعل ، وانما كانت شيئاً ، كانت شيء – رعشة ينصبّ في الشجرة ، فيستولي عليها ، ويهزّها ، ثم فجأة يتركها ، ويمضي بعيداً دائراً على نفسه . كان كل شيء ممتلئاً ، كل شيء ناشطاً ، لم يكن ثمة وقتٌ ضعيف ، كل شيء ،

حتى اكثر الانطفاءات خفاء ، كان مصنوعاً من الكينونة . وجميع تلك الكائنات التي كانت منهمكة حول الشجرة ، لم تكن قادمة من اي مكان ، ولا ذاهبة الى اي مكان . كانت تُوجد فجأة ، وبعد ذلك تكفّ فجأة عن ان توجد : ان الكينونة لا ذاكرة لها ، فهي لا تحتفظ بشيء ممّن مضى ، حتى ولا بذكرى . الكينونة في كل مكان ، الى ما لا حدّ ، زائدة على اللازم ، دائماً وفي كل مكان ، الكينونة التي لا يحدّها ابداً غير الكينونة . وتهالكت وأنا على المقعد ، طائشاً ، منهكاً بهذا التدفّق لكائنات لا اصل لها : ففي كل مكان تفجّرات وتفتّحات ، وقد كانت اذناي تطنّان بالكينونة ، ولحمي نفسه كان يخفق ويتفتّح ويستسلم للبرعم الكوني ، وكان ذلك يدعو للنفور ، وفكرة : « ولكن لمَ هذه الكينونات كلّها ، ما دامت جميعاً متشابهة ؟ » ما جدوى هذه الأشجار المماثلة كلها ؟ ما جدوى هذه الكينونات الناقصة والمستعادة بعناد ، ثم الناقصة من جديد — كالجهود المرتبكة التي تبذلها حشرة قد وقعت على ظهرها ؟ (كنت احد هذه الجهود) . ان هذه الغزارة لم تكن تخلق نتيجة السخاء ، على العكس . كانت كئيبة ، مضرورة ، مرتبكة بنفسها . تلك الأشجار ، تلك الأجسام الكبيرة الخرقاء ... وأخذت اضحك لأني كنت افكر فجأة بالربيع العظيم الذي كان يوصف لي في الكتب ، مليئاً بالتفجّرات والتفتّحات العملاقة . كان ثمة حمقى يأتون ليحدثوك بطيب خاطر عن القوة والصراع من اجل الحياة . أتراهم لم ينظروا قط الى حيوان او الى شجرة ، الى شجرة الدلب هذه ، مع صفائحها المصابة بداء الثعلب ، وشجرة السنديان هذه التي تعفّنت نصف تعفّن ، وودّوا لو يحملوني على الاقتناع بأنهما قوتان فتيّتان خشنتان تندفعان نحو السماء . وهذا الجذر ؟ لقد كان واجباً عليّ بلا شك ان اتمثله مخلباً شرهاً يمزّق الأرض وينتزع منها غذاءها ؟

كان مستحيلاً ان ارى الأشياء على هذا الشكل . انها على الأصح الوان من الرخاوة والضعف . كانت الأشجار تعوم . اندفاع نحو السماء ؟ الأصح انه سقوط ، كنت اتوقّع في كل لحظة ان ارى الجذوع تتجعّد ، كقضبان متعبة ،

وتتجمّع لتسقط على الأرض كومة طرية سوداء ذات لثيات . ولم تكن رائحة ، في أن توجد ، غير أنها لم تكن تستطيع الامتناع عن ذلك ، هذا كل ما في الأمر واقف ، فقد كانت كلها تُعدّ مضطجعها على مهل ، في غيرها الفقاع ، وكان الشمع يصعد متمهلاً في العروق ، على مضض ، وكانت الجذور تنغرس على مهل في الأرض ، ولكنها كانت تبدو في كل لحظة على وشك أن تترك كل شيء هناك وتتلاشى . كانت تستمرّ في الكينونة ، متعبة معسّرة ، في كثير من الأشياء ، لأنها بكل بساطة كانت أضعف من أن تموت ، لأن الموت لم يكن يستطيع أن يأتيها إلا من الخارج : ولم يكن ثمة عبر الألحان الموسيقية لتحمل بزهو موتها في ذاتها كضرورة داخلية ، غير أنها لم تكن كائنة . أن كل موجود يولد بلا سبب ، ويستمر بدافع الضعف ، ويموت بالاتفاق ، وتداعيت إلى الخلف ، وأسبلت جفنيّ . ولكن الصور ما لبثت ، وقد أنذرت ، أن وثبت فأفعمت ثملاً عينيّ المغلقتين بالكينونات : إن الكينونة امتلاء لا يستطيع الانسان أن يتركه .

ويا لها من صور غريبة ! كانت تمثل طائفة من الأشياء . لا الأشياء الحقيقية ، وإنما أشياء أخرى تشابهها . أشياء من خشب كانت تشبه كراسي وقباقيب . وأشياء أخرى كانت تشبه نباتات . ثم وجهان : كانا الشاب والشابة اللذين تناولا الغداء بقربي ، يوم الأحد الماضي ، في مطعم فزالير . سمينان ، حارّان ، شهوانيان ، عبثيان ، بآذان حمراء . وكانت أرى كتفي المرأة وصدرها . كينونة عارية . إن هذين الاثنين — وذلك ما بذعرني فجأة — كانا مستمرّين في الوجود ، في جهة ما من بوفيل ، في مكان ما — وسط أية روائح ؟ — هذا الصدر اللذيذ كان ما يزال يحتك بأقمشة رطبة ، ويقبع في المخرّمات ، وكانت المرأة ما تزال تشعر بصدرها كائناً في ثوبها ، وكانت ما تني تفكر : « نهداي ، ثمرتاي الجميلتان » ، وتبتسم بسمة سرية ، منتبهة الى تفتح نهديها اللذين كانا يتفتحان ، ثم صرخت وألفيتني مفتوح العينين على سعتهما .

أتراني قد حلمت به ، هذا الحضور الهائل ؟ كان هنا ، ماثلاً في الحديقة ،

متدحرجاً في الشجر، رخواً برمّته، مصمّغاً كل شيء، كثيفاً كله، كأنّه الفاكهة المربّاة. وهل كنت انا في داخله، مع الحديقة كلها؟ كنت خائفاً، ولكني كنت خصوصاً غاضباً، وكنت اجد ذلك على غاية البلاهة والنفور، وكنت اكره هذا الخليط المريع. كان ثمة خليط، كان ثمة خليط! وكان يصعد نحو السماء، ويمضي في كل اتجاه، ويملأ كل شيء بسقوطه المدبّق، وكنت ارى منه اعماقاً واعماقاً، ابعد جداً من حدود الحديقة ومن البيوت ومن بوفيل، ولم اكن بعدُ في بوفيل ولا في اي مكان. كنت عائماً. ولم اكن مندهشاً، وكنت اعلم جيداً انه «العالم»، «العالم» العاري الذي يظهر فجأة، وكنت اختنق غضباً من هذا الكائن العبثي الضخم. لم يكن بامكان المرء حتى ان يتساءل من اين كان ذلك كله خارجاً، ولا كيف تمّ ان وُجد عالم، ولم يوجد لا شيء. لم يكن لذلك اي معنى. كان العالم حاضراً في كل مكان، امام ووراء. لم يكن ثمة شيء «قبله». على الاطلاق. لم تكن ثمة لحظة لم يكن يستطيع فيها الا يوجد. كان هذا هو ما يغيظني حقاً: اكيد انه لم يكن ثمة «اي سبب» لكي توجد، تلك الدودة السائلة. ولكن لم يكن ممكناً الا توجد. كان ذلك ممتنعاً على التفكير: فلكي يتخيّل المرء العدم، فيجب ان يكون قد سبقه الى الوجود هناك في صميم العالم، مفتوح العينين على سعتهما وحيّاً؛ ان العدم لم يكن الا فكرة في رأسي، فكرة موجودة عائمة في هذا المدى الشاسع؛ وهذا العدم لم يكن قد جاء «قبل» الوجود، كان وجوداً كأي وجود آخر، وكان قد ظهر قبل كثير من الكينونات الاخرى. وصحت: «اية قذارة! اية قذارة!» وانتفضت لأتخلص من هذه القذارة المدبّقة، ولكنها كانت تقاوم بشدّة، والى ما لا نهاية له: وكنت اختنق في جوف هذا السأم الهائل، ثم فرغت الحديقة فجأة، كما لو انها سقطت في ثقب كبير، واختفى العالم على النحو الذي جاء فيه، او انني استيقظت — انني على اي حال لم اره بعدُ، وكان باقياً تراب اصفر حولي، كانت تخرج منه اغصان ميتة منتصبة في الهواء.

ونهضت فخرجت . وإذ وصلت الحاجز ، التفتُّ ، فابتسمت لي الحديقة لذلك . واستندت الى الحاجز ونظرت طويلاً . كانت بسمة الأشجار ، وكتلة الغار « تعني » شيئاً ما ؛ كان هذا سرّ الكينونة الحقيقي . وتذكرت اني منذ ثلاثة أسابيع ، وكان اليوم يوم احد ، كنت قد التقطت على الاشياء نوعاً من الهيئة المتواطئة . أتراها كانت تتوجه اليّ انا ؟ كنت اشعر في ملل بأني لم اكن أملك اي وسيلة للفهم . أي وسيلة . ومع ذلك ، فقد كان هنالك ، في الانتظار ، كان يشبه نظرة . كان هناك ، على جذع شجرة الكستناء ... كان هو شجرة الكستناء . لكأنّ الاشياء افكار توقفت في الطريق ، تنسى نفسها ، تنسى ما كانت تريد ان تفكر به ، وتظل هكذا ، فضفاضة ، مع معنى عجيب صغير يتجاوزها . وكان يزعجني ، هذا المعنى الصغير : لم اكن أستطيع ان افهمه ، حتى ولو ظللت منحنياً مئة سنة مستنداً الى الحاجز ، كنت قد تعلّمت عن الكينونة كل ما كان بوسعي ان أعرف . وذهبت ، فدخلت الفندق ، وهكذا ، كتبت .

في الليل

اتخذت قراري : ليس لي من مبرر بعدُ لأبقى في بوفيل ، ما دمت قد انقطعت عن كتابة كتابي ، سأذهب لأعيش في باريس . سأستقل يوم الجمعة قطار الساعة الخامسة ، وسألتقي يوم السبت بآني ، وأعتقد اننا سنقضي بضعة ايام معاً . ثم اعود الى هنا لأنهي بعض القضايا ولأحزم امتعتي وصناديقي . وفي اول آذار ، على ابعد تقدير ، سأكون نهائياً مقيماً في باريس .

الجمعة

في مقهى « رانديفو دي شامينو » . سينطلق قطاري بعد عشرين دقيقة . الفونوغراف . شعور قوي بالمغامرة .

السبت

أقبلت آني تفتح لي ، وهي ترتدي ثوباً طويلاً أسود . وبالطبع ، لم تمد

في بيتها ، ولم تُلقِ عليّ التحية ، واحتفظت بيدي اليمنى في جيب معطفي ، وقالت بلهجة عابثة سريعة ، للتخلص من الشكليات :

— ادخل ، فاجلس حيث تشاء ، إلا على الأريكة قرب النافذة .

إنها هي ، هي تماماً ، لقد تركت ذراعيها تتدليان ، وكانت على وجهها شراسة كانت تضفي عليها في الماضي هيئة طفلة تعاني من الطوق ، ولكنها الآن لا تشبه بعدُ طفلة . إنها جميلة ، ولها صدرٌ كبير .

وأغلقت الباب ، وقالت لنفسها بلهجة تأملية :

— لا أدري أن كنت سأجلس على السرير ...

وأخيراً ، تداعت للسقوط على صندوق مغطى بسجادة . وكانت مِشيتها متغيّرة : فقد كانت تتنقل بثقل وأُبّهة ، في شيء من الرشاقة . وهي تبدو مرتبكة ببدانتها الفتية . ومع ذلك ، وبالرغم من كل شيء ، فإنها هي نفسها .

وانفجرت آني ضاحكة :

— لماذا تضحكين ؟

ثم جثت على الأرض ، كما هو شأنها دائماً ، واتخذت هيئة الراكعة .

— قولي لماذا ؟

— بسبب هذه البسمة العريضة التي تصنعها منذ دخولك . إنك تشبه أباً قد انتهى من تزويج ابنته . هيا لا تبق واقفاً . ضع معطفك واجلس . نعم ، هنا إذا شئت .

ومع ذلك فحتى لم تحاول آني أن تنظفه . ما أشدّ تغيّر هذه الغرفة ! في الماضي كانت آني تحمل في سفرها حقيبة كبيرة ملأى بالشالات والشرائط والعمارات الأسبانية والأقنعة اليابانية وصور أبينال . وكانت ما تكاد تنزل فندقاً — حتى ولو لم تدرِ أن تبقى فيه أكثر من ليلة واحدة — حتى يكون همّها الأول أن تفتح هذه الحقيبة ، وأن تُخرج منها كلّ ثرواتها التي كانت تعلّقها على الجدران ، وتُدلّيها من المصابيح ، وتبسطها على الطاولات أو

على الأرض وفق نظام متغيّر ومعقد ، وفي أقل من نصف ساعة ، كانت ألفة غرفة ترتدي لباس شخصية نبيلة وشهوانية ، لا مواربة فيهـا . وربما كانت الشقية قد ضاعت ، أو بقيت في الاستيداع ... هذه الغرفة الزرقاء ببابها الذي يتفتح على غرفة التواليت من شيء كئيب . إنها تلفه ، أصفر ما فيها وأحزانه غرفتي في بوفيل .

وظلت آني تضحك . إنني أعرف جيداً هذه الضحكة العالية البحّة .

ــ إنك لم تتغيّر . ما الذي تبحث عنه بهذه الهيئة المذعورة ؟

وابتسمت ، ولكن نظرها حدقت فيّ بفضول يكاد يكون عدائياً .

ــ كنت أفكر فقط أن هذه الغرفة لا تبدو مسكونة من قبلك .

فأجابت بلهجة غامضة :

ــ حقاً ؟

صمت جديد . إنها الآن جالسة على السرير ، الشديدة الالتماع في ثوبها الأسود . إنها لم تقص شعرها . وقد ظلت تنظر إليّ ، بهيئة ساكنة ، وهي ترفع حاجبيها قليلاً . تُرى، أليس لديها إذن ما تقوله لي؟ لماذا حثتني على المجيء؟ إن هذا الصمت لا يُحتمل .

وقلت فجأة بلهجة مثيرة تثير الشفقة :

ــ إني مسرور لرؤيتك .

والتصقت الكلمة الأخيرة في حلقي . كان خيراً لي أن أصمت ، على أنه أبد بعدا الذي قلته فقط . إنها سوف تغضب بلا شك . وكنت أفكر بأن ربع الساعة الأول سيكون صعباً شاقاً . في الماضي ، حين كنت ألقى ثانية بآني ، حتى ولو بعد غياب أربع وعشرين ساعة ، حتى ولو في اليوم التالي للقاء صباحي ، لم أكن قط أحسن العثور على الكلمات التي كانت تنتظرها ، تلك التي كانت تناسب ثوبها ، أو الوقت ، أو الكلمات الأخيرة التي تبادلناها في اللقاء السابق . ولكن ما الذي تريده ؟ إنني لا أستطيع أن أحزره .

ورفعت عينيّ من جديد . كانت آني تنظر إليّ في شيء من الهدوء .

— إنك إذن لم تتغيّر على الاطلاق ؟ إنك ما تزال على حمقك ؟

كان وجهها يعبّر عن الرضى . ولكن كم كانت تبدو متعبة !

وقالت : — إنك تنتصب ، تنتصب على حافة طريق الملك لتشرح ، بلا اضطراب ، وتشرح ظروف حياتك ، ان « مولان » تقع على بعد سبعة وعشرين كيلومتراً ، وان « مونتارجيس » على بعد اثنين وأربعين . من اجل هذا ، انا شديدة الحاجة إليك .

— حاجة إليّ ؟ انت حاجة إليّ في اثناء هذه الأعوام الاربعة التي لم أرك فيها ؟ انك إذن قد كنت محتفظة تحفظاً جميلاً !

تكلمت وأنا ابتسم : إن بوسعها ان تعتقد اني أكنّ لها ضغينة . وأحسّ بهذه البسمة الزائفة على فمي ، فيستولي عليّ الانزعاج .

— ما احمقك ! طبعاً لست بحاجة إلى ان اراك ، اذا كان هذا ما تقصده . انت تعلم انه ليس فيك ما يُبهج النظر بصورة خاصة . اني بحاجة إلى ان توجد ، والى ان لا تتغيّر . إنك شبيه بـ « المتر » من البلاتين الذي يحفظونه في مكان ما بباريس ، او في الضواحي . وانا لا اعتقد ان ثمة من رغب يوماً في رؤيته .

— وهذا ما تخدعك .

— هذا لديّ سواء . اني ضرورة ان اعلم انه موجود ، وانه يساوي تماماً جزءاً من عشرة ملايين من ربع الكرة الأرضية . وانا افكر فيه كلما أخذت القياسات في منزل ، او كلما بيع لي قماش بالمتر .

قلت ببرودة : — حقاً ؟

— ولكنك تعلم ان بوسعي ألا افكر بك الا كفضيلة مجردة ، كنوع من الحد . فتستطيع ان تشكرني على اني أتذكر وجهك كل مرة .

ها هي ذي تعود ، تلك المناقشات الاسكندرانية التي كان عليّ ان اشارك فيها ، في الماضي ، حين كانت تراودني رغبات بسيطة وتافهة ، كأن أقول لها

بأني كنت ألمسها ، أو أن أضمها بين ذراعي . أما اليوم ، فليست لدي أية رغبة ، ربما باستثناء الرغبة في أن أصمت وأن أنظر إليها ، وأن أحلق في الصمت من هيبة هذا الحدث العظيم : حضور آني تجاهي ، وفي نظرها ، أيكون هـــذا اليوم شبيهاً بالأيام الأخرى ؟ إنه يبتسم ، هي ، لا ترتعش . كان لا بد أن نسيتها ما قالته لي يوم كتبت لي – أو لعل ذلك كان بكل بساطة هوى من أهوائها . أما الآن فقد أمسى الأمر ، منذ زمن بعيد ، غير وارد .

وابتسمت لي آني فجأة عن شديد الوضوح ، حتى أن الدمع صعد إلى عيني .

– لقد فكرت بك أكثر جداً مما فكرت عبر الثلاثين . لم ينقض يوم من غير أن أفكر فيك . وكنت أتذكر بصورة دقيقة حتى أدق تفاصيل شخصك .

ونهضت ، وأقبلت لتضع يدها على كتفي :

– هل تجرؤ على القول إنك كنت تتذكر وجهي ، أنت الذي تشكو ؟

قلت : – هذا خبث ، فأنت تعلمين جيداً أن لي ذاكرة ضعيفة .

– أنت تعترف بذلك ؛ لقد نسيتني تماماً . أتراك كنت عرفتني ، لو التقيتني في الشارع ؟

– طبعاً . فليست هذه هي القضية .

– أكنت تتذكر لون شعري مثلاً ؟

– نعم ، إنه أشقر .

فأخذت تضحك

– أنت تقول هذا مزهواً . إنك لا تنفق كثيراً من الكفاءة ما دمت الآن تراه .

ونكشت شعري بضربة من يدها ، ثم قالت وهي تقلدني :

– وأنت ، إن شعرك أحمر . إنني لن أنسى أبداً أني حين رأيتك للمرة الأولى ، كانت لك قبعة زهرية تنزع إلى اللون البنفسجي وتتنافى بصورة قاسية مع شعرك الأحمر . كان النظر إلى هذا المشهد شاقاً . أين قبعتك ؟ أريد أن أرى إذا كنت ما تزال رديء الذوق .

– اني لا اضع بعدُ قبعة.

فصفرت صفرة خفيفة وهي توسع عينيها :

– إنك لم تتخذ هذا القرار بمفردك ! بل ؟ انت ، أمثلك . طبعاً ! ولكن كان ينبغي التفكير في ذلك . ان هذا الشعر لا يتحمل شيئاً ، فهو يتناقض مع القبعات ومع وسائد الأرائك ، وحتى مع سجاد الجدران الذي يشبه خلفيته، أو انه لا بد من ان تبرز القبعة حتى أذنيك، كما كنت تفعل بتلك القبعة الانكليزية من اللباد التي اشتريتها من لندن . كنتَ تدخل خصلتك تحتها ، فلا يدري المرء اذا كان رأسك ما يزال يحتفظ بشعره .

وأضافت باللهجة الحاسمة التي تُنهي بها المنازعات القديمة :

– انها لم تكن تناسبك على الاطلاق .

ولم أدرِ بعدُ اية قبعة كانت تعني .

– اتراني كنت اقول إنها كانت تناسبني ؟

– اعتقد جيداً انك كنت تقول ذلك . بل انك لم تكن تتحدث الا عن هذا. وكنت تسترق النظر الى نفسك في المرايا ، حين كنت تحسب اني لم اكن اراك.

إن هذه الغرفة الدافئة ترهقني. إذ أني لا يبدو عليها انها تبعث ذكريات، فلهجتها لا تملك تلك النكهة الرقيقة البعيدة التي تناسب هذا النوع من الهم ، بل يبدو انها تتحدث عن اليوم ، او عن الامس ، على الاكثر ، لقد احتفظت بآرائها وعاداتها وحقدها السابق . اما بالنسبة لي ، فان كل شيء قد غرق، على العكس ، في ضباب شعري ، اني مستعد لجميع التنازلات .

وقالت لي فجأة بصوت لا غنى له :

– انت ترى اني انا قد صمت ، وشخت ، فيجب ان أعنى بنفسي .

نعم ، وكم تبدو متعبة ! وأردت ان اتكلم ، ولكنها سرعان ما أضافت :

– لقد قمت بالتمثيل على المسرح ، في لندن .

– مع « كالندار » ؟

– لا ، ليس مع كالندار. إنني افهم ما قصدك تماماً . فقد حشوت رأسك

بفكرة اني سأتعاطى التمثيل مع كاندلر . كم مرة ينبغي ان اقول لك ان كاندلر قائد فرقة موسيقية ؟ لا . وإنما في مسرح صغير اسمه «سولوسكوار» . وقد مثلنا «الامبراطور جونس» ومسرحيات لسين اوكازي «ولسانج» و«بريتانيكوس» .

فقلت بدهشة : – بريتانيكوس ؟

– نعم ، بريتانيكوس . ومن اجل هذا ، تركت . فأنا التي اعطيتهم فكرة تمثيل بريتانيكوس ، وقد ارادوا ان يسندوا إليّ دور « جوني » .

– صحيح ؟

– وبالطبع . لم اكن استطيع ان أمثل الا دور أغريبين .

– والآن ، ماذا تفعلين ؟

وأخطأت في طرح هذا السؤال . فقد انسحبت الحياة كلها من وجهها . ومع ذلك ، فقد اجابت على الفور :

– لقد انقطعت عن التمثيل . اني سأسافر . وهناك شخص ينفق عليّ .

وابتسمت :

– اوه ! لا تنظر إليّ بهذا الاشفاق . فليست القضية فاجعة . لقد قلت لك مراراً انه لا مانع لدي من ان ينفق عليّ . ثم انه شخص مسن . فهو غير مزعج .

– أهو الكليزي ؟

قالت في ضيق : – ولكن ما عسى ذلك ان يهمك ؟ إننا لن نتحدث عن هذا الشخص . فهو لا اهمية له على الاطلاق ، لا بالنسبة لك ولا بالنسبة لي ، هل تريد فنجان شاي ؟

ودخلت غرفة التواليت . وسمعتها تروح وتجيء ، فتحرك أوراقي ، وتتحدث مع نفسها بلهجة ثائرة لا يُفهم منها شيء . وكان على طاولتها الليلية ، بالقرب من سريرها ، كما هي العادة دائماً ، جزء من « تاريخ فرنسا » لميشليه . وأرى الآن انها قد علقت فوق السرير ، صورة واحدة ، هي نسخة من وجه اميلي برونتي ، مرسومة بريشة أخيها .

وعادت إليّ فقالت لي فجأة :

— والآن ، يجب ان تحدثني عنك .

ثم اختفت من جديد في غرفة التواليت . وبالرغم من رداءة ذاكرتي ، فإني اذكر هذا : كانت تطرح عليّ بعض هذه الأسئلة المباشرة التي كانت تزعجني جداً ، لأني كنت أحس فيها ، في الوقت نفسه ، اهتماماً صادقاً ورغبة في انهاء الأمر بأقصى سرعة . ومهما يكن ، فقد كانت ، بعد هذا السؤال ، تريد مني شيئاً دون ما شك . والآن ، ليست هذه إلا مقدمات : التخلص مما قد يضايق ، والانتهاء من القضايا الثانوية . « والآن ، يجب ان تحدثني عنك » . انها عما قليل ستحدثني عن نفسها . وزالت عني ، بالتوّ ، اية رغبة في ان أروي لها شيئاً . ما جدوى ذلك ؟ « الغثيان » ، الخوف ، الكينونة ... الأفضل ان أبقي ذلك كله لي .

وصاحت عبر الباب :

— هيا ، عجّل في الكلام .

وعادت تحمل ابريق شاي .

— ماذا تفعل ؟ هل انت ساكن في باريس ؟

— انني ساكن في بوفيل .

— في بوفيل ؟ ولماذا ؟ انك لم تتزوج ، على ما أرجو ؟

قلت منتفضاً : — أتزوج ؟

انه يلذني ان تكون آني قد فكرت بذلك . وقلت لها :

— هذا محال . هذا يشبه التخيلات الطوباوية التي كنت تأخذينها عليّ في السابق . تذكرين حين كنت أتصوّرك أرملة وأماً لولدين . وجميع تلك القصص التي كنت أرويها لك عما سوف نصبحه . لقد كنت تحقرين ذلك .

فأجابت من غير ان تضطرب :

— وانت كنت تلتذ بذلك . كنت تتحدث عنه لتظهر قوياً . والحق انك تتعاظم هكذا في الحديث ، ولكنك أجبن من ان تتزوج يوماً . لقد احتججت

طوال عام، في غيظ شديد، رافضاً أن أذهب لمشاهدة «يفسح امبراطورية». ثم حدث أن مرضت يوماً، فذهبت وحدك لتشاهد تمثيلها في دار صغيرة من دور الخيالة.

قلت في رصانة :

— إني مدين لك، بوفيل، لأني أضع كتاباً عن السيد دورولبون.

فنظرت إليّ آني باهتمام :

— السيد دورولبون؟ كان يعيش في القرن الثامن عشر؟

— نعم.

— ها! ها!

إذا طرحت عليّ سؤالاً آخر، فإني سأروي لها كل شيء. ولكنها لم تسألني شيئاً بعد. وكانت تحكو، من الظاهر، بأنها تعرف عني ما هو حسبها. إن آني، تحسن الاصغاء جيداً، ولكن حين تريد فقط. ونظرت إليها: لقد أسبلت جفنيها، إنها تفكر بما ستقوله لي، وبالطريقة التي تبدأ بها. أينبغي لي أن أسألها بدوري؟ لا أحسب أنها حريصة على ذلك. ستتكلم حين ترى ذلك مناسباً.

وخفق قلبي خفقاً شديداً حين قالت :

— أما أنا، فقد تغيّرت.

تلك هي البداءة. ولكنها صمتت الآن. وجعلت تصب الشاي في فناجين من البورسلين الأبيض. وانتظرت أن أتكلم: يجب أن أقول شيئاً. لا أي شيء، وإنما ما تنتظره. إني أتعذب. أهي قد تغيرت حقاً؟ لقد سمنت، والتعب يبدو عليها. ولكن ليس هذا بالتأكيد ما تقصد إليه.

— أدري. لا أرى أنك تغيرت. لقد وجدت ضحكتك ثانية، وطريقتك في النهوض وفي وضع يديك على كتفيّ، وهوسك بأن تحدثي نفسك. إنك ما زلت تقرئين «تاريخ» ميشليه، ثم ركام آخر من الأشياء...

ذلك الاهتمام العميق الذي تكنه لجوهري الخالد، ولامبالاتها الكلية بجميع ما يمكن أن يحدث لي في الحياة — ثم هذا التصنع الغريب، المتحذلق

والفنان في وقت واحد ــ ثم تلك الطريقة بحذف جميع الصيغ الآلية للأدب والصداقة ، جميع ما يسهل علاقات البشر فيما بينهم ، وإجبار محدثيها على القيام باختراع أبدي".

رفعت كتفيها وقالت بجفاء :

ــ بلى ، قد تغيرت ، لقد تغيرت كلياً . فأنا لست بعدُ الشخص نفسه . وكنت أظن أنك ستلاحظ ذلك من النظرة الأولى . وها أنت ذا تحدثني عن «تاريخ» ميشليه .

وأقبلت تتربع أمامي :

ــ سنرى إذا كان هذا الرجل قوياً إلى الحدّ الذي يزعم . ابحث : في أيّ شيء قد تغيّرت ؟

فترددت ، وطرقت بقدميها الأرض ، ما تزال باسمة ، ولكنها منزعجة بوضوح .

ــ كان شيء ما في الماضي يعذبك . أو أنك كنت تزعم ذلك ، على الأقل . والآن انتهى هذا ، اختفى . ولا بد أنك قد لاحظت ذلك . أتراك لا تحسّ بعد بالرضى ؟

لم أجرؤ أن أجيبها بالنفي : فأنا ، على عادتي في الماضي ، جالسٌ بأطراف فخذيّ على كرسيّ ، مهتمّ بتجنب الفخاخ ، وبتفادي أثوار من الغضب لا تُشرح .

وكانت قد عادت للجلوس ، فقالت وهي تهزّ رأسها باقتناع :

ــ إذا كنت لا تفهم ، فهذا يعني أنك قد نسيت كثيراً من الأشياء . أكثر مما كنت أظن . أتراك لا تذكر بعد مساوئك الماضية ؟ كنت تأتي ، وكنت تتحدث ، وكنت تذهب : كل ذلك في غير أوانه . تصوّر أن شيئاً ما لم يتغير : تدخل فتجد أقنعة وشالات على الجدار ، وتجدني جالسة على السرير ، وتسمعني أقول لك (وزمّت رأسها إلى خلف ، وحدّدت منخريها وتكلمت بصوت مسرحي ، كما لو أنها تودّ أن تسخر من نفسها) : «ولكن ماذا تنتظر ؟

اجلس ! ، وطبعاً تحتمني القاعدة بعناية ان اقول لك - الا على الاريكة ، قرب النافذة .

— كنت تنصبين لي شراكاً .

— لم تكن شراكاً ... وطبعاً ، متعب انت لذا فاجلس عليها .

قلت وأنا ألتفت متأملاً الأريكة بفضول :

— وما الذي كان سيحدث لي ؟

كانت الاريكة ذات مظهر عادي ، يوحي بالدعة والراحة . وأجابت أليس بإيجاز :

— لا شيء الا الأذى .

ولم ألحّ : لقد احاطت أليس نفسها دائماً بأشياء محرّمة .

وقلت لها فجأة :

— أعتقد أني أحزر شيئاً ولكن ذلك سيكون خارقاً للطبيعي . دعيني أبحث : الواقع ان هذه الغرفة غريبة تماماً . ستعترفين لي بأني لاحظت ذلك على الفور . حسناً . اني أتمثلني داخلاً . مشاهداً في الواقع هذه الاقنعة على الجدران ، والشالات وذلك كله . كان القلق يتوقف دائماً عند بابك . فقد كانت غرفتك شيئاً غامضاً ... ولن تأتي لتفتحي لي الباب . بل كنت سأراك جاثمة في ركن ، وربما جالسة على الأرض ، فوق هذه السجادة الحمراء التي كنت تحملينها معك دائماً ، ناظرة الي بلا رحمة ، منتظرة ... وما أكاد أنطق بكلمة ، او آتي بحركة ، او أتنفس ، حتى تلحظي بتقطيب حاجبيك ، فأحسّني مذنباً حقاً ، من غير ان أعرف السبب . وسأراكم بعد ذلك الأخطاء والهفوات ، من دقيقة الى دقيقة ، وأغرق في خطيئتي —

— كم مرة حدث ذلك ؟

— مئة مرة .

— على الأقل ! فهل انت أبرع الآن وأرهف حساً ؟

— لا !

— أتحبُّ أن أمثلك دورها ، والآن ؟

— الآن ؟ ليس بعدُ من ...

فصاحت بصوت مسرحي :

— ها ! ها ! انه لا يكاد يجرؤ على تصديق ذلك !

واستطردت على مهل :

— حسناً ! بوسعك ان تصدّقني . ليس ثمة من عدو بعد .

— ليس ثمة خطط كاملة بعد ؟

— أجل .

وأحست بالضجر ، فقلت ملحاً :

— انك في آخر الأمر ... لقد انتهيت منه ... المآسي ، هذه المآسي الموفقة التي كانت للاقنعة والشالات وقطع الأثاث ولي انا نفسي دورٌ صغير فيها — وكان لك انت دور كبير ؟

فابتسمت :

— بالتأكيد ! لقد أسندت إليه احياناً ادواراً اهمّ من دوري ؛ ولكنه لم يلاحظ ذلك . أجل ، انتهى هذا . هل انت متضايق ؟

— نعم ! اني متضايق ! كنت أحسب ان ذلك كان جزءاً من نفسك ، وأنه لا ينتزع منك ، وان ذلك سيكون شبيهاً بانتزاع قلبك .

فقالت بلهجة من لا يأسف على شيء :

— كنت احسب ذلك انا ايضاً .

وأضافت بشيء من السخرية ترك في نفسي أثراً مزعجاً :

— ولكنك ترى ان بوسعي أن أعيش بلا هذا .

وشبكت أصابعها عاقدة اياها حول ركبتيها بين يديها ، ونظرت في الفضاء ، وبسمةٌ غامضة تعيد الشباب الى وجهها كله . كانت تشبه فتاة صغيرة خبيثة ، غامضة وراضية .

— أجل ، إني مسرورة لأنك بقيت كما أنت . فلو تقلبت كالآخرين أو أصابوا رمحك أو ركونك على حافة طريق أخرى ، لفقدت كل شيء يربطني ، إني لا أستغني عنك . فأنا أتغير ، أما أنت ، فالمفترض عليه أن تظل غير قابل للتغير ، وأنا أقيس تغيراتي بالنسبة إليك .

وأحسستني منزعجاً بعض الشيء ، مع ذلك ، فقلت بحيوية :

— أظن أن هذا غير صحيح ، فأنا على العكس قد تغيرت في هذه الأيام ، وفي الحقيقة

فقالت باحتقار ساخر :

— أوه ! تغيرات فكرية ! أما أنا ، فقد تغيرت حتى يئس مني حتى يئس طبيبها . ما الذي نراه في صوتها ، لقد أزعج في الاضطراب ؟ على كل حال ! قلت فجأة بقلق ! فكففت عن البحث عن أي مخطية ، إن هذه المحنة ، هذه الفتاة السمينة ذات السحنة المهدّمة هي التي تؤثر فيّ وأحبها .

— إن لي نوعاً من الحنين ... إلى اللاشيء . فأنا أشعر بأن ليس له لحظات كاملة أحس بها حتى في حياتي ، حين أنسى ، أحسه طوال الوقت ، وحتى حين أنام . وأنا لا أستطيع أن أنساه . ولم تحدث قط أي شيء يشبه كشفاً ، فأنا لا أستطيع أن أقول : ابتداء من هذا اليوم ، ومن تلك الساعة ، تغيرت حياتي . أما الآن ، فأنا في وضع أحسب أن ذلك قد كُشف لي فيه فجأة ، ليلة أمس التي مبهورة ، منزعجة ، غير معتادة .

قالت هذه الكلمات بصوت هادئ ، ما زال فيه ظلٌّ من الماضي بأن تكون قد تغيرت إلى هذا الحد . وكانت تتأرجح على صدغيها برشاقة فائقة . ولم تحدث ، بعد ذلك ، أن تشبهت هذا الشبه كله « بآني » الفتية ، ساكنة مارسيليا . تلك المتعالية ، وغرقت ثانية في عالمها العجيب ، فيما وراء الضحك والمداعبة ، والتصنع . بل إني قد استعدت تلك الحمى المعمرة التي كانت تلتهمني ملياً في حضورها ، وذلك المذاق المرّ في جوف فمي . وحننت إلى يديها وتركت ركبتيها ، ولزمت الصمت . ثم تحدثت مدبّر ،

كما يحدث في الاوبرا ، حين يبقى المسرح فارغاً ، بينما تتصاعد منه ألحان من الجوقة . انها لتشرب شايها ، ثم تضع فنجانها وتظل متصلبة وهي تشد بيديها القفازين على طرف الصندوق .

وفجأة أضفت على وجهها تلك السحنة المجموزية الرائعة التي كنت احبها كثيراً ، والتي كانت تبهرني جداً وتوترني وجعاً . ان آني لا تغيّر تعبيرها فقط ، وهي تغيّر وجهها كما كان الممثلون القدامى يغيّرون أقنعتهم : فجأة . ويكون كل قناع من هذه الأقنعة مرصوداً لخلق الجو ، واعطاء اللهجة لما سوف يلي . انه يظهر ويبقى من غير ان يتغيّر ، فيما هي تتكلم ، ثم يسقط ، وينفصل عنها .

وحدّقت فيّ من غير ان تراني ، انها تهمّ بالكلام . وانتظر خطاباً مأساوياً ، مرتفعاً الى مستوى قناعها ، لحناً جنائزياً .

ولكنها لم تقل الا كلمة واحدة .

– اني أحيا ، رغم فقدان حواسّي .

لم تكن اللهجة متناسبة قطعاً مع تعبير الوجه . انها ليست مأساوية ، انها قبيحة : فهي تعبّر عن يأس جاف ، بلا دموع ، ولا شفقة . أجل ، كان فيها شيء قد جفّ دون ما سبيل الى معالجته .

وسقط القناع ، وابتسمت :

– انا لست حزينة على الاطلاق . وقد سبق ان دهشت لذلك مراراً ، ولكني كنت على خطأ : لماذا أكون حزينة ؟ كنت جديرة في الماضي بعواطف عنيفة جميلة . لقد كرهت امي بهوس ...

ثم أضافت بتحدٍّ :

– وانت بالذات ، لقد احببتك بهوس .

وانتظرت جواباً . لم أقل شيئاً .

– كل ذلك قد انتهى طبعاً .

– كيف يمكنك ان تعرفي ذلك ؟

– أعرف . أعرف انني لن ألتقي بعد شيئاً ولا أحداً يوحي لي عاطفة مهووسة . أنت تعلم انها عملية ، أن يأخذ المرء في محبة أحد . يجب ان تتوفر له الطاقة والأقوال السمح والفرص الأخرى ... بل ان هنالك لحظة ، في أول الأمر ، ينبغي له فيها ان يقفز من فوق هوة . فاذا فكر ، لم يفعل . وانا أعلم أنني لن أقفز بعد أبداً

– لماذا ؟

رمقتني بنظرة ساخرة ولم تجب . ثم قالت :

– اني الآن أعيش محاذية بمواطئ الهوة . وأحاول ان أجد مرة اخرى ذلك الغضب الرائع الذي علي على إلقاء نفسي من الطابق الثالث ، حين كنت في الثانية عشرة ، يوم صفعتني امي بالسوط .

وأضافت ، من غير صلة ظاهرة ، وبهجة بعيدة :

– وليس مستحيلاً كذلك ان أحدق طويلاً في الأشياء . اني أنظر اليها لأعرف هويتها ، ثم يجب أن أصرف عنها بصري بسرعة .

– ولكن لماذا ؟

– انها تثير اشمئزازي .

عجباً ، الا يشبه هذا ؟.. ان هنالك بالتأكيد وجوه شبه ، على أي حال . وقد سبق ان حدث مثل هذا مرة ، أي ان ، اذ فكرنا الفكر نفسه ، بصورة منفصلة ، بشأن بعض الموضوعات ، في اللحظة نفسها تقريباً . أود كثيراً لو ... ولكن التفكير بأنك أنت تقوم بالحب والدوران ... ان المرء لا يثق قط بأنه فهمها تماماً . فيجب ان أكون على يقين من ذلك .

– اسمعي ، أود ان أقول لك : انك الشخص الذي لم أعرف قط ما عساها تكون اللحظات الكاملة . فأنت لم تشرحيها لي قط .

– نعم . أعرف ، انك لم تكن تبذل أي جهد . كنت تنتصب واقفاً ، بالقرب مني .

– يا للأسف ! أعرف ما كلفني هذا .

– لقد استحققت تماماً كل ما حدث لك ، فقد كنت مملاً كثيراً ، كنت تزعجني ببنيتك الصلبة . كنت تبدو وكأنك تقول : انني ، انا ، طبيعي ، وكنت تجهد في تقمّص الصحة ، كنت تقطر صحة معنوية .

– غير اني طلبت منك اكثر من مئة مرة ان تشرحي لي ما هو...

فقالت غاضبة :

– صحيح ، ولكن بأية لهجة ! كنت تتنازل للاستفهام ، هذه هي الحقيقة . كنت تطلب هذا بودّ شرود ، كالسيدات العجائز اللواتي كنّ يسألنني بمَ كنت ألعب ، حين كنت صغيرة .

وأضافت بلهجة حالمة :

– وانا أتساءل في الحقيقة عما اذا لم تكن انت من كرهتُ اكثر الكره .

وبذلت جهداً ضد نفسها ، ثم استدركت وابتسمت ، ما زال خدّاها ملتهبين . انها جميلة جداً .

– انني اريد ان اشرح لك ذلك . لقد شعرت الآن بما فيه الكفاية لأتحدث بلا غضب الى العجائز الطيبات ، مثلك ، عن ألعاب طفولتي . هيّا . تكلم . ما الذي تريد ان تعرف ؟

– ما كانت اللحظات الكاملة .

– لقد حدثتك طويلاً عن الأوضاع ذات الامتياز .

– لا اعتقد ذلك .

قالت بتأكيد : – بل . حدث ذلك في « اكس » ، في تلك الساحة التي لا اذكر بعدُ اسمها . كنا في حديقة مقهى ، تحت شمس ساطعة ، تحت مظلات برتقالية . الا تذكر : كنا نشرب عصير الليمون ، وقد وجدتُ ذباباً ميتاً في السكر المسحوق .

– آه ، نعم ، ربما ...

– لقد حدثتك عن هذا في ذلك المقهى . حدثتك عنه بصدد الطبعة الكبيرة « تاريخ » ميشليه ، تلك التي كنت أملكها وانا صغيرة . لقد كانت أكبر جداً

من هذه الطبعة ، وكانت لورقها لون كاب ، كلون قلب الفطر ، وكانت لها رائحة الفطر أيضاً . وبعد موت أبي ، وضع عمي جوزيف يده عليها وأخذ جميع المجلدات . وفي ذلك اليوم ، حزنت حزناً كبيراً ، فضربتني أمي بالسوط وكان ان فررت من النافذة .

— نعم ، نعم ... لا بدّ انك حدثتني عن « تاريخ فرنسا » هذا ... ألم تكوني تقرأينه في علية لمحوت ؟ اني اتذكر كالحلم . وارى انك كنت ظالمة منذ لحظات حين كنت تتهمينني بأني نسيت كل شيء .

— اسكت . لقد كنت أحلى ، كما تذكرت ذلك جيداً . هذه الكتب الضخمة ان العلية . وكانت الصور فيها قليلة جداً ، ثلاث صور أو اربع في كل جزء . ولكن كلاً منها كان يحتل وحده صفحة بكاملها ، صفحة كان قفاها أبيض . وكان هذا يخلف في نفسي أثراً كبيراً ، لا سيما وان النص كان قد وُضع ، في الأوراق الأخرى ، على عمودين كسباً للمجال . وكنت أحب هذه الصور حباً فائقاً ، وكنت أعرفها كلها عن ظهر قلب . وحين كنت اعيد قراءة كتاب ليشليه ، كنت أنتظرها خمسين صفحة مسبقاً ، وكان يبدو لي معجزة دائماً ان اعثر عليها من جديد . ثم انها كانت تنطوي على سرّ دقيق : لم يكن المشهد الذي تمثله يتعلق قط بنص الصفحات المجاورة ، وانما كان ينبغي البحث عن الحادث على بُعد ثلاثين صفحة .

— أبتهل اليك ، حدثيني عن اللحظات الكاملة .

— اني احدثك عن الأوضاع ذات الامتياز . كانت هي تلك الماثلة على الصور ، وانا التي كنت اسميها « ذات الامتياز » ، اذ كنت اقول لنفسي انها لابد ان تكون ذات اهمية كبيرة حتى وافقوا على ان يعطوها موضوع هذه الصور النادرة . لقد اختاروها بين جميع الصور ، ومع ذلك فقد كان ثمة كثير من القصص تحمل قيمة أكبر ، واخرى تحمل أهمية تاريخية اكبر . فمثلاً كان ثمة ثلاث صور فقط ، تغطي القرن السادس عشر كله : احداها تمثل موت هنري الثاني ، والاخرى مقتل الدوق دوغيز ، والثالثة دخول هنري الرابع

الى باريس . اذ ذاك تصوّرت انه كان لهذه الأحداث طبيعة خاصة . والحق ان الصور كانت تداعبني في هذه الفكرة : فقد كان الرسم فيها فجّاً ، ولم تكن الاذرعة والسيقان معلقة تعليقاً محكماً بالجذوع . ولكن الصور كانت ملأى بالعظمة . ففي صورة مقتل الدوق دوغيز مثلاً ، ترى المشاهدين يعبّرون عن ذهولهم وغيظهم بمدّ جميع الأيدي الى الامام ، ويحرف الرؤوس جانباً ، ان هذا جميل جداً ، وكأنه كورس . ولا تظنّ ان التفاصيل الفكاهية او القذلكية منسية . فانا ترى الصفحات تسقط على الأرض ، وكلاباً صغيرة تهرب ، ومهرّجين جالسين على درجات العرش . ولكن جميع هذه التفاصيل معالجة بروح من العظمة والارتباك تجعلها منسجمة انسجاماً كاملاً مع باقي الصورة . ولا أحسب اني التقيت لوحات تتمثل فيها هذه الوحدة الدقيقة . اجل . ان هذا هو مصدرها .

— الاوضاع ذات الامتياز ؟

— الفكرة التي كنت أكوّنها عنها . كانت اوضاعاً ذات صفة نادرة وثمينة ، ذات اسلوب ، اذا صح التعبير . فأن يكون المرء ملكاً ، مثلاً ، حين كنت في الثامنة من عمري ، كان ذلك يبدو لي وضعاً ذا امتياز . او ان تموت . انت تضحك ، ولكن كان ثمة كثير من الاشخاص الذين رُسموا ساعة موتهم ، وهناك كثيرون نطقوا بأقوال عظيمة في تلك اللحظة ، اقوال كنت انا اصدّقها بطيبة خاطر ... أقصد اني كنت أفكر ان المرء حين يدخل دور الاحتضار يُحمل فوق نفسه . والحق انه يكفي المرء ان يكون في غرفة ميت : فما دام الموت وضعاً ذا امتياز ، فان شيئاً ما كان ينبثق منه ويتصل بجميع الأشخاص الحاضرين . نوعٌ من العظمة . حين مات ابي ، أدخلوني الى غرفته لأشاهده للمرة الأخيرة . وكنت وانا اصعد السلّم احسّ بشقاء كبير ، ولكني كنت كذلك كأني ثملة بلون من الفرح الدينيّ ، كنت ادخل أخيراً وضعاً ذا امتياز . وقد استندت الى الجدار ، وحاولت ان اقوم بالحركات التي كانت تناسب المقام ، ولكن كانت ثمة عمتي وأمي ، راكعتين على حافة السرير ، تُفسدان كل شيء

بمكانهما .

قالت هذه الكلمات الأخيرة في لين ، كما لو ان ذكراها ما زالت ملتهبة . وكفّت ، ونظرها ثابت ، وجنتاها مرتعشتان ؛ إنها تنتظر الفرصة لتعيش المشهد مرة أخرى .

— وفيما بعد ، وسّعت نطاق هذا كله : فأضفت اليها اولاً وضعاً جديداً ، هو الحب (أقصد عمل صنع الحب) ؛ عجباً ، انك لم تفهم قط لماذا كنت أرفض بعض مطالبك ، فهذه فرصة تمكنك من الفهم : بالنسبة لي ، كان ثمة شيء يجب إنقاذه . ثم قلت لنفسي انه لا بد ان يكون هنالك كثير من الأوضاع ذات الامتياز لا أستطيع ان أحصيها ، وانتهى بي الأمر الى إقرار عدد لا يحصى منها .

— نعم ، ولكن ماذا كانت حقاً ؟

فقالت بدهشة : — عجباً ، لقد قلتها لك ، وقد انقضى ربع ساعة وأنا أشرحها .

— أقصد هل كان يجب خصوصاً ان يكون الناس مهووسين جداً ، محمولين على جناح الكراهية او الحب ، مثلاً ؛ ام انه كان يجب ان يكون المظهر الخارجي للحدث كبيراً ، أعني : ما يمكن ان يُرى منه ...

فأجابت في استياء :

— الأمران ... وهذا يتوقف .

— واللحظات الكاملة ، ما شأنها هنا ؟

— إنها تأتي بعد ذلك . إن هناك اولاً علامات مبشّرة . ثم يدخل الوضع ذو الامتياز دخولاً بطيئاً ، فخماً ، في حياة الاشخاص . وإذ ذاك يُطرح سؤال معرفة ما اذا كان المراد ان يُصنع من الوضع لحظة كاملة .

قلت : — نعم ، لقد فهمت . ففي كل وضع من الأوضاع ذات الامتياز ، بعض أعمال يجب ان تُنفذ ، ومواقف يجب ان تتخذ ، وكلمات يجب ان تُقال .

— وهنالك مواقف أخرى وكلمات أخرى ممنوعة . أهذا هو التفسير ؟

— اذا شئت .

— إن الوضع بالإجمال ، شيء مادّي ، وهذا يتطلب المعالجة :

قالت : — هو كذلك . ينبغي للمرء أولاً أن يخرق في شيء ما استثنائي ، وأن يشعر أنه يتدخل فيه التنظيم . فإذا تحققت جميع هذه الشروط ، فإن اللحظة تكون كاملة .

— كان ذلك بالإجمال نوعاً من الأثر الفني :

فقالت في انزعاج :

— لقد سبق لك أن قلت هذا . كلا : بل كان ... واجباً . كان ينبغي تحويل الأوضاع ذات الامتياز إلى لحظات كاملة . وكانت هذه قضية أخلاقية . أجل ، تستطيع أن تضحك : أخلاقية .

ولم أضحك على الإطلاق ، وقلت لها بتلقائية :

— اسمعي ، سأعترف أنا أيضاً بأخطائي . إنني لم أفهمك قط فهماً كاملاً ، ولم أحاول قط بإخلاص أن أساعدك . ولو كنت قد عرفت ...

فقالت متهكمة :

— شكراً ، شكراً . آمل ألا تنتظر عرفاناً مني لقاء هذه الحسرات المتأخرة . والحق أني غير عاتبة عليك ، فأنا لم أشرح لك شيئاً بوضوح ، كنت معقدة ، ولم أكن أستطيع أن أتحدث في ذلك أحداً ، حتى ولا أنت — ولا سيما أنت . كان ثمة دائماً شيء ما مزيّف في تلك اللحظات . وهكذا كنت كأني تائهة . غير أنه كان لديّ إحساس بأني أفعل ما كنت أستطيعه .

— ولكن ما الذي كان ينبغي عمله ؟ أية أفعال ؟

— يا لحمقك ! لا يمكن إعطاء مثل ، فهذا يتوقف .

— ولكن اروي لي ما كنت تحاولين أن تفعليه .

— لا ، لست حريصة على التحدث في ذلك . ولكن إذا شئت ، رويت لك قصة أثرت عليّ كثيراً حين كنت أذهب إلى المدرسة . كان هنالك ملك قد خسر معركة وسقط أسيراً . وكان هنالك ، في زاوية من معسكر المنتصر . ورأى ابنه وابنته يمرّان مقيّدين . لم يبك ولم يقل شيئاً . ثم رأى أحد خدمه يمرّ مقيداً هو

أيضاً . وإذ ذاك أحدّثني وأشدّ شعري : تستطيع أن تخترع أنت لنفسك أمثالاً . فأنت ترى : هناك حالات ينبغي للمرء ألا يبكي فيها — وإلا كان طفلاً . أما إذا ترك المرء حطبة تسقط على قدمه ، فهو يستطيع أن يفعل ما يشاء ، أن يئن ويشهق ويبكي ويقفز على القدم الأخرى . إن العمل الأحمق هو أن يكون المرء ثابت الجنان دائماً : فإنه يستنفد قواه من أجل لا شيء .

وابتسمت :

وأحياناً أخرى ، يجب أن يكون المرء أكثر من ثابت الجنان . أنت طبعاً لا تتذكر المرة الأولى التي قبّلتك فيها ؟

قلت بلهجة منتصرة :

— بل أذكرها جيداً ، كان ذلك في حدائق « كيو » على شاطىء التايمز .

— أما الذي لم تعرفه قط ، فهو أني كنت قد جلست على قرّاص : كان ثوبي قد تشمّر ، وكان فخذاي مغطيين بالقرّاص . إنك لم تكن تثيرني على الإطلاق ، ولم أكن أشتهي شفتيك شهوة خاصة . وتلك القبلة التي كنت سأمنحك إياها ، كانت ذات أهمية أكبر ، كانت التزاماً ، معاهدة . إنك لتدرك أن ذلك الألم كان وقحاً ، فإنه لم يكن مسموحاً لي أن أفكر بفخذيّ في لحظة كهذه . لم يكن كافياً أن أسحق ألمي : بل كان ينبغي ألا أتألم .

ونظرت إليّ بفخر ، ما تزال مندهشة مما فعلت :

— طوال أكثر من عشرين دقيقة ، بينما كنت تلحّ عليّ أن تنالها ، تلك القبلة التي كنت عازمة على أن أمنحك إياها ، وطوال الوقت الذي حملتك فيه على أن ترجوني — لأنه كان ينبغي أن أمنحك إياها وفق العرف — نجحت في أن أخدّر نفسي كلياً . ومع ذلك ، فالله يعلم أن لي جلداً حساساً : إني لم أحس بشيء ، إلى أن نهضنا .

هو ذا . هو ذا تماماً . ليس ثمة مغامرات — ليس ثمة لحظات كاملة ... لقد فقدنا الأوهام نفسها ، وسلكنا الدروب نفسها . وأنا أحزر الباقي — بل أستطيع أن أتكلم بدلاً منها وأقول أنا نفسي ما بقي لها أن تقوله :

— وبعد ، فقد أدركت ان هناك دائماً نساء يبكين ، او رجلاً أحمر الشعر ، او اي شيء آخر يُفسد تأثيراتك ؟

فقالت من غير حماس :

— نعم ، بالطبع .

— أليس الأمر كذلك ؟

— اوه ، إن حالات رجل احمر الشعر ، ربما كان بإمكاني ان اخضع لها مع الزمن . والحق اني كنت طيبة جداً أن اهتم بالطريقة التي كان الآخرون يمثلون بها أدوارهم ... لا ، بل ...

— بل انه ليس ثمة أوضاع ذات امتياز ؟

— هو ذلك . كنت أظن ان الحقد او الحب او الموت كانت تهبط علينا كألسنة النار يوم الجمعة المقدس . كنت اظن ان المرء يمكن ان يشع حقداً او موتاً . وأي خطأ كان هذا الظن ! اجل ، كنت افكر حقاً بأن « الحقد » كان شيئاً موجوداً ، وأنه كان يأتي ويحط على الناس ، ويرفعهم فوق أنفسهم . وبالطبع ، ليس ثمة إلاّ أنا ، إلاّ أنا مَن يحقد ، ومن يحب . وأنا ، أنا الشيء نفسه دائماً ، عجين يتمدد ويتمدد ... وهذا متشابه الى حد يجعل المرء يتساءل كيف خطر للناس ان يخترعوا اسماء ، ويقيموا تمييزات .

إنها تفكر مثلي . ويخيل إليّ انني لم أتركها قط . وقلت لها :

— إسمعي جيداً . انني منذ فترة افكر بشيء يروق لي اكثر جداً من دور النصب الذي أسندته إليّ بسخاء : هو اننا قد تغيّرنا معاً وبالطريقة نفسها . وانا أفضل هذا ، لو تعلمين ، على ان أراكِ تبتعدين اكثر فأكثر ، وان يُحكم عليّ بأن أسجل الى الأبد نقطة انطلاقك . إن كل مـا رويته لي ، انما جئت لأرويه لك بكلمات أخرى . هذا صحيح . إننا نلتقي عند الوصول . ولا أستطيع ان أعبّر لك عن سعادتي بذلك .

قالت بهدوء ، ولكن بلهجة معاندة :

— صحيح ؟ اني مع ذلك كنت أفضّل ألا نتغير ، كان ذلك أسهل . انني

لست مثلك ، وسيؤلمني بالأحرى ان أعرف أن شخصاً آخر قد فكر بما أفكر به . ثم إنك لا بد ان تكون مخطئاً .

فرويت لها مغامراتي ، وحدثتها عن الكينونة — وربما اكثر مما ينبغي . وقد أصغت باجتهاد ، فاتحة عينيها على سعتهما ، رافعة حاجبيها .

وحين انتهيت ، بدا عليها العزاء .

ــ حسناً ، ولكني أراك لا تفكر إطلاقاً كما أفكر . انك تشكو ان الاشياء لا تنتظم حولك على شكل باقة من الزهور ، من غير ان تقوم بأي عمل . أما أنا ، فلا أطلب اكثر من ذلك . كنت أريد ان أعمل . أنت تذكر حين كنا نلعب لعبة المغامر والمغامرة : كنت انت من تحدث له المغامرات ، وكنت أنا من يجعلها تحدث . وكنت أقول : « اني رجل عمل » أتذكر ؟ أما الآن ، فأقول ببساطة : ان المرء لا يستطيع ان يكون رجل عمل .

ينبغي ان أصدق أني لم أبدُ مقتنعاً ، إذ إنها انتعشت واستطردت بلهجة أقوى :

ــ ثم إن هناك كومة من الاشياء الأخرى لم أقلها لك ، لأنها ستكون أطول من ان استطيع شرحها لك . كان ينبغي مثلاً ان أتمكن من ان أقول لنفسي ، في اللحظة التي كنت اعمل فيها ، أن ما كنت أعمله ستكون له نتائج .. مشؤومة . اني لا استطيع ان اشرح لك جيداً ..

قلت بلهجة لا تخلو من حذلقة :

ــ ولكن ذلك غير مجدٍ على الاطلاق . ولقد فكرت بهذا ايضاً .

نظرت إليّ في حذر :

ــ اذا صدقتك ، لوجدت أنك قد فكرت بكل شيء على النحو الذي فكرت فيه : إنك تدهشني كثيراً .

اني لا استطيع ان أقنعها ، ولن أفعل إلا ان أغيظها . وصمت . واستولت عليّ الرغبة في ان آخذها بين ذراعي .

وفجأة ، نظرت إليّ نظرة قلقة :

— وإذن ، إذا كنت قد فكرت في هذا كله ، فماذا أستطيع أن أفعل ؟

فخفضت رأسي ، ووددت هي بتأفف :

— إني أعيش ، وقد علمت حواسي .

ماذا يعني أن أقول لها ؟ هل أعرف أسباباً تبرر الحياة ؟ إني لست مثلها يائساً ، لأني لم أكن أنتظر أشياء كثيرة . إنما أنا بالأحرى ... مندهش أمام هذه الحياة التي أعطيت لي ـ أعطيت من أجل « لا شيء » . واحتفظت برأسي منخفضاً ، إني لا أريد أن أرى وجه آن في هذه اللحظة .

وتابعت بصوت مكتئب :

— إني أسافر ، وأنا عائدة من السويد ، وقد توقفت ثمانية أيام في برلين ، هناك هذا الرجل الذي يقلق علي .

إن أخلعها من ذراعي ... ما جدوى ذلك ؟ إني لا أستطيع شيئاً من أجلها . إنها وحيدة مثلي .

وقالت لي بصوت أكثر مرحاً :

— لم تندم ؟

فرفعت عيني . إنها تنظر إلي بعطف .

— لا شيء ، كنت أفكر فقط بشيء ما .

— يا للشخصية العجيبة ! تكلم لو قاتلت ، ولكن إعتبر .

وحدثتها عن مقهى « راندفو دي شامبو » وعن لحن « راخ ـــ تايم » القديم الذي كنت أحبه في الفونوغراف ، وعن السعادة الغريبة التي تمنحني إياها .

— كنت أتساءل لما أنا لم يكن بالإمكان أن تجد من هذه الناحية شيئاً أو أن تبحث .

لم تجب ، وأحسب أنها لم تهتم كثيراً بما قلت لها . عدا أنها استطردت بعد لحظة ـــ ولا أدري إن كانت تتابع أفكارها أو أنا كنت هذا جواباً على ما قلته لها :

— إن اللوحات والتماثيل أشياء غير قابلة للاستعمال : إنها جميلة ، تماهي « ،

الموسيقى ...

— ولكن في المسرح ...

— ماذا في المسرح ؟ هل تريد أن تعدد الفنون الجميلة ؟

— كنت تقولين لي في الماضي انك كنت ترغبين أن تتعاطي المسرح لأن المرء لا بد أن يحقق ، على خشبة المسرح ، لحظات كاملة !

— أجل ، لقد حققتها ؛ ولكن من أجل الآخرين . كنت في الغبار ، وفي تيارات الهواء ، وتحت الأنوار الفجة ، وبين ألواح الكرتون . وعلى العموم ، كان « ثورندايك » شريكي في التمثيل . وأعتقد انك رأيته مرة في « كوفنت غاردن » . وكنت أخشى دائماً أن انفجر ضاحكة في وجهه .

— ولكن ألم يكن « دورك » يستغرقك قط ؟

— أحياناً ، ولكنه لم يكن يستغرقني بقوة . كان الشيء الجوهري ، بالنسبة لنا جميعاً ، الثقب الأسود ، قبالتنا تماماً ، الذي كان في جوفه أناس لا نراهم ، والطبع ، كنا نقدم لهؤلاء لحظة كاملة . ولكنك تعلم انهم لم يكونوا يعيشون داخلها ، وانما كانت تتدحرج أمامهم . ونحن ، الممثلين ، هل تعتقد أننا كنا نعيش داخلها ؟ إنها في نهاية المطاف لم تكن في أي مكان ، لا من هذه الجهة ولا من تلك بالنسبة لخشبة المسرح ، انها لم تكن موجودة ؛ ومع ذلك ، فقد كان الجميع يفكرون فيها .

ثم أضافت بصوت انخفض حتى كاد يكون سرياً :

— انك تفهم إذن يا صغيري ، لقد تخليت عن كل شيء .

— أما أنا ، فقد حاولت أن أكتب هذا الكتاب ...

فقاطعتني :

— إنني أعيش في الماضي . أتذكر كل ما حدث لي ، وأنظمه . ومن بعيد ، على هذا النحو ، ليس ثمة من ضير ، إن المرء يتسلى . إن حكايتنا كانت جميلة بما فيه الكفاية . فأنا أعطيها بعض ضربات من إبهامي ، فاذا هي سلسلة من اللحظات الكاملة ، واذ ذاك أغمض عيني وأحاول أن أتصور أنني لا أزال أعيش

في داخلها . إن عندي شخصيات أخرى أيضاً . يجب على المرء أن يحسن تركيز فكره . ألا تعرف ماذا قرأت ؟ « التمارين النفسية » تأليف لويولا . وقد عاد عليّ ذلك بفائدة كبيرة . إن هناك طريقة لوضع الديكور أولاً ، ثم لإظهار الشخصيات .

وأضافت بلهجة سحرية :

— وهكذا يتوصل المرء إلى أن « يرى » .

قلت : — الحق أن ذلك لن يرضيني على الإطلاق .

— أو تظن أن ذلك يرضيني أنا ؟

وظللنا لحظة صامتين . وكان الليل يهبط ، فكنت لا أتميز لطخة وجهها الممتقعة . وكان ثوبها الأسود يمتزج بالظل الذي يغمر الحجرة . وبصورة آلية ، تناولت فنجاني الذي كان ما يزال فيه بعض الشاي ، وحملته إلى شفتي . كان الشاي بارداً . وأخذتني الرغبة في التدخين ، ولكني لم أجرؤ . وأحسست شعوراً شاقاً بأنه لم يكن لدينا بعدُ ما نقوله . حتى الأمس فقط ، كان لدي أسئلة كثيرة أطرحها عليها : أين كانت ، وماذا فعلت ، ومن لقيت . ولكن ذلك لم يكن يهمني إلا بمقدار ما منحت آني نفسها من طيب خاطر . أما الآن ، فأنا بلا فضول : إن جميع تلك البلاد ، وجميع تلك المدن التي ألمّت بها ، وجميع أولئك الرجال الذين غازلوها ، وربما تكون قد أحبتهم ، كل ذلك لم يكن متصلاً بها ، وكل ذلك كان بالنسبة إليها بلا اكتراث : لمعة شمس صغيرة على سطح بحر مظلم بارد . إن آني تجاهي ، ونحن لم نلتق منذ أربعة أعوام ، وليس لدينا بعدُ ما نقوله .

وقالت آني فجأة :

— أما الآن ، فيجب أن تذهب . إنني أنتظر شخصاً .

— تنتظرين ؟...

— أجل ، أنتظر ألمانياً ، رساماً .

وأخذت تضحك . وقد رنّت ضحكتها رنيناً غريباً في القاعة المظلمة .

— انه شخص ليس مثلنا — ليس مثلنا بعد . انه يجهل ، يجهل ذاته .

ونهضت من مقعدي :

— متى اراك ثانية ؟

— لا أدري . انني مسافرة مساء الغد الى لندن .

— عن طريق « دييب » ؟

— نعم ، وأعتقد انني بعد ذلك سأسافر الى مصر . وربما مررت بباريس في الشتاء القادم ، سوف اكتب لك .

قلت لها بعجل :

— انني غداً حر طوال النهار .

فأجابت بصوت خافت :

— نعم ، غير ان لدي الآن عملاً كثيراً ، لا استطيع ان اراك . سأكتب لك من مصر . وليس عليك الا ان تعطيني عنوانك .

— هو كذلك .

فكتبت عنواني ، في الظلام ، على طرف بطاقة . يجب ان ابلغ فندق بريطانيا أن يحوّلوا لي رسائلي حين أغادر بوبيل . انني أعرف ، في أعماقي ، انها لن تكتب . وربما رأيتها ثانية بعد عشرة أعوام ، وربما كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أراها فيها . وليس مبعث ارهاقي انني سأتركها فحسب ، بل لأنه من المحتم قطعاً ان أعود الى وحدتي .

ونهضت ، ونهضت الشابة ، فقبلتني قبلة خفيفة على الفم ، وقالت وهي تبتسم :

— هذا لكي أتذكر شفتيك . يجب أن اعيد الشباب الى ذكرياتي ، من أجل « تمارين المعنوية » .

فأخذتها من ذراعها وأدنيتها مني ، فلم تقاوم ، ولكنها اومأت برأسها سلباً .

— لا ، ان ذلك لا يغير احساسي بحد ذاته .... ثم انه ، بالنسبة لما يمكن ان يُصنع بالناس ، فإن اول شاب قادم جميل بعض الشيء ، يساويك .

— ولكن ما الذي ستفعلينه ؟

— لقد قلت لك : اني مسافرة الى انكلترا .

— لا ، أقصد...

— لا شيء .

ولم اترك ذراعيها ، فقلت لها بعذوبة :

— اذن ، يجب ان أتركك . بعد ان وجدتك ثانية

وتبيّنت الآن ملامح وجهها بوضوح . لقد أصبح فجأة ممتقعاً مشدوهاً . وجه امرأة عجوز ، قبيح تماماً ، وانا على يقين من انها لم تلحظه ، وجهها هذا ، فهو قائمٌ هنا ، بالغفلة عنها ، او ربما بالرغم عنها

قالت بهدوء :

— لا ، لا . انك لم تجدني ثانية .

وخلصت ذراعيها ، وفتحت الباب ، وكان الممر يقطر ضوءاً .

وأخذت الآن تضحك .

يا لمسكين ! انه لا حظّ له . فالمرة الأولى التي يتاح فيها دوره جيداً . لا يلقى الرضى . هنا . اذهب .

وسمعت الباب يُغلق ورائي .

الأحد

راجعت هذا الصباح ، قليلاً ، المكالمة الهاتفية : انها افترضت انني لم تكتب علي ، فهي مسافرة في قطار عجيب عند الساعة الخامسة والثامنة والثلاثين . ولكن ربما كان صاحبها سيأخذها بالسيارة ويذهب طوال الصباح في شوارع مونتيليمار ، وبعد الظهر ، على أرصفة المحطات . انه يضع خطي ، بضعة جدران كانت تفصلني عنها . وفي الساعة الخامسة والثامنة والثلاثين ، سيصبح حديثنا الأمس ذكرى ، والمرأة الموصرة التي لامست شفتاها في ستلحق ، في المخزن ، فتاة مكانس ، وتلك ، الصغيرة الهزيلة . ولكن لم يحدث شيء ، بعد ، ما دامت لا تزال هنا ، وما دام ممكناً بعد رؤيتها والتقاؤها واصطحابها حتى الى الأحد ، التي

لم أكن أحسّني بعدُ وحيداً .

وأردت أن أصرف فكري عن آني ، لأنني كنت ، لفرط تصوّر جسمها ووجهها ، قد سقطت في ثورة عصبية شديدة : كانت يداي ترتجفان ، وكانت الرعشات الباردة تمتلكني . وأخذت أقلّب صفحات الكتب ، عند بسطات الباعة ، ولاسيما المنشورات الخلاعية ، لأن ذلك كان ، بالرغم من كل شيء ، يشغل الفكر .

وحين دقّت الساعة الخامسة في محطة اورسيلي ، كنت أنظر الى رسوم كتاب عنوانه «الطبيب بالسوط» ، وكانت رسوماً قليلة التنوّع : فقد كان في معظمها صورة رجل طويل متجهم يحمل سوطاً فوق أرداف ضخمة عارية . وما إن أدركت أن الساعة قد أصبحت الخامسة ، حتى ألقيت بالكتاب بين الكتب الأخرى ، ووثبت الى سيارة تكسي حملتني الى محطة سان لازار .

وتنزّهت زهاء عشرين دقيقة على رصيف هذه المحطة ، ثم رأيتها . كانت ترتدي معطفاً كبيراً من الفرو كان يضفي عليها هيئة سيدة ، وقلالة صغيرة . وكان الرجل يرتدي معطفاً من شعر الجمل . وكان برونزي اللون : كان ما يزال ، طويلاً جداً ، وجميلاً جداً : انه اجنبي ، بالتأكيد ، ولكنه ليس انكليزياً ؛ ربما كان مصرياً . وقد صعدا الى القطار من غير ان يرياني . ولم يكونا يتبادلان الكلام . ثم هبط الرجل ثانية ، فابتاع صحفاً . وحدقت آني زجاج مقصورتها ، فرأتني . ونظرت اليّ طويلاً ، بلا غضب ، بعينين لا تعبير فيهما . ثم صعد الرجل ثانياً الى المقصورة ، وانطلق القطار . وفي تلك اللحظة ، رأيت بوضوح مطعم بيكاديلي الذي كنا نتناول فيه الغداء في السابق ، ثم انطفأ كل شيء . ومشيت ، وحين أحسستني متعباً ، دخلت مقهى ، واستسلمت للنوم . وأتى الخادم يوقظني ، وأنا اكتب هذا والنعاس ما زال يراودني .

سأعود غداً الى بوفيل في قطار الظهر . ويكفيني ان أبقى فيها يومين : لكي أحزم امتعتي وأنهي معاملتي مع المصرف . وأعتقد انهم سيطلبون مني ، في فندق برنتانيا ، ان أدفع لهم اجرة خمسة عشر يوماً اضافياً ، لأنني لم اخبرهم

سيئاً. ويجب أيضاً ان اردّ الى دار الكتب ما استعرت من كتب؛ وعلى اي حال سأعود الى باريس قبل نهاية الاسبوع.

وما الذي سأكتبه بالحاضل؟ تلك هي أيضاً مدينة: هذه يشقّها نهر، وتلك تحدّها بحر، ولولا ذلك لكانتا متشابهتين. ان الناس يختارون أرضاً مجرودة، جدباء، فيدحرجون فيها احجاراً كبيرة مجوّفة. وفي هذه الاحجار، روائح كثيرة، روائح أثقل من الهواء. وهي تُلقى احياناً من النافذة في الشوارع، فتظلّ فيها حتى تحرّكها الرياح. وفي الجو الصافي، تدخل الضجّات من احد طرفَي المدينة، وتخرج من الطرف الآخر، بعد ان تعبر جميع الجدران، واحياناً اخرى، تدور وتدور بين هذه الأحجار التي تسلقها الشمس ويخنقها الجليد.

اني أخاف المدن. ولكن يجب على المرء الا يخرج منها. فاذا غامر بالابتعاد اكثر مما ينبغي، ألفى دائرة «النبات». لقد زحف «النبات» مسافة كيلو مترات نحو المدن. انه ينتظر. حتى اذا أصبحت المدينة ميتة، اكتسحها «النبات» فتسلّق الاحجار، واحتواها، ونبش فيها، وفجّرها بكلاليبه الطويلة السوداء؛ انه سيكتسح الثقوب ويترك في كل مكان أرجلاً متدلية. يجب على المرء ان يبقى في المدن ما دامت حية، ويجب عليه الا يبقى وحده تحت هذا الشعر الطويل القائم عند أبوابها: يجب ان يتركه يتموّج ويصطفق بلا شهود. اذا عرف المرء في المدن ان ينظّم نفسه ويختار الساعات التي تجترّ فيها الحيوانات او تنام في ثقوبها، خلف اكوام النفايات العضوية، فانه لن يلتقي ابداً الا المعادن، اقلّ الموجودات ارهاباً.

اني عائد الى بوفيل. «فالنبات» لا يحاصر بوفيل الا من ثلاث جهات وفي الجهة الرابعة ثقب كبير ملؤه ماء أسود يتحرّك وحده. الريح تصفر بين البيوت. والروائح تبقى مدة أقصر من اي مكان آخر: فان الريح تطردها فتجري على سطح الماء الأسود كضباب صغير مستطار اللبّ. المطر يهطل. وقد تُركت نباتات تنمو بين السياجات، نباتات مخصيّة، مستأنسة، يبلغ من سمنها انها أصبحت غير مؤذية. ان لها اوراقاً هائلة مبيضّة تتدلى كأنها الآذان. ويخيّل

لن يقسها أنها غضاريف . اذ كل شيء مهيب وأبيض في بوفيل ، بسبب هذا الثلج الكثير الذي يهبط من السماء . اني عائد الى بوفيل . اية علاقة !

أسأرقد مطمئناً ؟ انه منتصف الليل . انقضت ست ساعات على مغادرتي باريس . ولقد عبرت السفينة البحر . أنا نائم في مقصورة ، اما الشاب الرولري الجميل ، فجالس على ظهر السفينة يدخّن سكاير .

الثلاثاء في بوفيل

أهذه هي الحرية ؟ ان الحدائق تنحدر تحتي برخاوة نحو المدينة ، وفي كل حديقة يرتفع بيت . اني ارى البحر ثقيلاً ، جامداً ، وارى بوفيل . ان الطقس جميل .

انا حرّ : انه لا يبقى لي اي سبب لكي اعيش ، فجميع الأسباب التي حاولتها قد تراخت ، ولا أستطيع بعدُ ان اتصوّر اسباباً اخرى . انني ما ازال شاباً ، وما زلت أملك قوة كافية لأبدأ من جديد . ولكن ما الذي يجب ان أبدأه من جديد ؟ كم عوّلت على آني ، في أحرج لحظات ارهابي وغثياني ، لكي تنقذني ، ان هذا ما ادركه الآن فحسب . لقد مات ماضيّ ، ومات السيد دورولبون ، ولم تعدْ آني الا لتنتزع مني كل امل . اني وحيد في هذا الشارع الأبيض الذي تحف به الحدائق . وحيد وحرّ . ولكن هذه الحرية تشبه الموت قليلاً .

ان حياتي تأخذ اليوم نهايتها . سأكون غداً قد تركت هذه المدينة التي تمتدّ تحت قدميّ ، والتي عشت فيها هذه الفترة الطويلة . انها لن تكون بعدُ الا اسماً ، مكتلاً ، بورجوازياً ، فرنسياً مئة بالمئة ، اسماً في ذاكرتي ، اقلّ غنى من اسمي فلورنس او بغداد . سيأتي عهدٌ اتساءل فيه : « حين كنت في بوفيل ، ما الذي كان يمكنني ان أفعل ، طوال النهار ؟ » ومن هذه الشمس ، من هذا الأصيل ، لن يبقى شيء ، حتى ولا ذكرى .

ان حياتي كلها خلفي . أراها برمّتها ، أرى شكلها والحركات البطيئة التي قادتني الى هنا . هنالك اشياء قليلة تُقال عنها : انه شوط خاسر . هذا كل ما في الأمر . لقد انقضت اليوم ثلاثة اعوام على دخولي الى بوفيل ، بأبهة .

كنت قد خسرت الجولة الأولى ، واردت ان ألعب الثانية ، فخسرت ايضاً ؛ وهكذا خسرت الشوط . وبهذا تعلمت ان المرء يخسر دائماً . ليس هنالك الا الاطفال من يحسبون انهم يربحون . اما الآن ، سأفعل كما فعلت آني : سأعيش وقد علقت حواسّي . أعيش وانام ، انام وآكل . أوجد على مهل ، وبطوبة كهذه الاشجار ، كحركة ماء ، كمقعد الترام الأحمر .

ان « الغثيان » يدع لي راحة قصيرة . ولكني اعلم انه سيعود : فتلك هي حالتي الطبيعية . غير ان جسمي اليوم اشد ارهاقاً من ان يتحمله . ان للمرضى ايضاً ساعات ضعف سعيدة تنزع منهم ، لبضع ساعات ، احساسهم الألم . كل ما في الأمر اني سئم . وبين الفينة والفينة اتثاءب بقوة حتى ان الدموع تتدحرج على خديّ . انه سأم عميق ، عميق ، قلب الكينونة العميق ، المادة نفسها التي صُنعتُ منها . اني لا اهمل نفسي ، بل على العكس : فهذا الصباح اخذت حماماً وحلقت ذقني . غير اني حين افكر ثانية بجميع هذه الأفعال الاعتنائية ، لا افهم كيف أمكنني ان افعلها : انها غير مجدية على الاطلاق . لا شك بأن العادات هي التي فعلتها من اجلي . ان العادات لم تمت ، فهي ماضيةٌ في الانهماك ، وفي نسج خيوطها ، بخفية وعلى مهل ، وهي تغسلني وتمسحني وتلبسني ، على غرار ما تفعله المرضعات . أتكون هي التي قادتني ايضاً الى هذه الرابية ؟ اني لا اذكر بعدُ كيف اتيت . لا شك اني جئت من سلّم دوتري: هل ارتقيت حقاً درجاتها المئة والعشر ، واحدة واحدة ؟ لعل ما هو أصعب تصوّراً هو اني بعد لحظة سأهبطها ثانياً . غير اني اعرف اني سأجدني بعد هنيهة في اسفل « الرابية الخضراء » وسأستطيع ، واذا ارفع رأسي ، ان ارى نوافذ تلك البيوت القريبة تضاء في البعيد ، في البعيد ، فوق رأسي . وهذه اللحظة التي لا استطيع ان اخرج منها ، والتي تحبسني وتحدّني من كل جانب ، هذه اللحظة التي صُنعتُ منها ، لن تكون بعدُ الا حلماً ملتاثاً .

اني انظر تلألؤ بوفيل الرمادية ، تحت قدمي . فكأنها تحت الشمس اكوامٌ من محار القشور او من شظايا العظم او من الحصباء . كانت ثمة التماعات زجاج

او مبكراً ، صائغة بين هذه الطابات ، تُرسل بين الفينة والفينة تراماً خفيفة ، بعد ساعة ، ستصبح المعابر والخنادق والأكوام الدقيقة شوارع أسير فيها بين الجدران . وهؤلاء الرجال الصغار الذين أميزهم في شارع «بوليبيه» ، سأكون بعد ساعة واحداً منهم .

ما أشد ما أحسني بعيداً عنهم ، من على هذه الرابية . يخيل اليّ أنني أنتمي الى جنس آخر . انهم يخرجون من المكاتب ، بعد يوم العمل ، فينظرون الى البيوت والحدائق نظرة راضية ، ويفكرون أنها «مدينتهم» ، مدينة «برجوازية جميلة» . انهم غير خائفين ، وهم يحسّون انهم في بيوتهم . انهم لم يروا قط الا الماء المسالم الذي يسيل من الصنابير ، ولا النور الذي يشع من المصابيح حين يضغطون على المفتاح ، ولا الأشجار الهجينة القطا التي تُسند بالعكاكيز . انهم يرون الدليل ، مئة مرة في اليوم ، على أن كل شيء يتمّ بصورة آلية ، وأنّ العالم يطيع قوانين ثابتة لا تتغير . ان الأجسام المتروكة في الفراغ تسقط جميعاً بالسرعة نفسها ، والحديقة العامة تُغلق كل يوم في الساعة الرابعة شتاء والسادسة صيفاً ، وان الرصاص يذوب عند الدرجة ٣٣٥ ، وان آخر ترام يغادر اوتيل دوفيل في الساعة الثالثة والعشرين وخمس دقائق . انهم مطمئنون ، كئيبون بعض الشيء ، انهم يفكرون في «الغد» ، أي ببساطة في يوم جديد ، ان المدن لا تنعم إلا بنهار واحد يعود متشابهاً كل صباح ، ولا يفعلون الا ان يزخرفوا له الأجراس قليلاً أيام الأحد . الحمقى ! انه يعز عليّ ان افكر في انني سأرى ثانية سحنهم الكثيفة المطمئنة . انهم يسنّون القوانين ، ويكتبون روايات شعبية ، ويتزوجون ، ويرتكبون الحماقة الكبرى بانجاب الأولاد . على ان الطبيعة الكبيرة المبهمة انسلّت الى مدينتهم وتسرّبت الى كل مكان في بيوتهم ، مكاتبهم وفي أنفسهم . انها لا تتحرك ، انها تظل هادئة وهم ملء داخلها يتنفسونها ولا يرونها ، وهم يتصورون انها في الخارج ، على بعد عشرين فرسخاً من المدينة . اني انا اراها ... وأعرف ان خضوعها كسل ، وأعرف انه ليس لها قوانين : وما يحسبونه ثباتاً ... ليس لها الا عادات ويمكنها ان تغيرها غداً .

لنفرض ان شيئاً ما يحدث؟ لنفرض انها اخذت فجأة تخفق؟ انهم سيلاحظون آنذاك انها هناك ، وسيخيّل اليهم ان قلوبهم ستنفجر . واذن : فما الذي تجديهم سدودهم وأسوارهم ومراكزهم الكهربائية وأفرانهم العالية ومطارقهم ؟ ان هذا يمكن ان يحدث في اي وقت ، وربما على الفور : ان الدلائل قائمة . فمثلاً ، يرى ربّ أسرة يتنزه خرقة حمراء تُقبل عليه عبر الطريق ، كأنها مدفوعة بالريح . وحين تصبح الخرقة قريبة منه كل القرب ، سيرى انها قطعة من اللحم الفاسد الملوّث بالغبار ، تجرّ نفسها زاحفة ، واثبة ، قطعة لحم معذّبة تتدحرج في المجاري قاذفة دفقات الدم بصورة تشنجات . مثل آخر : أمّ تنظر الى خدّ ابنها وتسأله : « ما هذا الذي على خدك ؟ أهو دمّل ؟ » ثم ترى البشرة تتورّم قليلاً وتتشقق وتنفتح ، ومن جوف الشق ، تبرز عين ثالثة ، عين ضاحكة . او انهم سيشعرون بملامسات عذبة على اجسامهم تشبه الملامسات التي يتركها الخيزران في الأنهار على اجسام السابحين . وسيعرفون ان ملابسهم قد اصبحت اشياء حية . وثمة آخر سيجد ان هناك شيئاً ما يحكّه في فمه ، فيقترب من مرآة ، ويفتح فمه : فاذا بلسانه قد اصبح حشرة ذات ألف رجل تنبض بالحياة وتحكّ سقف حلقه . ويودّ ان يبصقها ، ولكن الحشرة ذات الألف رجل انما هي جزء منه ويبقى ان تُوجد لها أسماء جديدة : العين الحجرية ، الذراع الكبيرة ذات القرون الثلاثة ، الإصبع-العكاز ، العنكبوت-الفك . وذلك الذي سيكون نائماً في سريره المريح ، في غرفته العذبة الحارة ، سيستفيق عارياً على ارض مزرقّة ، في غابة من القضبان الضاجّة ، المنتصبة حمراء وبيضاء نحو السماء ، كأنها مداخن جوكستابورفيل ، مع بيضات ضخمة نابتة من الأرض ، مزغّبة منتفخة كالبصل . وستطير عصافير حول هذه القضبان فتنقرها بمناقيرها وتجعل دمها ينزف . وسوف يسيل المنيّ ممزوجاً بالدم ، حاراً ، بطيئاً مع الكريات . او ان شيئاً من ذلك كله لن يحدث ولن يقع اي تغيّر ذي اهمية ، ولكن الناس سيفاجأون اذ يفتحون شبابيكهم ذات صباح ، بنوع من الحسّ الفظيع يحط بثقله على الأشياء ، ويبدو كأنما هو ينتظر . لا شيء الا هذا : ولكن يكفي ان

يدوم ذلك بعض الوقت حتى تحدث حوادث انتحار بالآلاف ، أي نعم ، ليكن ذلك قليلاً حتى نرى ، فأنا لا أطلب أكثر من هــذا . التناسي الذي أنشده آخرين غارقين جميعاً في الوحدة ، أناس وحيدون وحدة كاملة يعبرون الشوارع تحيط بهم مسوح قطيعة ، ويمرون أمامي بقلق ، وعيونهم ثابتة ، هاربين من آلامهم حاملينها معهم ، فاغري الأفواه ، بألسنتهم - الحشرات التي تحك بأجنحتها ، وحينئذ ، سأنفجر ضاحكاً ، حتى ولو كان جسمي مغطى بقشور لحمية قذرة تتفتح زهوراً دموية وبنفسجاً وصفيراً . وسوف أستند إلى جدار ، وسأصيح بهم حين يمرون بي : « ماذا فعلتم بعلمكم ؟ ماذا فعلتم بنزعتكم الأصالية ؟ أين هي كرامتكم ، كرامة الحيوانات المفكرة ؟ » ولن يُعطي المرء ، أو على الأقل لن يُعطيني أكثر مما يأخذني الآن . ألن يكون ذلك أيضاً من الكينونة ، ألواناً أخرى للكينونة ؟ إن جميع هذه الجروح التي ستأكل وجهاً على مهل ، ستكون زائدة على اللزوم ، بلا شك ، ولكنها لن تكون أزيد من الأوراق ، إنها إلا أطراف الكينونة .

إن المساء يهبط والمصابيح الأولى تنار في المدينة . يا إلهي ! كم تبدو المدينة « طبيعية » ، بالرغم من جميع هذه الهندسات . كم تبدو ممحوقة بالمساء ! إن ذلك بديهي جداً ، من هنا ، أيمكن أن أكون الوحيد الذي يرى ذلك ؟ أليس ثمة في أي مكان ، كاسندر آخر ، على رأس رابية ، ينظر تحت أقدامه مدينة يبتلعها جوف الطبيعة ؟ ولكن ماذا يعني في الحقيقة ؟ ما عساني أستطيع أن أقول له ؟

ويستدير جسمي ، على مهل ، نحو الشرق ، فيترنح قليلاً ويأخذ في السير .

الأربعاء : آخر يوم لي في بوفيل

جُلت في المدينة كلها بحثاً عن « العصامي » . إنه بكل تأكيد لم يعد إلى بيته . ولا بد أنه يهيم في الشوارع ، مرهقاً بالخجل والذعر ، هــذا الانساني المسكين الذي لا يركن إليه الناس بعد . والحق أني لم أدهش قط حين حدث الشيء :

فلوقت طويل وأنا أحسّ أن رأسه الرقيق الخائف كان يخفي فيه الفضيحة ، لقد كان قليل الأدب : إنه لا يكاد يكون شهرزاد أحد التأمل المتواضع لقصة — نوع من النزعة الانسانية ، على الأصح . ولكن كان لا بدّ أن يجد نفسه ذات يوم وحيداً . مثل السيد لشلي ، ومثل أنا : إنه من جنسي ؛ وهو صاحب إرادة طيبة . أما الآن ، فقد دخل الوحدة — وإلى الأبد . لقد انهار كل شيء دفعة واحدة ، أحلامه للثقافة ، وأحلامه للتفاهم مع البشر . سيكون هنالك أولاً الخوف والذعر والليالي المؤرقة ، وبعد ذلك سلسلة أيام النفي . سيعود في المساء لينه في باحة « الزهورات » ، وسينظر من بعيد إلى نوافذ دار الكتب المشعّة . وسيغص قلبه حين يتذكر صفوف الكتب الطويلة ، وغلافاتها الجلدية ، ورائحة صفحاتها . إني آسف أني لم أصحبه ، ولكنه لم يشأ ذلك ، وهو الذي ابتهل إليّ أن أدعه وحيداً ؛ كان يبدأ تعلم الوحدة . وأنا أكتب هذا في مقهى مابلي . وقد دخلته بأبهة ، وكنت أريد أن أتأمل المدير وآنسة الصندوق وأحس بقوة أني كنت أراهما للمرة الأخيرة . ولكنني لا أستطيع أن أصرف فكري عن « العصامي » ، فإن وجهه المنكر ماثل أمام عيني دائماً ، مليئاً بالعتاب ، وياقته العالية الدامية . ولذا فإني طلبت ورقاً ، وسأروي ما حدث له :

توجهت إلى دار الكتب حوالي الساعة الثانية بعد الظهر . وكنت أفكر : « دار الكتب . إني أدخل هنا للمرة الأخيرة » .

وكانت القاعة شبه خالية . وقد شق عليّ أن أعرفها ، لأني كنت أعرف أني لن أعود إليها أبداً . وكانت خفيفة كالبخار ، لا واقعية تقريباً ، حمراء برمّتها ؛ وكانت الشمس الغاربة تصبغ بالحمرة الطاولة المخصصة للمطالعات ، والباب ، وظهور الكتب . وداخلني إحساس لذيذ ، ذات لحظة ، بأني ألج غابة صغيرة ملأى بالأوراق الذهبية ، وابتسمت . وفكرت : « كم مضى عليّ من الوقت دون أن أبتسم » وكان الكورسيكي ينظر عبر النافذة ، ويداه خلف ظهره . ما الذي كان يراه ؟ صلعة امبرتر ؟ « أما أنا ، فلن أرى بعد أبداً صلعة امبرتر ، ولا قبعته العالية ولا ردنجوته . فبعد ست ساعات ، أكون

قد غادرت بوفيل » . ووضعت على طاولة نائب أمين دار الكتب الجزءين اللذين كنت استعرتهما في الشهر الماضي . وقد مزّق قسيمة خضراء وبسط لي قطعها :

– تفضل يا سيد روكانتان .

– شكراً .

وفكرت : « إنني الآن غير مدين لهم بشيء . إنني غير مدين بشيء لأي شخص هنا . سأقصد بعد حين مقهى « رانديفو دي شامينو » لأودع صاحبته . إنني حرّ » . وترددت لحظات : هل أنفق هذه الفترة الأخيرة للقيام بنزهة طويلة في بوفيل ، ولرؤية جادة فيكتور هوغو ، وجادة غالفاني ، وشارع لوداغوريا . ولكن هذه الغابة الصغيرة كانت هادئة جداً ، نقية جداً ، وكان يخيّل إليّ بأنها تكاد تكون غير موجودة ، وأن « الغثيان » قد وفّرها . وذهبت أجلس قرب الموقد . كان « جورنال دو بوفيل » ملقىً على الطاولة . ومددت يدي ، فتناولته .

« أنقذه كلبه »

« كان السيد دوبوسك ، وهو ملاك في رميردون ، عائداً مساء الأمس على دراجته من معرض نوجيس ... »

أقبلت سيدة ضخمة تجلس إلى يميني . ووضعت قبعتها اللبادية إلى جانبها ، وكان لها بروزاً في وجهها كسدية في الفاتحة . وتحت الأنف ، كان ثمة ثغر صغير فاجر يتطلب باحتقار . وسحبت من محفظتها كتاباً مجلداً ، فارتفقت الطاولة وهي تُسند رأسها بيديها السمينتين . وقبالتي ، كان سيد هرمٌ ينام . وكنت أعرفه . لقد كان في دار الكتب ، حين أخذني ذلك الخوف الشديد في ذلك المساء . وقد خاف هو أيضاً ، كما أظن . وفكرت : « ما أبعد هذا كله ! »

وفي الساعة الرابعة والنصف ، دخل « العصامي » . وكنت أودّ لو أشدّ على يده وأودعه . ولكن ينبغي الاعتقاد بأن مقابلتنا الأخيرة قد خلّفت لديه ذكرى سيئة : لقد حياني تحية بعيدة ، وراح يضع بعيداً عني رزمة صغيرة

بيضاء لا بد أنها كانت تحوي ، كالعادة، قطعة من خبز ولوحاً من الشوكولا. وبعد هنيهة ، عاد يحمل كتاباً مصوّراً وضعه قرب رزمته . وفكرت : « إنني أراه للمرة الأخيرة » . غداً مساء ، وبعد غد مساء ، وكل مساء إلى ذلك ، سيعود ليقرأ على هذه الطاولة فيما هو يأكل خبزه وشوكولاه ، وسيتابع بصبر قضمه الفأري ، وسيقرأ مؤلفات نابو ونودو ونوديه ونيس ، متوقفاً بين الفينة والفينة ليسجل إحدى الحكم على دفتره الصغير . أما أنا ، فسأمشي في باريس ، في شوارع باريس ، وسأرى وجوهاً جديدة . ما الذي سيحدث لي ، فيما يكون هو هنا ، ضوء المصباح وجهه الكبير المفكّر ؟ وأحسست قبل فوات الأوان أنني سأدع نفسي لسراب المغامرة مرة أخرى . فرفعت كتفيّ واستأنفت المطالعة

« بوفيل وضواحيها :

« موليشه.

« نشاط فرقة الدرك في عــام ١٩٣٢ . الضابط في قدم الفوارس الرئيس غاسبار، قائد فرقة مولوشيه ودركيّوه الأربعة السادة لاكوت وليزان وبيار بال وغيل ، لم يعطلوا يوماً واحداً في أثناء عام ١٩٣٢ . والواقع أن دركيّينا كان عليهم أن يحققوا في ٧ جرائم و ٨٢ جنحة و ١٥٩ مخالفة و ٩ انتحارات و ١٥ حادث اصطدام منها ٣ مميتة » .

« جوكستابوفيل

« فرقة جوكستابوفيل لنافخي الأبواق .

« اليوم تمرين عام ، تسليم البطاقات لحفلة السنوية .

« كومبوستيل

« تسليم وسام جوقة الشرف لرئيس البلدية .

« السائح البوفيلي (مؤسس الكشاف البوفيلي ١٩٢٤) :

« هذا المساء ، في الساعة ٢٠ و ٤٥ ، اجتماع شهري في المركز الاجتماعي ١٠ شارع فرديناند بيرون ، القاعة أ . جدول الأعمال : قراءة آخر دعوى . المراسلات . المأدبة السنوية ، اشتراكات ١٩٣٢ ، برنامج الرحلات في شباط ،

قضايا مختلفة ، قبول الأعضاء الجدد » .

« حماية الحيوانات (جمعية بوفيليه) :

« الخميس القادم ، من الساعة ١٥ الى الساعة ١٧ ، القاعات ، ١٠ شارع فرديناند بروون ، بوفيل ، حضور عام . توجيه المراسلات الى الرئيس ، في المركز او ١٥٤ شارع غالفاني » .

« النادي البوفيلي لكلب الدفاع ... الجمعية البوفيلية لمرضى الحرب ... الغرفة النقابية لأصحاب السيارات العمومية ... اللجنة البوفيلية لأصدقاء دور المعلمين ... » .

ونحن صبيان نحيلان مخفضان ، انهما من طلبة الليسيه . والكورسيكي يحب كثيراً تلاميذ الليسيه ، لأنه يستطيع ان يمارس عليهم مراقبة أبوية . إنه يلذه ان يتركهم غالباً يتحركون على كراسيهم ويثرثرون ، ثم يمضي فجأة يسترق الخطى ليقف خلفهم موبخاً : « أتكون هذه حقاً صفة المدرسة الثانوية الكبار ؟ اذا كنتم لا تريدون ان تعتبروا ، فان السيد أمين المكتبة قد قرر ان يشتكي الى مدير الليسيه » . فاذا احتجوا ، نظر اليهم بعينيه الرهيبتين : « أعطوني أسماءكم » . وهو يوجه ايضاً مطالعاتهم : ففي دار الكتب رُسمت على بعض المؤلفات إشارة صليب احمر ، انه الجحيم : آثار لـ ا جيد ، وديدرو ، وبودلير وكتب طبية . وحين يطلب احد تلامذة الليسيه أحد هذه الكتب للمطالعة ، يومىء الكورسيكي اليه ويجذبه الى زاوية ليسأله . وبعد لحظة ، ينفجر مملأً بصوته قاعة المطالعة : « إن هنالك مع ذلك كتباً افضل ان كان في مثل سنك . كتب تربوية . ولكن هل أنهيت اولاً فروضك ؟ في اي صف انت ؟ في الثاني ؟ وليس لديك ما تفعله بعد الساعة الرابعة ؟ إن استاذك يأتي الى هنا غالباً وسوف أحدثه عنك » .

كان الصبيان ما يزالان مزروعين قرب الموقد . وكان لأصغرهما سناً شعر جميل اسمر ، وكانت له بشرة مفرطة الرقة وفم صغير ، خبيث ومزهو . أما رفيقه ، فكان فتى ضخماً له ظل شارب ، وقد لامس مرفقه وتمتم ببضع كلمات . فلم يجبه الصبي الأسمر ، غير أنه بسم

بسمة لا تكاد تُرى ، بسمة ملأى بالاعتزاز والتكبّر . ثم اختار كلاهما ، في غير مبالاة ، قاموساً كان على احد الرفوف ، واقتربا من « العصامي » الذي كان يحدق فيهما نظراً خاضعاً . وكاد يبدو عليهما انهما تجاهلا وجوده ، ولكنهما جلسا بلصقه تماماً ، الصغير الأحمر الى يساره ، والفتى الضخم الى يسار الصغير الأحمر . وسرعان ما بدآ بتصفح القاموس . وترك العصامي نظره يجيل عبر القاعة ، ثم عاد الى المطالعة . لم يسبق لقاعة مكتبة ان كشفت عن مشهد مطمئن أكثر من هذا : اني لم أكن أسمع ضجة ، ما عدا أنفاس السيدة الضخمة ، ولم أكن أرى إلا رؤوساً مائلة فوق الصفحات . ومع ذلك ، فقد داخلني منذ تلك اللحظة شعورٌ بأن حادثاً مزعجاً سيقع . كان جميع اولئك الأشخاص الذين يخفضون عيونهم باجتهاد يبدون وكأنهم ممثلون . كنت قد شعرت ، قبل ذلك بلحظات ، الى ما يشبه لفحة من قسوة تمر فوق رؤوسنا .

كنت قد فرغت من القراءة ، ولكني لم أقرر ان أذهب : كنت أنتظر ، متظاهراً بأني أقرأ جريدتي . وكان ما يزيد فضولي وانزعاجي ان الآخرين كانوا ينتظرون أيضاً . وكان يخيّل اليّ ان جارتي كانت تقلب بسرعة أكبر صفحات كتابها . ومضت بضع دقائق . ثم سمعت همساً . ورفعت رأسي بحذر . كان الصبيّان قد أغلقا قاموسهما . ولم يكن الصغير الأحمر يتكلم ، بل كان يُدير الى اليمين وجهاً مطبوعاً بالاحترام والاهتمام . وكان الأشقر مختبئاً نصف اختباء خلف كتفه ، مرهفاً أذنه ، يضحك بصمت . وفكرت : « ولكن من يتكلم ؟ »

كان هو « العصامي » . وكان مائلاً على جاره الفتيّ ، وعيناه في عينيه ، وكان يبتسم له ، وكنت أرى شفتيه تتحركان بين الفينة والفينة ، وجفونه الطويلة تختلج . ولم أكن أعهد فيه هيئة الشباب هذه ، حتى كان فاتناً تقريباً . ولكنه كان يتوقف احياناً ليُلقي خلفه نظرة قلقة . وكان يبدو على الفتى الصغير انه كان يشرب كلماته . لم يكن في هذا المشهد الصغير ما هو خارق وكنت أوشك ان أعود الى مطالعتي حين رأيت الفتى الصغير يزلق يده ببطء وراء ظهره ، على حافة الطاولة . ومشت اليد لحظة ، وهي محتجبة على هذا النحو عن عيني « العصامي » ، وأخذت تتلمّس ما حولها ثم التقت

ذراع الأشقر الضخم ، فدفعتها بعنف . ولم يكن الآخر قد رآها آتية ، لفرط استغراقه في التمتع الصامت بكلام العصامي . فاذا هو يقفز في الهواء ، واذا فمه ينفتح الى ما لا حدّ له تحت تأثير الاندهاش والاعجاب . وكان الاسمر الصغير قد احتفظ بهيئة الاهتمام الموقّر ، حتى ان المرء يحسبه ان يملك انه كانت تلك اليد الطرية يده . وفكرت : « ما الذي سيفعلانه معه ؟ » وكنت أدرك جيداً ان شيئاً ما دنيئاً سوف يحدث ، وكنت أرى كذلك ان الأوان لم يفت للحيلولة دون ان يحدث هذا . ولكني لم أكن أتوصل الى الحدس بما ينبغي عمله . وخطر لي ذات لحظة ان أنهض فأذهب لأربت على كتف العصامي وأعقد معه حديثاً . ولكنه في اللحظة نفسها فاجأ نظرتي . فكف فوراً عن الكلام وزمّ شفتيه بهيئة مغتاظة . وسرعان ما صرفت بصري وتناولت جريدتي ثانية لأستعيد طمأنينتي . وفي هذه الأثناء كانت السيدة الضخمة قد دفعت كتابها ورفعت رأسها . وكانت تبدو مسحورة . وأحسست بوضوح ان المسألة توشك ان تنفجر : كانوا « يريدون » جميعاً ان تنفجر . ما الذي كنت أستطيع ان أفعله ؟ لقد ألقيت نظرة على الكورسيكي : فاذا هو قد كفّ عن النظر عبر النافذة ، واستدار نصف استدارة نحونا .

ومرّ ربع ساعة . وكان العصامي قد استأنف همسه . ولم أكن أجرؤ بعدُ على النظر اليه ، ولكني كنت أتصوّر جيداً هيئته الطرية الرقيقة وتلك النظرات العميقة التي كانت تثقل عليه من غير ان يعرف ذلك . وذات لحظة ، سمعت ضحكه ، ضحكة صغيرة سوقية ومليحة . وقد انقبض قلبي لذلك : كان يخيّل إليّ ان أطفالاً قذرين سيغرقون قطة . ثم انقطع الهمس فجأة . وبدا لي هذا الصمت فاجعاً : كانت تلك هي النهاية ، الإعدام . وكنت أخفض رأسي على جريدتي ، وأتظاهر بالقراءة ، ولكني لم أكن أقرأ : كنت أرفع حاجبيّ وأتطاول بعينيّ الى أعلى ما أستطيع ، لكي أحاول ان ألمح ما كان يحدث في ذلك الصمت قبالتي . وتمكنت ، اذ أدرت رأسي قليلاً ، من ان ألتقط بزاوية عيني شيئاً ما : كانت يداً ، اليد الصغيرة البيضاء التي كانت منذ لحظة قد انسلّت

غطاء الطاولة . انها الآن تستريح ملتوية على ظهورها ، مسترخية ، عابثة شهوانية ، وكان لها مرأى متحسسة تمدداً في الشمس بكسل . والقريب منها شيء أسمر ذو شعر ، على ترقبه . كان إصبعاً ضخماً مصفراً بالتبغ ، وكانت له ، بالقرب من هذه اليد ، فظاظة فرج ذكر . وقد توقف لحظة ، صلباً مصوّباً نحو الراحة الرخصة ، ثم أخذ فجأة يلامسها في خجل . لم أكن مندهشاً ، بل كنت خاصة حانقاً على « العصامي » : ألم يكن الأحمق يستطيع إذن أن يمالك نفسه ؟ ألم يكن يدرك الخطر الذي يواجهه ؟ كان باقياً له حظ ، حظ صغير . فلئن وضع كلتا يديه على الطاولة ، إلى جانبي الكتاب ، لئن ظل ساكناً تماماً ، فربما أفلت هذه المرة من قدره . ولكني كنت « أعرف » انه سيفوّت عليه حظه . كان الاصبع يمر رقيقاً ، ذليلاً ، على البشرة الساكنة ، ويلامسها بالكاد ، من غير ان يجرؤ على الاستسلام لثقله ؛ فكأنه كان واعياً قباحته . ورفعت رأسي فجأة ، غير قادر على ان أتحمل بعدُ هذا الذهاب والإياب العنيدين : كنت أبحث عن عيني « العصامي » وأسعل بشدة ، لأنبهه . ولكنه كان قد أسبل جفنيه ، وكان يبتسم . وكانت يده الأخرى قد اختفت تحت الطاولة . وكان الفتيان قد كفّا عن الضحك وأصبحا ممتقعين جداً . كان الصغير الأسمر يقرص شفتيه ، كان خائفاً ، فكأن الأحداث قد تجاوزته . غير انه لم يكن ليسحب يده ، بل لقد تركها على الطاولة ، جامدة ، متشنجة بعض الشيء . وكان رفيقه فاغراً فمه ، بهيئة بليدة مذعورة .

وآنذاك أخذ الكورسيكي يهدر . كان قد أقبل من غير ان يُسمع ، فوقف خلف كرسيّ « العصامي » . كان قرمزي اللون ، وكان يبدو عليه انه يضحك ، غير ان عينيه كانتا ترسلان الشرر . وقفزت عن كرسيّي ، ولكني أحسستني وقد فُرّج عني تقريباً : كان الانتظار أشقّ من ان يحتمل . وكنت أريد أن ينتهي ذلك في أقصر وقت ممكن ، أن يخرجوه من المكتبة ، إذا شاءوا ، ولكن لينته ذلك . والتقط الفتيان حقيبتيهما وقد ابيضّا حتى أصبحا كالثلج ، وخرجا في طرفة عين .

وكان الكورسيكي يصيح ، ثملاً من فرط الغضب :

— لقد رأيتك ، لقد رأيتك هذه المرة ، ولن تستطيع ان تقول ان ذلك غير صحيح . انك ستقول هذا ، انه ليس صحيحاً ، أليس كذلك ؟ أتظن انني لم أكن أرى حركاتك ؟ ان عينيّ ليستا في جيبي ، يا صاحبي . صبراً ، كنت أقول لنفسي ، صبراً ! وحين أقبض عليه ، سيكلفه ذلك غالياً . اوه ، نعم ، سيكلفك ذلك غالياً . انني أعرف اسمك ، وأعرف عنوانك ، لقد استعلمت ، لو كنت تدري . واعرف أيضاً معلمك ، السيد شوبليه . وهو الذي سيندهش غداً صباحاً ، حين يتلقى رسالة من السيد امين المكتبة . ماذا ؟

واستطرد وهو يدير عينيه في محجريه :

— اصمت . يجب الا تتخيل اولاً ان الأمر سيتوقف عند هذا الحد . ان في قرننا محاكم ، لأشخاص من نوعك . ان « السيد » يتثقف ! ان « السيد » يكمل ثقافته ! ان « السيد » كان يزعجني طوال الوقت من أجل استعلامات او كتب . انك لو تعلم لم تخدعني على الاطلاق .

ولم يكن يبدو على « العصامي » أنه سيعترض . لابدّ انه منذ سنوات كان يتوقع مثل هذا الحل . ولابدّ انه تصوّر مئة مرة ما الذي سيحدث حين ينسلّ الكورسيكي خطى خفية خلفه ، وحين ينفجر فجأةً صوت غاضب في أذنيه . ومع ذلك ، فقد كان يعود كل مساء ، وكان يواصل مطالعاته ، بشكل محموم ، وكان بين الفينة والفينة ، يداعب كاللص يد صبي بيضاء ، او ربما ساقه . ان ما كنت اقرأه على وجهه ، كان على الأصح استسلاماً وخضوعاً .

وتمتم قائلاً :

— لا أدري ما الذي تعنيه ، فانا آتي الى هنا منذ سنوات ...

وكان يتظاهر بالغيظ والدهشة ، ولكن بلا اقتناع . كان يعلم جيداً ان الحادث كان هنا ، وانه ليس ثمة بعدُ ما يمكن ان يوقفه ، وانه ينبغي له ان يعيش دقائقه واحدة واحدة .

وقالت جارتي :

— لا تُصْغِ إليه ، فقد رأيته .

وكانت قد نهضت متألقة :

— آه لا ، ليست هي المرة الأولى التي أراه فيها ، فيوم الاثنين الماضي ، لا قبل ذلك ، رأيته ولم أرد أن أقول شيئاً ، لأنني لم أكن أصدّق عينيّ ، ولم أكن أعتقد أنه بالإمكان أن يحدث ، في مكتبة يقصدها الناس للتثقف ، ما يثير احمرار الخجل . ليس لي أنا أولاد ، ولكني أرثي للأمهات اللواتي يرسلن أولادهن ليدرسوا هنا وهنّ يحسبن أنهم هادئون ، لا يعكر صفوهم أحد ، في حين أن هناك مسوخاً لا يحترمون شيئاً ويمنعونهم من كتابة فروضهم .

واقترب الكورسيكي من « العصامي » ، وصاح في وجهه :

— أتسمع ما تقوله السيدة ؟ لست بحاجة لأن تقوم بالتمثيل ، فلقد رأوك ، أيها الرجل النذل !

فقال العصامي في ترصُّن :

— يا سيد ، إني ألتمس الأمر بأن تكون مؤدّباً !

وكان ذلك ينسجم مع دوره ، ربما كان يودّ أن يعترف ، أن يفرّ ، ولكن كان ينبغي أن يمثل دوره حتى النهاية . إنه لم يكن ينظر إلى الكورسيكي ، وكانت عيناه مغلقتين تقريباً ، وكانت ذراعاه متدليتين ، وكان ممتقعاً إلى درجة فظيعة . ثم صعد في وجهه فجأة فيضٌ من الدم .

وكان الكورسيكي يختنق من الغضب :

— مؤدّب ؟ يا القذر ! ربما كنت تظن أني لم أرك . أؤكد لك أني كنت أراقبك . منذ أشهر وأنا أراقبك .

فهزّ العصامي كتفيه وتظاهر بالعودة إلى المطالعة . وكان قد احتقن ، وهو قرمزي الوجه ، ممتلئ العينين بالدموع ، مظهر الاهتمام البالغ . وكان ينظر بشغف إلى صورة من الموزاييك البيزنطي .

وقالت السيدة وهي تنظر إلى الكورسيكي :

— إنه يتابع قراءته ... إنه جسور !

وظلّ الكورسيكي متربصاً . وفي تلك الأثناء ، كان طالب أمين المكتبة ، وهو شاب خجول هادىء يُرهبه الكورسيكي ، قد تطاول قليلاً فوق مكتبه ، وصاح :

— باولي ، ماذا هناك ؟

وحلّت لحظة صمت ، واستطعت أن أؤمّل أن تمرّ القضية عند هذا الحدّ . ولكن لا بدّ أن الكورسيكي قد ارتدّ على نفسه وأحسّ مضحكاً ، فاذا به ، وهو في ثورة أعصابه ، لا يعرف بعد ما ينبغي أن يقول لهذه الضحية الصامتة ، وإذا به يقذف الفراغ بضربة من قبضة يده . والتفت العصامي مذعوراً ، وكان ينظر إلى الكورسيكي ، فاغر الفم ، وكان في عينيه خوف مطيع ، ثم قال بمشقة :

— إذا ضربتني رفعتُ شكوى ، أريد أن أذهب بملء رضاي .

وكنت قد نهضت بدوري ، ولكن بعد فوات الأوان . فقد أرسل الكورسيكي أنّةً شهوانية صغيرة ، وفجأة سحق قبضته على أنف العصامي . وذات لحظة ، لم أرَ منه إلا عينَي هذا الأخير ، عينيه الرائعتين المفتوحتين ألماً وخجلاً فوق كمّ وقبضة سمراء . وحين سحب الكورسيكي قبضته ، كان أنف العصامي ينزف دماً . وأراد أن يرفع يديه إلى وجهه ، ولكن الكورسيكي ضربه أيضاً على زاوية شفتيه . فاسترخى العصامي على كرسيّه ونظر أمامه بعينين خجلتين رقيقتين . وكان الدم يسيل من أنفه على ثيابه . وتلمّس الطاولة بيده اليمنى بحثاً عن رزمته ، بينما كانت يده اليسرى تحاول بعناد لمس منخريه اللذين كانا يقطران . وقال كأنما يحدث نفسه :

— إني ذاهب .

وكانت المرأة التي بجانبي شاحبة الوجه وعيناها تلتمعان ، وقالت :

— إنك تستحق ذلك ، أيها القذر !

وكنت أرتجف غضباً ، وقد استدرت حول الطاولة ، فقبضت على الكورسيكي القصير من عنقه ورفعته وأنا أرتجف ، وكان بوسعي أن أحطّمه على الطاولة . وكان قد أصبح أزرق اللون وهو يتخبّط ، ويحاول أن يخمشني ،

ولكن ذراعيه القصيرتين لم تكونا تدركان وجهي . ولم اكن اقول كلمة ، ولكني كنت اريد ان أدقّ أنفه ولشوّه وجهه . وفهم ذلك ، فرفع مرفقه ليحمي وجهه : وكنت مسروراً لأني كنت ارى انه كان خائفاً . وأخذ يهذي فجأة :

— دعني ايها الوحش . أتكون انت ايضاً ...

وما زلت أتساءل لماذا تركته . هل خشيت الصافعات ؟ ألكون هذه الأعوام الكسول في بوفيل قد غمرتني بالصدأ ؟ لو حدث ذلك في الماضي لما تركته من غير ان احطّم اسنانه . والتفتّ الى العصامي ، وكان قد نهض اخيراً . ولكنه كان يتحاشى النظر اليّ ، وذهب خافض الرأس ينزع معطفه عن المشجب . وكان يُمرّ بلا انقطاع يده اليسرى تحت أنفه ، كما لو كان يريد وقف النزيف . ولكن الدم ظلّ يقطر . وكنت اخشى ان يعود عليه ذلك بالأذى . ودمدم من غير ان ينظر الى احد :

— انقضت اعوام وأنا اجيء الى هنا ...

ولكن الرجل القصير ما كاد يستقرّ على قدميه حتى اصبح مرة اخرى سيد الموقف . فقال للعصامي :

— حِلّ عن ظهري ولا تضع قدميك بعدُ هنا على الاطلاق ، والا استدعيت الشرطة لإخراجك .

وادركت العصامي في آخر السلم . وكنت منزعجاً ، خجلاً من خجله ، ولم اكن اعرف ما يجب ان اقول له . ولم يبدُ عليه انه لاحظ حضوري . وكان قد اخرج اخيراً منديله . وكان يبصق شيئاً ما . وكان انفه ينزف اقل من ذي قبل . وقلت له بارتباك :

— تعال معي الى الصيدلي .

لم يجب . وكانت ضجة كبيرة تفلّتت من قاعة المطالعة . ولا بدّ ان الجميع كانوا يتكلمون في وقت واحد . وقد أطلقت المرأة ضحكة ثاقبة .

وقال العصامي :

– لن أستطيع بعدُ أبداً أن أعود إلى هنا .

واستدار ينظر نظرة حائرة إلى السلّم ومدخل قاعة المطالعة . وقد أبانت عنه الحركة الدم بين ياقته المشدّة وعنقه . وكان فمه وحذاؤه ملطّخة بالدم .

وقلت له وأنا آخذه من ذراعه :

– تعال .

فارتعش وتخلّص بعنف :

– دعني .

– ولكنك لا تستطيع أن تبقى وحدك . يجب أن يُغسل وجهك ، وأن يُعنى بك .

وكان يردّد :

– دعني ، أرجوك يا سيدي ، دعني .

وكان على وشك أن يسقط في نوبة الأعصاب ، فتركته يبتعد . وأضاءت الشمس الغاربة ظهره المنحني لحظة ، ثم اختفى . وعلى عتبة الباب ، كان ثمة لطخة دم ، بشكل نجمة .

بعد ذلك بساعة

الجو رماديّ ، والشمس تغيب ؛ بعد ساعتين ، سينطلق القطار . لقد اجتزت للمرة الأولى الحديقة العامة ، وأنا أتنزّه في شارع بوليبه . أني أعرف أنه شارع بوليبه ، ولكني لا أتذكّره . حين كنت أسلكه عادة ، كان يخيّل اليّ أني أجتاز كثافة عميقة في الحسّ السليم : كان شارع بوليبه الخشن المربّع يشبه برصانته اللائقة بالفظاظة ، وطريقه المقوّسة المزفّتة ، الطرق الوطنية حين تجتاز المساكن الغنية وتحيط نفسها من الجانبين ، على طول كيلومتر ، بالبيوت الضخمة ذات الطابقين ، وكنت أدعوها شارع الفلاّحين ، وكانت تسحرني لأنها كانت جدّ نافرة ، وجدّ مفارقة في مرفأ للتجارة . ان البيوت اليوم قائمة هنا ، ولكنها فقدت مظهرها الريفي : انها عمارات ، وهنا

كل شيء . لقد داخلني ، في الحديقة العامة منذ لحظة ، شعورٌ من هذا القبيل : كانت النباتات والأراضي المعشبة ونبع وليفيه ماسكوريه تبدو عنيدة لفرط ما كانت لا معبّرة . لقد فهمت : ان المدينة تبدأ هي أولاً بالتخلّي عنّي . اني لم اترك بوفيل ، ولكني مع ذلك لستُ فيها بعد . ان بوفيل صامتة . واني اجد غريباً ان يجب عليّ ان ابقى ساعتين بعدُ في هذه المدينة التي تصفّ الآن أثاثها ، من غير ان تهتمّ بي ، وتضعه تحت مدارعها لتستطيع ان تكشف ، بكلّ نضارته ، هذا المساء او غداً ، للقادمين الجدد . اني احسّني منسيّاً اكثر من اي وقت آخر .

خطوت بضع خطوات وتوقفت . اني أتذوّق هذا النسيان الكلّيّ الذي سقطت فيه . انا بين مدينتين ، احداهما تجهلني ، والأخرى لا تعرفني . فمن يتذكّرني ؟ ربما امرأة ثقيلة شابة في لندن ... ومع ذلك ، أتراها تفكّر بي « انا » ؟ الواقع ان هنالك ذلك الرجل ، ذلك المصري . لعلّه قد دخل غرفتها ، ولعلّه قد أخذها بين ذراعيه . اني لا احسده ، فأنا اعلم جيداً انها تعيش وقد عفت حواسّها ، حتى ولو كانت محبّة من صميم قلبها ، فانه سيكون مع ذلك حبٌّ ميت . اني انا الذي حصلت على آخر حبٍّ حيٍّ لها . غير ان هنالك مع ذلك هذا الذي يمكن ان يمنحها اياه : اللذة . فاذا كانت بسبيل ان تتراخى وتسقط في الاغماء ، فليس اذن شيء ما بعدُ يربطها بي . انها تعاني اللذة ، ولستُ بعدُ بالنسبة لها اكثر من شخص لم يلتقِ بها قط ، لقد افرغت نفسها منّي دفعة واحدة ، وجميع وجدانات العالم الأخرى ، هي ايضاً فارغة منّي . وهذا يعود عليّ بشعور الطرافة . ومع ذلك ، فأنا اعلم جيداً اني كائن ، و « اني » هنا .

والآن ، حين اقول « انا » يبدو لي ذلك اجوف . اني لا اتوصل بعدُ جيداً الى ان أحسّني ، لفرط ما انا منسيّ . ان كل ما يبقى واقعياً فيّ ، هو كينونةٌ أحسّ انها كائنة . اني اتثاءب تثاؤباً طويلاً ، عذباً . ان انطوان روكنتان غير كائن في نظر احد . وهذا ما يسلّيني . وما هذا ، انطوان روكنتان ؟ انه من التجريد . ذكرى صغيرة صفراء منّي تنوس في وجداني . انطوان روكنتان ..

وفجأة تصغر « الأنا » ، وتصغر ، وينتهي الأمر ، وتنطفىء .

ان الوعي خط بين الجدران ، صافياً ، جامداً ، فاصلاً . لم يأتلف . ليس ثمة من يمسكه بعد . كان ثمة من كان الساعة يقول : « أنا » ، ويقول : « وعيي » من ؟ كان في الخارج شوارع متكسّة ، ذات ألوان وروائح معروفة . ويبقى جدران مغلقة ، ووعي معطل . ذلك ما هو موجود : جدران ، وبين الجدران ، شفافية صغيرة حية ولا شخصية . ان الوعي كائن كالشجرة ، كنبتة العشب . انه ينتعش ، ويضجر . كينونات صغيرة فارّة تعبره كما تعبر العصافير الأغصان ، تعبرها وتختفي . وعي منسي ، مهجور بين هذه الجدران ، تحت السماء الرمادية . وها هو ذا معنى وجوده : من انه يعي انه زائد عن اللزوم . انه يتحلل ويذوب ، ويتناثر ، ويسعى لأن يضيع على الجدار الأسمر ، على طول المصباح ، أو هنالك في دخان المساء . ولكنه لا ينسى نفسه أبداً ، انه يعي انه وعي ينسى نفسه . هذا هو قدره . ان هنالك صوتاً مخنوقاً يقول : « القطار سينطلق بعد ساعتين » وهنالك وعي لهذا الصوت . هنالك أيضاً وعي وجه . انه يمر على مهل ، مليئاً بالدم ، ملطخاً ، وعيناه الكبيرتان تدمعان . هو ليس بين الجدران ، هو ليس في أي مكان . انه يتلاشى ، ان جسماً مقوّساً على عصا يرتقي ، ويبتعد بخطى بطيئة ، ويبدو انه يتوقف لدى كل خطوة ، ولا يتوقف أبداً . هنالك وعي لهذا الجسم الذي يسير ببطء في شارع معتم . يمشي ولكنه لا يبتعد . والشارع المعتم لا ينتهي ، انه يضيع في العدم . هو ليس بين الجدران ، وهو ليس في أي مكان . وهنالك وعي صوت مخنوق يقول : « ان العصامي يتيه في المدينة »

لا في المدينة عينها ، ولا بين هذه الجدران المتداعية ، وانما يمشي العصامي في مدينة متوحشة لا تنساه . ان هنالك اشخاصاً يفكرون فيه ، الكورسيكي ، والمرأة الضخمة ، وربما جميع الناس ، في المدينة . انه لم يخسر بعد ، ولا يستطيع ان يخسر أناه ، تلك الأنا المعذّبة ، النازفة التي لم يريدوا ان يجهزوا عليها . ان شفتيه ومنخريه تؤلمه ، هو يفكر : « اني أتوجع » . ويمشي ، يجب ان يمشي . فلو وقف لحظة واحدة لانتصبت حوله فجأة جدران دار الكتب العالية ،

وحسه داخلها، وسوف يتبع الكورسيكي الى حانه، وسيعود المشهد من جديد متشابهاً في كل تفاصيله ، وستقول له المرأة : « يجب ان تكون في صحن الاشغال الشاقة ، تلك القذارات ! » انه عشي ، وهو لا يريد ان يعود الى منزله : فالكورسيكي ينتظره في غرفته ، والمرأة والعصيّات : « لا مجال للإنكار ، فقد رأيتك » وسيعود المشهد من جديد . انه يفكر : « يا الهي ، ليتني لم افعل ذلك ، انه كان بامكاني الا افعل ذلك ، ليت ذلك يمكن الا يكون حقيقياً ! »

ويروح الوجه القلق وعي ، «نعم الوعي» ، رغماً عنه الى الانتحار ، « ولكن لا ، ان تلك الروح العذبة الطاهرة لا يمكن ان تفكر بالموت .

ان هنالك معرفة الوعي . انه يرى نفسه من جانب الى جانب ، مطمئناً وفارغاً بين الجدران ، متحرراً من الانسان الذي كان يعمره ، مسرعاً لانه ليس احداً . الصوت يقول : « الصناديق تتحرك ، والقطار ينطلق بعد ساعتين ، والجدران تنطلق يميناً وشمالاً . هنالك وعي لطريقة تعصب الطرق ، ووعي لخزان معمل الغاز » ووعي لمثله الكئيبة ، والصوت يقول : « للمرة الاخيرة » .

وعي آني ، آني السنة ، آني الصور ، لن عرفها بالصدق ، هنالك وعي الألم ، الألم واع بين الجدران الطويلة التي تمضي ولن تعود ابداً : « والزوال الن ينتهي من هذا ابداً ؟ » ان الصوت يغني بين الجدران كل جاز و يمضي هذه الأيام » . الزمن ذلك لن ينتهي ابداً ؟ ويعود اللحن على مهل ، من الخلف ، بطريقة خفية ، ليستعيد الصوت ، ويغني الصوت دون ان يتمكن من التوقف ، وتمشي الجسم ، وهنالك وعي هذا كله ، ومع الأسف ، وعي الوعي . ولكن ليس ثمة احد يتألم ويلوي يديه ويشفق على نفسه . لا احد . وانما هو ألم تركت غض ، ألم منسيّ — لا يستطيع ان ينسى نفسه . ويقول الصوت : هونا مقهى « رانديفو دي شامينو » وتنبثق « الانا » في الوعي ، انها « انا » انطوان روكنتان ، وانا ذاهب الى باريس بعد قليل ، وقد قمت اودّع صاحبة المقهى .

— جئت أودّعك .

— أأنت مسافر ، يا سيد انطوان ؟

— سأقيم في باريس ، لتغير الجو .

— يا للمحظوظ !

كيف أتى لي ان أضغط من شفتيّ على هذا الوجه العريض ؟ إن جسمها لا يعنيني . حتى الأمس ، كان بإمكاني ان أحسّ بها تحت الثوب الصوف الأسود . أما اليوم ، فان الثوب غير قابل للاختراق . هذا الجسم الأبيض ، بعروقه النافرة ، أتراه كان حلماً ؟

قالت صاحبة الفندق :

— سوف نشتاق إليك . ألا تريد ان تأخذ شيئاً ؟ إني أنا التي أدعوك .

وجلسنا نشرب . وخفضت صوتها قليلاً ، وقالت بأسف مؤدب :

— لقد تعوّدت كثيراً عليك . وكنا متفاهمين جداً .

— سأعود لرؤيتك .

— هو كذلك ، يا سيد انطوان . حين تمر في بوفيل ، ستعرج علينا لإلقاء تحية صغيرة . ستقول لنفسك : « سأذهب لألقي التحية على السيدة جان » . إن ذلك سيسرّها . صحيح ، إن المرء يحب ان يعرف ما الذي انتهى إليه الناس . والواقع ان الزبائن هنا ، يعودون إلينا دائماً . إن عندنا بحارة ، أليس هذا صحيحاً ، وموظفين من شركة الترانسا : إني أبقى أحياناً عامين من غير ان أراهم ، فهم إما في البرازيل او في نيويورك يشتغلون بالخدمة في بوردو على باخرة المساجيري . ثم يأتي يوم يعودون فيه : « مرحباً ، يا سيدة جان » ونشرب قدحاً معاً . وسوف تصدقني ان شئت ، إني أتذكر ما اعتادوا ان يأخذوه من شراب . بعد عامين من الغياب ؟ فأقول لادلين : « قدمي قدح فرموت جاف للسيد بيار . وقدح نوايي سيترا للسيد ليون » . فيقولون لي : « عجباً كيف تتذكرين ذلك ؟ » فأجيبهم : « تلك هي مهنتي » .

وكان في جوف القاعة رجل سمين يطالعها منذ حين . ولقد ناداها :

— صاحبة الفندق الصغيرة !

نهضت :

– انطري ، يا سيد الطوان .

واقتربت الخادم مني :

– أتتركنا ؟

– إني ذاهب إلى باريس .

– لقد سكنتها ، باريس ، مدة عامين . كنت أعمل عند « سيمون » ولكني كنت أشتاق هذه المدينة .

وترددت لحظة ، ثم أدركت أن ليس لديها بعدُ ما تقوله لي :

– إذن ، مع السلامة ، يا سيد الطوان .

ومسحت يديها بمريولها وبسطتها لي .

– مع السلامة ، مادلين .

وانصرفت . وجلبت « جريدة بوفيل » . ثم نفضتها : لقد قرأتها منذ حين في « دار الكتب » ، من أول سطر فيها إلى آخر سطر .

ولم تعد صاحبة الفندق ، فلقد تركت لعشيقها يديها السمينتين ، فأخذ يعجنهما في هوس .

سيمضي القطار بعد ثلاثة أرباع الساعة .

وأجريت حسابي ، على سبيل التسلية .

ألف ومئتا فرنك في الشهر ، ليس ذلك بالمبلغ الضخم . على أني إذا ضيقت على نفسي قليلاً فإنه لا بد أن يكفيني . غرفة أجرتها ثلاثمئة فرنك ، وخمسة عشر فرنكاً للطعام كل يوم : ويبقى أربعمئة وخمسون فرنكاً للغسيل والسكاير والنفقات الصغيرة والسينما . لن أكون بحاجة إلى الثياب والملابس قبل فترة طويلة . فإن بدلتيّ نظيفتان ، بالرغم من أنهما تلمعان قليلاً لدى المرفقين : إنهما تخدمانني ثلاث سنوات أو أربعاً أخرى إذا اعتنيت بهما .

عجباً ! « أأنا » الذي سيسوق حياة الفطر هذه ؟ ماعساي أعمل بنهاراتي ؟ إني سوف أتنزه . سأقصد حديقة « التويلري » فأقعد كرسياً حديدياً – أو

بالأصبع مقعداً من المقاعد الخشبية الثابتة ، بشاطئ الدوفين . وسأقصد دور الكتب للمطالعة ، وبعد ذلك ؟ السينما مرة واحدة في الأسبوع . هل أحضر حفلة بهلوان يوم الأحد ؟ هل سألعب لعبة « الكروكيه » مع متقاعدي اللكسمبورغ في الثلاثين من العمر ؟ إني أشفق على نفسي ! هنالك لحظات أتساءل فيها أليس من الأفضل ان أنفق في عام الثلاثمئة ألف فرنك التي تبقى لي — وبعد ذلك ... ولكن لم يعود علي ذلك ؟ ثياب جديدة ؟ نساء ؟ رحلات ؟ لقد حصلت على هذا كله ، وقد انتهى الأمر الآن ، وليس لدي بعد أية رغبة فيما سيبقى ؟ سوف أجد نفسي بعد عام ، فارغاً مثل الآن وحتى بلا ذكرى ، وسأكون جباناً أمام الموت .

ثلاثون عاماً ! و ١٤،٤٠٠ فرنك كمدخول . قسائم أقبضها كل شهر . أنا مع ذلك لست بالشيخ ! فليعطوني شيئاً أعمله ، أي شيء ... من الأفضل ان أفكر بشيء آخر ، لأني في هذه اللحظة ، إنما أمثّل . انا أعلم جيداً أنني لا أريد ان أعمل شيئاً : فعمل أي شيء ، انما هو خلق كينونة — وعندنا من الكينونة ما فيه الكفاية .

الحقيقة هي اني لا أستطيع ان أترك قلمي : أظن اني سأصاب بـ«الغثيان» ، وعندي شعور بأني أؤخره إذ أكتب . ولهذا أكتب ما يخطر في بالي .

وتشعر مادلين اني أريد ان ترضيني ، فتناديني من بعيد وهي تحرك الاسطوانة :

— اسطوانتك ، يا سيد انطوان ، التي تحبها . أتريد ان أسمعها للمرة الأخيرة ؟

— إذا شئت .

قلت ذلك تأدباً ، ولكني لا أحس في وضع ملائم للإصغاء الى لحن جاز . غير اني أنتبه مع ذلك ، لأني سأستمع الى هذه الاسطوانة للمرة الأخيرة ، كما تقولين يا مادلين : انها قديمة جداً ، بل أقدم مما ينبغي ، بالنسبة للريف ، عبثاً سأبحث عنها في باريس . سوف تضعها مادلين على آلة الفونوغراف ، وستدور ، وفي الحزوز ، ستأخذ إبرة الفولاذ في القفز والصرير ، وحين تنتهي

الحزوز من سوقها ، على شكل حلزوني ، الى وسط الاسطوانة ، سينتهي كل شيء ، وسيصمت الى الأبد الصوت الأبح الذي يغني : «بعض هذه الأيام» . وبدأت الاسطوانة .

إن هناك حمقى يلتمسون العزاء في الفنون الجميلة . مثال ذلك امرأة عمي «بيجوا» : «ان «بريلود» شوبان قد ساعدتني مساعدة عظيمة لدى موت عمك المسكين» . وقاعات الحفلات الموسيقية تغص بالأذلاء المهانين الذين يسعون ، مغمضي العيون ، الى تحويل وجوههم الممتقعة الى لواقط لاقطة . انهم يتصورون الآن الأصوات الملتقطة تسيل فيهم ، عذبة ، مغذية ، وان آلامهم تصبح موسيقية ، كآلام فرتر الشاب ، وهم يظنون ان الجمال رؤوف بهم . فيا للفروج الحمقى !

أود ان يقولوا لي اذا كانوا يجدونها رؤوفاً بهم ، تلك الموسيقى . لا شك انني كنت ، منذ لحظة ، بعيداً عن ان اسبح في الغبطة . كنت على السطح أجري حساباتي ، بصورة آلية . وفي الجوف ، كانت تأسن جميع هذه الأفكار المزعجة التي اتخذت شكل استفهامات غير مصوغة ، واندهاشات بكماء ، والتي لا تتركني بعد ليلاً ولا نهاراً . أفكار عن آني ، وعن حياتي الضائعة . وتحت ذلك ايضاً يقبع الغثيان ، خجولاً كالفجر . ولكن في تلك اللحظة ، لم يكن ثمة موسيقى ، وكنت متبرماً وهادئاً . كانت جميع الاشياء التي تحيط بي مصنوعة من المادة التي انا مصنوع منها ، من نوع من الألم القبيح . كان العالم جد بشع ، خارج نفسي ، وجد بشعة تلك الاقداح القذرة على الطاولات ، والبقع السمراء على المرآة ومريول مادلين والهيئة الودية لعاشق صاحبة الفندق ، وجد بشع وجود العالم نفسه ، وكم كنت أحسني مطمئناً ، بين افراد الاسرة .

إن هنالك الآن أغنية الساكسفون هذه . واني لأشعر بالخجل . إن ألماً صغيراً مجيداً قد ولد ، ألم - نموذجي . أربعة ألحان من الساكسفون . إنها تروح وتجيء ، وكأنها تقول : يجب ان تفعل مثلنا ، ان تتألم على القياس . نعم ، بالطبع ، أود كثيراً ان أتألم على هذا النحو : على القياس ، في غير ما التذاذ ، ومن غير شفقة

على الفتى ، وبطهارة قاسية . ولكن أيكون الذنب ذنبي اذا كانت البيرة دافئة في جوف كأسي ، واذا كان ثمة لطخات سمراء على المرآة ، واذا كنت زائداً على اللزوم ، واذا كانت أخلص آلامي وأجفها يتلبد ويثقل ، بكتلة مفرطة من اللحم وبشرة أعرض مما ينبغي ، كعجل البحر ذي العينين الضخمتين الدامعتين المؤثرتين ، ولكن الشعور أيضاً ؟ كلا ، ليس بالامكان القول بأنه ذو رأفـة وشفقة ، هذا الألم الصغير الذي يطوف فوق الأسطوانة ويهوم حولي . بل هو ليس ساخراً ، فهو يدور عجلاً ، منشغلاً بنفسه ، لقد قطع كالمنجل حميمية العـالم التافهة ، وهو الآن يدور ، ونحن جميعاً ، مادلين ، والرجل الضخم ، وصاحبة الفندق ، وأنا نفسي والطاولات والمقاعد والمرآة الملطخة ، والأقـداح ، نحن جميعاً الذين كنا نستسلم للوجود والكينونة لأننا كنا فيما بيننا — فقـد فاجأنا الألم في الداخل ، في الاتساق اليومي : إني خجــل من أجل نفسي ومن أجــل ما يوجد « أمامه » .

إن هذا الألم غير كائن . فلئن نهضت وانتزعت هذه الأسطوانة من الكفة التي تحملها ولئن كسرتها الى قسمين ، فاني لن أبلغه ، هو الألم . انه فيما وراء — دائماً فيما وراء شيء ، صوت أو نغمة كمان . إنه عبر كثافات وكثافات من كينونة ينحسر رقيقاً صلباً ، حتى اذا أراد المرء التقاطه لم يلتق إلا موجودات ، يصطدم بموجودات خالية من المعنى . إنه خلفها : حتى إني لا أسمعه ، وإنما أسمع أصواتاً ، اهتزازات هواء تكشف عنه . إنه غير موجود ، مـا دام ليس فيه ما هو زائد على اللزوم : إن الباقي كله هو الزائد على اللزوم بالنسبة إليه . إنه « كائن » .

وأنا أيضاً أردت أن « أكون » . بل أنا لم أرد غير هذا . تلك هي كلمتي الدقيقة : في داخل جميع هذه المحاولات التي لا تبدو بلا صلات ، أجد الرغبة نفسها : أن أطرد الكينونة خارج نفسي ، وأن أفرغ اللحظات من شحمها ، وأن ألويها وأجففها ، وأن أتطهر وأتصلب ، لكي أنتهي الى اطلاق صوت واضح دقيق لنغمة ساكسفون . بل إن بإمكان ذلك أن يكون عبرة خلقية : كان

ثمة انسان مسكين قد أنسأ العالم. كان مثلنا، كالناس الآخرين، في عالم الحدائق العامة، في المقاهي، في المدن التجارية، وكان يريد ان يُقنع نفسه بأنه كان يعيش في مكان آخر، خلف قماشة اللوحات، مع رؤساء «تينتوريه» ومع فلورنتي «غوزولي»، خلف صفحات الكتب، مع فابريس ديل دونغو وجوليان سوريل، خلف اسطوانات الفونوغراف، مع شكاوى الجاز الجافة. وبعد ذلك، بعد أن تباله مدة طويلة، فهم، فتح عينيه، فرأى أنه كان ثمة خطأ: لقد كان في مشرب، بالضبط، أمام قدح من البيرة الفاترة. وقد ظل مرهقاً على المقعد، وفكر: انني أبله. وفي تلك اللحظة بالذات، في الجانب الآخر من الوجود، في ذلك العالم الآخر الذي تمكن رؤيته من بعيد، ولكن دون الاقتراب منه اطلاقاً، أخذت أغنية صغيرة ترقص، وتغنّي: «مثلي يجب ان تكونوا، يجب ان تعاني على القياس».

وغنّى الصوت:

Some of these days
You'll miss me honey

ولا بد ان الاسطوانة كانت مجروحة في هذا الجانب، لأن ضجة غريبة كانت تنبعث منها. وثمة شيء يقبض القلب: هو ان الأغنية لم تُمسّ على الاطلاق بهذا السعال الصغير الذي تحدثه الابرة على الاسطوانة. إنها جدّ بعيدة — جدّ بعيدة خلفه. وهذا ايضاً، أفهمه: إن الاسطوانة تنجرح وتتلف، والمغنية ربما كانت قد ماتت، وأنا مسافر عما قليل، سوف أستقل قطاري، ولكن خلف الوجود الذي يسقط من حاضر الى آخر، بلا ماضٍ، بلا مستقبل، خلف هذه الاصوات التي تنحل من يوم لآخر، وتتقشر وتسيل تحت الموت، تظل الأغنية هي نفسها، فتيّة صلبة، كشاهد بلا هوادة.

وصمت الصوت، وتنحنحت الاسطوانة قليلاً ثم توقفت. وأخذ المقهى، وقد تحرر من حلم مزعج، يجترّ لذة ان يكون ويمضغها من جديد. ويبدو

الدم في وجه صاحبة المقهى ، وهي ترسل الصفعات الى خدّي صديقها الجديد ، فتلك الخدّين الضخمين الأبيضين ، ولكنها لا تتيح لي تلوينها . انها عدم ؟ ميت . اما انا ، فاني الآن اغرق في نصف سبات . بعد ربع ساعة ، سأكون في القطار ، ولكني لا افكر بذلك . اني افكر بأميركي حليق الذقن ، ذي حاجبين كثيفين اسودين ، يختنق من الحر ، في الطابق العشرين من احدى بنايات نيويورك . ان السماء تحترق فوق نيويورك ، وقد التهبت زرقة السماء ، واقبلت ألسنة لهب ضخمة صفراء تلحس السطوح ، وصبية بروكلين سيقفون وهم في سروال الحمام ، تحت رشاش الرش . والغرفة المظلمة في الطابق العشرين تنضج تحت نار حامية ، ويتنهد الاميركي ذو الحاجبين الاسودين ، ويلهث ويتدحرج العرق على خديه . انه جالس بقميصه ذي الكمين القصيرين ، امام البيانو ، وان في فمه مذاق دخان ، وفي رأسه شبح هواء . « بعض تلك الايام » ان توم قادم بعد ساعة ، وعلى كتفه قرابته المسطحة ، وسوف يسقطان كلاهما على الكراسي الجلدية ويشربان كؤوساً دهاقاً من الكحول ، فتقبل نار السماء تلهب حلقيهما ، ويشعران بثقل نعاس محرق هائل . ولكن يجب اولاً عزف هذا اللحن . « بعض تلك الايام » وتمسك اليد الندية بالقلم على البيانو . « بعض تلك الايام ..... »

لقد حدث ذلك على هذا النحو . على هذا النحو او على نحو آخر ، الامران سيّان . انها ولدت هكذا . وقد اختارت ، لتولد ، جسم ذلك اليهودي المتهدّم ذي الحاجبين الفحميين . كان يُمسك قلمه برخاوة ، وقطرات من العرق كانت تسقط من اصابعه ذات الخواتم على الورق . ولماذا لم اكن انا ؟ لماذا وجب ان يكون بالذات ذلك العجل الضخم الطافح بالبيرة القذرة والكحول لكي تتم هذه المعجزة ؟

— مادلين ، هل تريدين ان تضعي الاسطوانة مرة اخرى ؟ مرة واحدة ، قبل ان اذهب ؟

فأخذت مادلين تضحك وأدارت المقبض ، فعاد الصوت من جديد ، ولكني

كففت عن التفكير بنفسي ، اني افكر بذلك الشخص هناك ، الذي ألّف هذا اللحن ، ذات يوم من تموز ، في حرّ غرفته الأسود . اني احاول ان افكر فيه وعبره ، النغم ، عبر الاصوات البيضاء للمرّة التي يرسلها الساكسفون . لقد صنع هذا . كانت له هموم . ولم يكن كل شيء ، بحزني كما كان ينبغي . كانت ثمة فتيات يبغي دفعها — ثم انه كان لا بد ان يكون ثمة ، في مكان ما ، امرأة لا تفكر فيه على النحو الذي كان يتمناه ـ ثم انه كان ثمة ايضاً تلك الموجة الخانقة من الحرارة التي كانت تحوّل الناس الى بِرْكة من الشحم الذائب . ان ذلك كله ليس فيه ما هو جميل ولا ما هو مجيد . ولكني حين اسمع الاغنية وافكر بأن ذلك الرجل هو الذي وضعها ، فاني اجد عذابه ورشح عرقه . المؤثر . لقد كان محظوظاً ، ولا بدّ انه لم يدرك ذلك . لا بدّ انه قد فكر : ان هذه الاخيرة ، اذا اوتيت بعض الحظ ، ستعود علي بخمسين دولاراً ! ولكن ، هذه هي منذ سنوات ، المرة الاولى التي يبدو لي فيها رجل ما مؤثراً . اودّ لو اعرف شيئاً عن هذا الرجل . سيهمّني ان اعرف نوع الهموم التي كان يعانيها ، اذا كانت له امرأة او اذا كان يعيش وحيداً . وليس ذلك بداعي نزعة انانية بل على العكس من ذلك . وانما لانه فعل هذا . ليس بي رغبة الى التعرف عليه — والحق انه ربما يكون قد مات . وانما اودّ ان احصل على بعض المعلومات عنه وان اتمكن من التفكير به ، بين وقت وآخر ، اذ اسمع الى هذه الاسطوانة . واحسب ان هذا الشخص لن يتأثر على الاطلاق اذا قيل له ان هنالك ، في المدينة الفرنسية السابعة ، قريباً من المحطة ، شخصاً يفكر فيه . اما انا ، فسأكون سعيداً ، لو كنت مكانه ؛ اني احسده . يجب ان امضي . وأنهض ، ولكني اظل لحظة متردداً ؛ فانا اودّ ان اسمع الزنجية تغني . للمرة الاخيرة .

انها تغني . ها هما اثنان قد أنقذا : اليهودي والزنجية . أنقذا . لعلهما قد ظنّا انهما ضاعا حتى النهاية ، غرقا في الكينونة . ومع ذلك ، ليس ثمة من يستطيع ان يفكر فيّ كما افكر فيهما ، بتلك العذوبة . لا احد ، حتى ولا آني . انهم بالنسبة لي يشبهون قليلاً الموتى ، يشبهون قليلاً ابطال رواية . لقد اغتسلوا

من اثم ان يكونوا. لا تماماً، بكل تأكيد — ولكن الى الحد الذي يستطيع الانسان ان يفعله. ان هذه الفكرة تبعث فيّ الاضطراب فجأة، لأني لم اكن آمل حتى هذا بعد. انني أحس بشيء يلامسني بخجل، ولا اجرؤ ان اتحرك لأني اخشى ان يزول هذا. شيء لا اعرفه بعد: نوع من الفرح.

الزنجية تغني. أليس بالامكان تبرير كينونتها؟ ولو قليلاً جداً؟ اني احسني مخوفاً بصورة هائلة. ليس ذلك لأن لدي كثيراً من الأمل. وانما انا شخص قد تجلد تماماً بعد رحلة في الثلج، ثم دخل فجأة غرفة دافئة. وأظن انه سيبقى جامداً امام الباب، ما يزال مقروراً، وان ارتعاشات طويلة ستسري في جسمه.

Some of these days
You'll miss me honey

اتراني لن استطيع ان اجرّب؟ طبعاً، ليست القضية قضية لحن موسيقي... ولكن اتراني لن استطيع، في ميدان آخر؟ يجب ان يكون كتاباً: فانا لا احسن صنع اي شيء آخر. ولكن، لا كتاب تاريخ: ان التاريخ يتحدث عما سبق ان كان — ولا يستطيع كائن على الاطلاق ان يبرر كينونة كائن آخر. لقد كانت غلطتي رغبتي في ان ابعث مسيو دورولبون. وانما اقصد نوعاً آخر من الكتب، لا ادري تماماً اي نوع — ولكن يجب ان يحدس الناس، خلف الكلمات المطبوعة خلف الصفحات، بشيء لن يكون، شيء فوق الكينونة، حكاية مثلاً، كتلك التي لا يمكن ان تحدث، مغامرة. وينبغي ان تكون جميلة وقاسية كالفولاذ، وان تخجل الناس بكينونتهم.

اني ذاهب، وانا احسني مبهماً. انني لا اجرؤ على اتخاذ قرار. لو كنت واثقاً من انّ لي موهبة... ولكني ابداً — ابداً لم اكتب شيئاً من هذا القبيل، كتبت مقالات تاريخية، نعم، رغم انها... اريد كتاباً، رواية. وسيكون ثمة

الناس يقرأون هذه الرواية ويقولون : « ان انطوان روكنتان هو الذي كتبها ، لقد كان شخصاً احمر الشعر يتسكع في المقاهي » . وسيفكرون في حياتي كما افكر في حياة تلك الزنجية : كشيء ثمين ونصف اسطوري . كتاب . بالطبع ، لن يكون ذلك اولاً الا عملاً مضجراً ومضنياً ، ولن يمنعني من ان اكون ، ولا ان احس انني كائن . ولكن لا بد ان تأتي لحظة يصبح فيها الكتاب مكتوباً ، ويصبح خلفي ، واظن ان شيئاً من نوره سيسقط على ماضيّ . ولعلي استطيع آنذاك ان اتذكر ، عبره ، حياتي من غير اشمئزاز . ولعلي ذات يوم ، اذ افكر بهذه الساعة بالذات ، هذه الساعة الكئيبة التي انتظر فيها ، منحني الظهر ، ان يحين الوقت لأصعد القطار ، لعلي سأشعر بقلبي يزداد سرعة في الخفق وسأقول لنفسي : « في ذلك اليوم ، وفي تلك الساعة ، انما بدأ كل شيء » . وآنذاك سأنجح — في الماضي ، وليس في غير الماضي — ان اقبل نفسي .

الليل يهبط . وفي الطابق الاول من فندق برنتانيا ، اضيئت نافذتان . ورائحة الخشب الرطب تنبعث قوية من مستودع « لانوفيل غار »[١] : ان المطر سيهطل غداً على بوفيل .

تمت

---

(١) المحطة الجديدة .